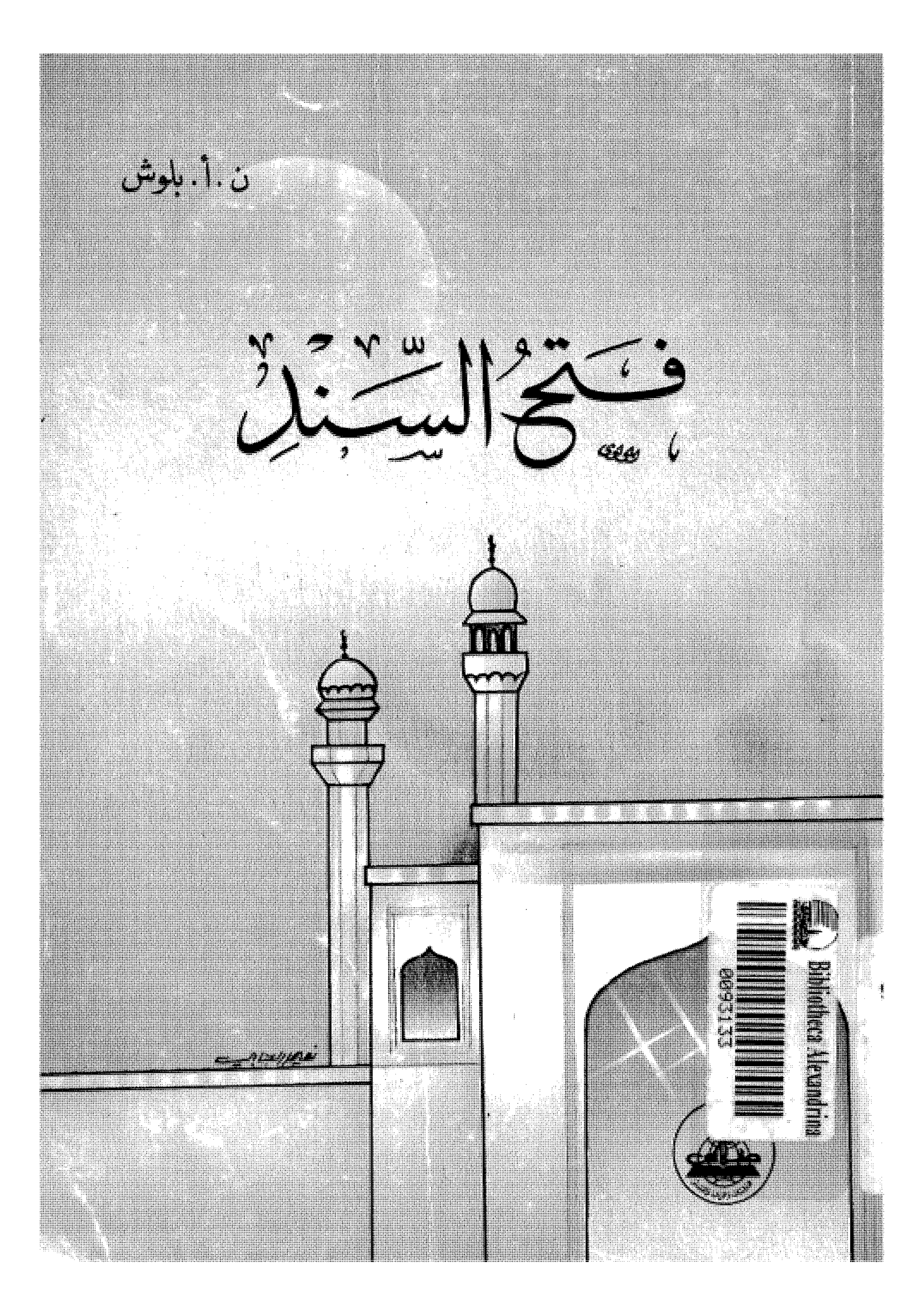

ن . أ . بلوش
فتح السند



دمشق ــ اوتوستراد المزة

هاتف

٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١

تلكس : ٤١٢٠٥٠

ص . ب : ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لمصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

فتح السند

الطبعة الأولى
١٩٩١

ن . أ . بلوش

فتح السند

فتح السند / ن. أ. بلوش. ـــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩١. ـــ ٢٣٢ ص؛ ٢٠٥ سم.

١ ـــ ٩٥٦٫٠٤ ب ل و   ف   ٢ ـــ العنوان   ٣ ـــ بلوش

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـــ ١٩٩١/٩/٧٨٠

رقم الإصدار ـــ ٥٤٢

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد

إن الهدف الرئيسي من تحضير هذه النسخة هو التأكيد بقدر الإمكان على صحة النص الفارسي الفتحنامه. إن المعلومات الإضافية التي وردت تحت عنوان ملاحظات وتعليقات (ص ١٩ ــ ١٥٨) تهدف أيضاً إلى توضيح النص وسياقه السردي. وبنفس الوقت فقد بذلت الجهود لتوضيح مثل تلك النقاط التاريخية والجغرافية التي تتطلب الشرح.

تم استخدام أغلب العمل التمهيدي المنجز في الفترة الواقعة ما بين ١٩٤٤ ــ ١٩٥٣م في إعداد النسختين من الترجمة السندية والاوردية عن النص والمنشورة من قبل مجلس الآداب السندية في حيدر أباد السند، في عام ١٩٥٤ و١٩٦٣م على التوالي. وبموجب العمل الإضافي المنجز منذ ذلك الحين وصولاً إلى هذه النسخة، وبفضل توجيه الأستاذ الراحل عبد العزيز الميمني من الجامعة الإسلامية في اليجرة استطعت أن أطلع على المصادر العربية ذات العلاقة بالموضوع مما مكنني من استيعاب أفضل للخلفية التاريخية والأدبية للفتحنامه.

هذه النسخة، التي تمثل تقدماً كبيراً مقارنة بكمية الأبحاث السابقة التي بذلت على هذا العمل التاريخي الفريد، تنشر الآن باعتبارها «الجزء ــ ١» من «المجلد الأول» ضمن مشروع الـ ٢٥ مجلداً المقترحة لمعهد المصادر الأصلية للتاريخ

الإسلامي الهندي. وتم اقتراح نشر نسختين منفصلتين، إحداهما للترجمة العربية والأخرى للترجمة الإنكليزية باعتبارهما «الجزء ــ ٢» و«الجزء ــ ٣» من نفس المجلد.

نقدر بامتنان كبير المنحة السخية التي تلقيناها من اللجنة الوطنية للاحتفال بالذكرى المئوية للقرن الهجري لنشر هذه الأجزاء الثلاثة.

نقدم الشكر أيضاً إلى هيئة مكتبة جامعة البنجاب، والمكتبي السيد م. أنوار الحق، والمسؤول عن القسم الشرقي سيد جميل أحمد رضوي، للتسهيلات التي قدموها لي لدراسة أقدم مخطوطة للفتحنامه المحفوظة في مجموعة ازد.

للأسف، تسلل عدد كبير من الأخطاء المطبعية إلى النص وذلك بسبب الاضافة المعقدة للأعداد في متن النص ولعوامل أخرى، والتي سيقوم القارئ الكريم بتصحيحها أولاً كما ظهرت في الصفحات المخصصة للأخطاء المطبعية، وكذلك الأمر مع المصادر المذكورة تحت عناوين «اختلافات» وأيضاً تحت عنوان «ملاحظات وتعليقات».

ن. آ. بلوش
إسلام أباد
١٠ رمضان ١٤٠٢ هـ
٢ تموز ١٩٨٢ م

المقدمة

في عام ٦١٣ هـ/١٢١٦ م، خلال فترة حكم السلطان ناصر الدين قباجة حاكم السند وجنوب غرب البنجاب (٦٠٢ ــ ٦٢٥ هـ/١٢٠٥ ــ ١٢٢٨ م) عثر الباحث والأديب البارز علي بن حامد أبو بكر الكوفي على كتاب عربي حول تاريخ الفترة الأولى من الفتح العربي للسند، حيث بقيت مخطوطته محفوظة لدى عائلة لامعة هناك هي عائلة القديس من أرور وبخر في السند. كانت العائلة تنتسب مباشرة إلى عثمان بن أبي الاس الثقفي. وبذلك فإنها كانت تنتمي إلى بني ثقيف الذي قام أفرادها بدور هام في فتح السند. ونظراً للأهمية المميزة لهذا العمل في الأوساط العلمية، وباعتبار أن هذه المخطوطة كانت مكتوبة باللغة العربية فإنها ظلت لذلك الحين مجهولة، تعهد علي الكوفي بترجمة هذه المخطوطة إلى اللغة الفارسية وبهدف أن تعرف وتنتشر بشكل واسع.

العمل الأصلي

صرَّح علي الكوفي في مقدمته من (ص ٤ ــ ١٠) وبشكل تام عن الظروف التي دعته إلى أن يأخذ على عاتقه القيام بهذه الترجمة، لكنه لم يذكر العنوان الدقيق للنص العربي الأصلي ولا اسم مؤلفه.

يشير علي الكوفي في ترجمته وبشكل مستمر إلى العمل باسم «فتحنامه» في الصفحات (٧ ـ ٨، ١٠ ـ ١٩١) وبالتالي فإنه من المناسب أن يدعي هذا النص في ترجمته بفتحنامه، على كل حال فهو يشير إليه في مكانين آخرين من ترجمته باسم تاريخ الهند وفتح السند (ص ٦)، أو فتح بلاد الهند وفتح السند (ص ١٩٠). هذه الإشارات بالاضافة إلى الدليل الداخلي المستند على مقارنة مقاطع من هذا النص مع الفصل المعنون بـ «فتوح السند» في كتاب البلاذري «فتوح البلدان» والذي اعتمد بشكل رئيسي النقل عن أبو الحسن علي بن محمد المدائني، يدل على أن النص الأُصلي إما كُتب من قبل المدائني أو كان يعتمد أساساً على أعماله. عندما كتب ياقوت عن صنم ملتان، ذكر بأن المدائني أشار إليه في كتابه «فتوح الهند والسند» الأمر الذي يعني إما سجله المدائني في أعماله المختلفة عن فتوحات الهند والسند، أو بالتحديد كتاب المدائني الذي يحمل العنوان أعلاه والذي سبق ياقوت. لا يمكن استبعاد الافتراض الأخير، مع أنها وحتى الآن، الإشارة الوحيدة لوجود مثل هذا العمل. كان المدائني مؤرخاً لا منازع له في تاريخ الفترة الأُولى للأراضي الشرقية في عهد الخلافة والتي ألف عنها ما لا يقل عن ١١ كتاباً. عالجت ثلاثة منها فتح مكران والسند وإدارتهما. ذكر ابن النديم عناوينها: «كتاب فتح مكران، وكتاب ثغر الهند، وكتاب عمال الهند». وفي هذه العناوين تعني الهند جوهرياً السند التي عين لها الحكام خلال الخلافتين الأموية والعباسية، وألف المدائني أيضاً كتاباً عن بني ثقيف بعنوان (تاريخ الثقيف) الذين قاموا بدور حاسم في فتح مكران والسند.

تم ضم الجزء الأول من فصل البلاذري تحت عنوان «فتح السند» الموثق استناداً على ما رواه المدائني والذي يتعامل مع الأحداث الأولى والفتح الأخير لمكران والسند من قبل محمد بن القاسم، وبكامله إلى الفتحنامه. إلى جانب ذلك تحتوي الفتحنامه على معلومات مهمة أخرى تمَّ ذكرها في نصوص المدائني على الرغم من أن المترجم لم يبالِ تماماً بما اعتمده النص الأصلي في اسناده والتي تعرض بعضها للتقطيع وبعضها الآخر للحذف بكامله، إلا أننا نجد

حوالي ثلاث عشرة رواية منثورة عبر الكتاب (الوصف الأول في الصفحة ٥٦ والأخير في الصفحة ١٨٧) والتي أشير فيها إلى المدائني باعتباره المصدر الموثوق به. تعود هذه الحقائق إلى النتيجة التالية وهي أن أغلب المعلومات التاريخية الموثوق بها التي اعتمدتها الفتحنامه مستمدة من أعمال المدائني (١٣٥ــ٢٢٥/٧٥٢ــ٨٣٩م) والتي كتبت في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. هناك صنف آخر من المعلومات استمدت من مصادر والتي يمكن أن تكون قد أضيفت فيما بعد من قبل الأسلاف الأوائل لعائلة قيس من أرور وبخر. حتى لو كان الأمر كذلك، فإن الفتحنامه يصنف بإعتباره أول كتاب يبحث في تاريخ الهند الإسلامية وربما يمكن حتى اعتباره أول عمل تاريخي حقيقي حول الأحداث التاريخية التي جرت خلال فترة تاريخية معروفة، حيث لم يسبقه كتاب آخر في شبه القارة الآسيوية الجنوبية.

الترجمة الفارسية لعلي الكوفي

إلى جانب المحتوى التاريخي الثمين يحتوي الفتحنامه على روايات أخرى ذات طبيعة ثانوية والتي اختلقها بأغلبها علي الكوفي في ٦١٣هـ/١٢١٦م، أو في فترة سابقة قليلاً. وذلك لأنه لم يقيد نفسه بترجمة النص العربي الأصلي فقط وإنما أخذ على عاتقه وبسرور صياغة النص الفارسي بأسلوب أدبي مزخرفاً إياه بمحتوى رومانسي وذلك حسب التقاليد الفارسية الأصلية، لكي يقوم معاصروه والأجيال اللاحقة بقراءته باهتمام ومتعة.

كان أساس حجته هو التالي:

على الرغم من أن العمل الأصلي باللغة العربية كان جديراً بالثناء من ناحية الأسلوب والانشاء وحاز على ثقة وتقدير السلطات العربية، ولكنه كان خالياً من الزخرفة التي تتميز بها صياغة اللغة الفارسية، وبالتالي لم يحقق شهرة واسعة بين الشعوب غير العربية.

لم يعشق من قبل إطلاقاً أي عبقري أدبي من بلاد فارس هذه العروس المعروفة باسم

الفتحنامه وجهز لها الأزياء من مخازن الألفاظ والعدالة والحكمة، وزينها بزخارف من خزانة العقل. لم يجر أحد من قبل أبداً بحصانه على ساحة السباق هذه.

لذلك، وبكل حماس، حاول علي الكوفي أن يعوض عن هذه النواقص في ترجمته الفارسية، ومن أجل هذا الهدف، أضاف مقدمات مقتضبة إلى الأجزاء المختلفة وأرفق ذلك بصور شعريه الخاصة بالتشبيه في القصيدة، وأدخل هنا وهناك مقاطع شعرية من نظمه ومن نظم الآخرين أيضاً، ومنح الألقاب لمحمد بن القاسم وآخرين غيره تبعاً لما يناسب زمانه، ووضع النصائح الحكيمة والتحذيرات في أفواه الوزراء ورجال الحاشية الملكية بما يتناسب مع نظريته في فن الحكم، وأطال في المحادثات الجارية بين الشخصيات المختلفة، وحتى إنه في بعض الأحيان أشبع القضايا البسيطة مثل المراسلة بين الحجاج ومحمد بن القاسم بالألفاظ المنمقة والخطابة. وغالباً ما كان يدع العنان لخياله ليستحضر الحكايا بذكاء ورومانسية. من بين تلك الحكايا هي حكاية الساحرة في مدينة أرور والسجين البرهمي في مدينة أرور الذي يلقي أبياتاً من الشعر الفارسي (ألفها علي الكوفي) وظروف ولادة جيسيه، ووقوع الأميرة جنجي ابنة داهر (حاكم كيرا) في غرام جيسيه، والحكاية الطويلة لنجاح المؤامرة التي حاكتها ابنتا داهر للإيقاع بمحمد بن القاسم ومقتله. على أية حال، بما أن مثل هذه المداخلات واضحة ويمكن ملاحظتها بسهولة، فإنها لم تُقلل من أهمية المضمون التاريخي للفتحنامه. وبقدر ما تعكس تلك المداخلات المقدرة الأدبية التي تمتع بها علي الكوفي، وتضفي مسحة جمالية على أسلوبه النثري، فإنها هي التي أدت إلى إعطاء كتاب الفتحنامه ميزة الكتاب الوحيد من نوعه في النثر الفارسي المكتوب في بداية القرن السابع الهجري وربما يكون أول كتاب بهذا القياس الكبير أُنتج في شبه القارة الآسيوية الجنوبية. في الواقع فإن علي الكوفي استهدف في ترجمته تقديم «نسخة فارسية شعبية» للنص العربي الأُصلي، ونجح في إنجاز ذلك. الفتحنامه هي نسخة فارسية شعبية من الأصل بما في ذلك من حسنات وسيئات. من الصعب التأكد من الشهرة الفعلية للكتاب في الماضي البعيد، وذلك لعدم بقاء أية نسخة قديمة من الفتحنامه، فقد أنهى علي الكوفي ترجمته في ٦١٣ هـ/١٢١٦م بينما يعود تاريخ أقدم نسخة

منها (وهي المخطوطة الموجودة في جامعة البنجاب) إلى عام (١٠٦١هـ/١٦٥١م). ولم تظهر إلى حد الآن أية نسخة في الفترة الفاصلة والبالغة ٤٣٥ سنة. على كل حال بعد حوالي ١٥٠ سنة من قيام علي الكوفي بنشر كتابه في العاصمة أج، بإهداء وربما تقديم الكتاب لرئيس الوزراء (ملك الوزراء) فإن نُسخاً منه كما يبدو وصلت إلى الدوائر الأدبية على الأقل في منطقة أُج ملتان. في إحدى رسائله الموجهة إلى جامس تهته في السند خلال الفترة ١٣٦٠ــ١٣٦٥م يؤكد حاكم ملتان ماهرو على الإشارة إلى خيانة ابنتي داهر والمصدر الوحيد على ذلك هي الفتحنامه ليدعم اتهاماته الموجهة ضد القيادة السنود.

مرة أخرى وبعد أكثر من ٢٠٠ عام، وبانعطاف القرن السادس عشر وفي بداية القرن السابع عشر، جاء ذكر الفتحنامه في العديد من الأعمال التاريخية فقد ذكرها مؤلفو طبقات أكبر (١٠٠٢هـ/١٥٩٣ــ١٥٩٤م)، تاريخ السند أوتاريخ المعصومي (+١٠٠٩/+١٦٠٠م)، وتاريخ الفريشته (١٠١٥/١٦٠٦ــ٧) وبفلارنامة (+١٠١٧/+١٦٠٨) وزبدة التواريخ (١٠١٤ــ١٠٢٥/١٦٠٥ــ١٦١٦) ثم، ذكر الكتاب مرة أخرى في أعمال لاحقة مثل تاريخ بن المفضل (١١٢٤ــ٣١/١٧٠٢ــ١٧١٩)، وتحفة الكرام (+١١٨٢/+١٧٦٨).

عنوان كتاب علي الكوفي

كما ذكرنا سابقاً، أشار علي الكوفي في نصه إلى العمل العربي والذي كان يترجمه بالفتحنامه. وعلى الأكثر فإن هذا الاسم كان يناسب عنوان ترجمته الفارسية. لكنه فكر في إرتجال عنوان رنان لترجمته والذي يُركز فيه علي «عين الملك» وهو لقب رئيس الوزراء حسين. وهكذا فقد عنون كتابه بـ «منهاج الدين والملك الحضرة الصدر الأُجل العالم عين الملك» (ص ١٩٠ سطور من ١ــ١٨). ومع أنه يقول بشكل خاص أن هذا عنوان الكتاب (ص ١٩٠) إلا أنه كما يبدو قد عنون الكتاب في البداية بشكل مختلف نوعاً ما:

«سماء الدين والملك الحضرة الصدر الأجل العالم عين الملك» (ص ١٩٠ سطر ١٦). بهذه الطريقة يضع العنوان في السطر السابق (في نفس الصفحة ١٩٠) والذي نسي أن يحذفه لاحقاً. لسوء الحظ، إنه فكر بوضع عنوان جديد لعمله عندما كان يقترب من الانتهاء، وبالتالي ذكر العنوان الجديد في الخاتمة، وكما يبدو فإنه لم يشرح في حاشية النسخة الكاملة لمخطوطته هذا الأمر، وهكذا بقي العنوان بدون تعليق وبالتالي خلق الكثير من الارتباك لاحقاً فيما يتعلق بالعنوان الحقيقي لترجمة علي الكوفي، عنوانه المرتجل الجديد (منهاج الدين والملك) بالإضافة إلى موقع كتابته في آخر الكتاب كان طويلاً جداً لكي يتداوله الناس. هذا واضح من أولى الإشارات المعروفة لهذا العمل من قبل الحاكم ماهرو الذي لم يذكره بالعنوان الذي منحه إياه علي الكوفي ولكنه دعاه بـ «تاريخ داهر بن جج». وكما يبدو فإن بعض الناسخين وضعوا لاحقاً عنواناً للمخطوطة على شاكلة إسكندر نامه، فأصبح ججنامه، حيث أن مآثر جج سيطرت على الجزء الأول من الكتاب. مع نهاية القرن السادس عشر الميلاد اختصر مؤلف «طبقات أكبر»، و«زبدة التواريخ» العنوان الذي أعطاه علي الكوفي لكتابه ليصبح «منهاج المسالك» مع أن «مؤلف طبقات أكبر» (١٠٠٢هـ/١٥٩٣ـــ١٥٩٤م) ذكر بنفس الوقت بأن العمل يُعرف بشكل واسع باسم ججنامه. على كل حال، تحمل أقدم نسخة كاملة من العمل والمؤرخة في عام ١٠٦١ هـ/ ١٦٥١م عنوان «تاريخ فتح السند» مع توضيح الأمر بأن الكتاب يُدعى أيضاً بججنامه. وهي إحدى المخطوطات التي يعود تاريخها إلى ١٢٨٨م، تحمل اسم محمد بن قاسم فأصبح العنوان «تاريخ القاسم» وبما أن الكتاب يتعامل بشكل رئيسي مع فتح السند، فقد تمَّ الاحتفاظ بالعنوان «فتحنامه السند» الذي تبنته الطبعة السابقة.

الفتحنامه في الأعمال الحديثة

جاء ذكر الفتحنامه في الكتب التاريخية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر، وتُرجمت منه أجزاء أو مقتطفات والكتاب بكامله. قدم الملازم نتي بوستس نسخة موجزة عن

المخطوطة باللغة الإنكليزية خلال الفترة ١٨٣٨ ــ ١٨٤١ م، وكان تقديمه غير ملائم في أكثر من معنى. تمت لاحقاً ترجمة أمينة لمقتطفات عديدة تُغطي أغلب الأحداث التاريخية إلى اللغة الإنكليزية من قبل هنري إليوت، وهذه الترجمة التي صورها فيما بعد جون دوسون. ونشرت في عام ١٨٦٧ م، والتي ملأت ٨١ صفحة غطت الكتاب من البداية إلى النهاية، هذا الجهد المشكور، أكثر دقة نسبياً في محتواه مقارنة بالتفاصيل، فبسبب اعتماد الترجمة على مقارنة مخطوطتين فقط، فإنها فشلت في نقل المعاني الدقيقة لبعض التعابير، كما إنها فشلت في التسجيل الصحيح لأغلب أسماء الأشخاص والأمكنة، وفي نفس الفترة فقد لاحظ الفينستون مخطوطة لنفس العمل محفوظة في مكتبة مكتب الهند وأشار إليها باسم تاريخ الهند والسند وأكد للمرة الأولى على أهميتها.

في عام ١٩٠٠ م نَشَرَ ميرزا كلج بك من حيدر أباد ــ السند ترجمته لكامل العمل باللغة الإنكليزية، يروي في مقدمته وبطريقة دفاعية عن المصاعب التي واجهته: «ولكني بقيامي بهذا العمل عانيت العديد من المصاعب. كان هناك العديد من الأخطاء والفجوات في النسخة الموجودة لدي، مما دفعني إلى أن أجمع أكبر عدد ممكن من النسخ من المصادر المختلفة لكي أقارنها مع نسختي ولأملأ الفراغات وأصحح الأخطاء. نجحت في جمع سبع أو ثمان نُسخ من حيدر أباد، وتهته، وسكر، وسهيكربور، وذلك بفضل لطف وتساهل بعض أصدقائي. وبعد مصاعب جمة وصبر طويل، وبمساعدة بعض الباحثين العرب، استطعت أن أصحح الأخطاء وأملأ الفراغات بقدر الإمكان. وبعد ذلك ترجمت الكتاب محاولاً أن يكون أقرب ما يمكن إلى الكلمات الأصلية». كانت هذه أول ترجمة إنكليزية كاملة للنص الفارسي ولكنها بقيت مشوبه بعدد كبير من الثغرات وانعدام الدقة بسبب، كما أوضح المترجم في حاشية المقطع السابق. «لسوء الحظ كانت جميع نُسخ المخطوطة مليئة بالأخطاء والفجوات».

يظهر بأن الترجمة السندية لكامل العمل قد أنجزت في وقت أبكر (قبل

عام ١٩٠٠م) لكن المخطوطة بقيت دون أن تنشر، تعهد ميرزا كلج بك عام ١٩٢٣م بترجمة الكتاب إلى اللغة السندية، ولكن ٦٠ صفحة فقط من هذه الترجمة قد نشرت. في عام ١٩٣٨ نَشَرَ م. حفزر رحمن من بهولبور الترجمة الأوردية التي اعتمدت على الترجمة الإنكليزية التي قدمها ميرزا كلج بك مع الإشارة إلى أن ترجمته من الصعب أن تكون دقيقة.

لم تستطع كل هذه الترجمات غير المباشرة والتي أنجزت عبر أكثر من قرن، مع أنها كانت مفيدة بحد ذاتها، أن تحل محل النص الأصلي لفتحنامه والذي بقي غير منشور على الرغم من الإعتراف بأصالته وقِدمه. في تأكيده على أهمية الكتاب، أشار الفينستون (١٨٩٦م) إلى الحاجة لقيام «شخص قدير» بالدراسة المفصلة للكتاب في سياق بيئته المحلية.

أشار ملاحظاً «على الرغم من أن الكتاب مليء بالكلام الممل، والرسائل المنسوبة إلى الممثلين الرئيسيين، فإنه يشمل على وصف متناسق ودقيق للمبادلات التي تمت خلال غزوة محمد بن القاسم، وبعض الممالك الهندية السابقة. إنه مليء بأسماء الأمكنة، ويلقي الضوء الكثير على جغرافية تلك الفترة، وإذا ما تمَّ فحصه من قبل أي شخص قادر من أن يتحقق من الأسماء السنسكريتية القديمة وأن يزيل جميع التحريفات التي قام بها الكاتب العربي الأصلي والمترجم، بالإضافة إلى العدد الهائل من الأخطاء التي ارتكبها الناسخ».

وحسب أيلوت ودوسون (١٨٦٧م):

«إن قِدم النص العربي واضح ليس فقط من الدليل الداخلي لطريقة السرد وحسب، بل ومن حذف بعض الأسماء التي يمكن ملاحظتها، مثل اسم المنصورة، والتي كان يجب ذكرها إذا كانت موجودة في ذلك الوقت.

بُنيت المنصورة في بداية حكم الخليفة المنصور، والذي تولى الخلافة عام ١٣٦هـ (٧٥٣م). من الواضح بأن الكتاب قد كتب في وقت سابق لذلك الزمن. ثم ومرة أخرى لا يوجد أي ذكر في أي مكان لمسوهي، ومنجبري، وانري، أو البيضاء، وهي مدن مهمة

ذكرها البلاذري وابن حقل وغيرهم من الكتاب الأقدمين الذين كتبوا عن السند، ولذلك فإن العمل يجب أن يكون قد أنجز في وقت سابق لعصرهم. ومرة أخرى، يتضح بأن أغلبية الناس كانوا بوذيين حيث لا يمكن لأي كاتب وخاصة كاتب أجنبي، أن يذكرهم بهذه الصفة، إذا كان قد عاش بعد إنقراض تلك الديانة في الهند. نقرأ عن السمنيس، والرهبان، والفيل الأبيض الملكي، والتي لم نسمع عنها في الغزو اللاحق الذي قام به محمد الغزني، ومرة أخرى استخدمت بعض أجزاء التاريخ من الشهادات الشفوية المتناقلة عن راو ثان، أو ثالث أو رابع، من أولئك الذين اشتركوا في المبادلات المدونة، تماماً بنفس الطريقة التي اتبعها الطبري عندما كتب في القرن الثالث الهجري، وربما في فترة أعقبت مؤلفنا، والذي تنسب كل رواياته إلى الشهود العيان أو السماع».

تطلب الأمر بذل جهد بثلاثة اتجاهات لتحقيق الأهداف التي حددها الفينستون: أولاً التحقق من النص الصحيح لفتحنامه، وثانياً توضيح محتوياته على ضوء المصادر العربية، وثالثاً توضيح مجموعة التسميات والمصطلحات والأحداث بالإشارة إلى البيئة المحلية والمواقع الجغرافية. لم يغامر حينئذ أي عالم بأخذ هذه المهمة على عاتقه.

تمَّ اتخاذ الخطوة الأولى، وهي خطوة هامة، حينما تعهد المرحوم الدكتور دود بوته بتحقيق النص الفارسي على أساس خمس مخطوطات كانت متوفرة لديه. نُشر النص الذي حققه في عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م وباعتباره لغوياً (وكان حينذاك أستاذ اللغة العربية في الكلية الإسماعيلية في جوغشوري، بومبي) ركز انتباهه بشكل رئيسي على صحة التعبير ومن أجل ذلك، سجل جميع الاختلافات بين المخطوطات وبالتفصيل، مفضلاً نسبها إليه لكي تُستخدم في النسخة النهائية. وهكذا فبينما نجح في تقديم نسخة أدبية من العمل، فقد كان يعوزه الوقت لاستكشاف المصادر العربية من أجل أن يملئ الفراغات، ويقوم بالتسلسل المضطرب أحياناً للسرد، أو ليصحح الأسماء الشخصية العديدة العربية الأصل في النص. بقدر ما يمت الأمر بصلة إلى الخلفية التاريخية للأحداث أو إلى المواقع الجغرافية المحلية، فإنه

اكتفى بإضافة حواشي مقتضبه غطت ١٩ صفحة. وكما شرح في مقدمته، فإنه نظراً لضيق الوقت اضطر إلى ترك مناقشة المسائل التاريخية الهامة. خلال الفترة ١٩٤٣ ــ ١٩٥٤م سنحت لي الفرصة للإطلاع على المواد ذات المصدر العربي المناسب والمتعلقة بالسند، وقمت أيضاً برحلات واسعة في منطقة السند والتي مكنتني من تحقيق استيعاب أكبر لطبيعتها الجغرافية. كان هدفي أن أترجم النص الفارسي إلى الإنكليزية وأزوده بتعليق مفصل عن المسائل الجغرافية والتاريخية. في أثناء ذلك حصلت على نسختين هامتين من الفتحنامه، ورأيت أن هناك حاجة لإمداد نسخة جديدة من النص أولاً. كانت هذه هي مخطوطة مكتبة رمبور في الهند ومخطوطة مكتبة تلبور في (حيدر أباد، السند، باكستان)، وكانتا نُسخاً أصلية من المخطوطات (الموجودة في المتحف البريطاني وبنكيبور) والتي استخدمها دود بوته. وكذلك أدى الفحص الدقيق لأقدم مخطوطة كاملة ومحفوظة في مكتبة جامعة البنجاب (والتي استخدمت على عجل من قبل دود بوته إلى بروز الحاجة لزيادة أهميتها على حساب مخطوطة المتحف البريطاني والتي استخدمها دود بوته باعتبارها المخطوطة الأساس).

بالنسبة للنسخة الحالية من النص، وصفت الأهمية النسبية للمخطوطات المختلفة كالتالي:

١ ــ (ب) مخطوطة جامعة البنجاب (مجموعة ارذ رقم آ: بي اي ١١١/٧٧) المؤرخة في ٢٤ شوال ١٠٦١هـ.

٢ ــ (ن) المخطوطة المحفوظة في المكتبة الخاصة للأسرة الحاكمة سابقاً في تلبور، حيدر أباد السند، المؤرخة في ٣ ذي القعدة ١٢٣٢هـ. إنها النسخة الأصلية للرقم ٥ المذكور فيما بعد.

٣ ــ (ر) المخطوطة (رقم ٥٢٠) لنواب المحفوظة في مكتبة رمبور (الهند) والمؤرخة في ١٢٤٥هـ، إنها النسخة الأصلية للرقم (٤) المذكور أدناه.

٤ ــ (م) مخطوطة المتحف البريطاني (رقم ١٧٨٧ أو آر)، المؤرخة

مُحرم ١٢٤٨ هـ استخدمت كنسخة أساسية من قبل دود بوته. إنها نسخة من الرقم ٣ المذكور فيما سبق.

٥ ــ (ب) مخطوطة مكتبة بنكيبور، المؤرخة في ذي القعدة ١٢٧٢ هـ التي استخدمت من قبل دود بوته. إنها نسخة من الرقم ٢ المذكور فيما سبق.

من أجل تحقيق نسخة من النص كانت أمام دود بوته ثلاث مخطوطات من الفترة اللاحقة، وهي مخطوطة مكتبة الجمعية الآسيوية في كلكتا المؤرخة في ٩ تشرين أول ١٨٧١ م (=ك)، ونسخة متأخرة جداً ومليئة بالأخطاء تعود للسيد علاء الدين شمعة (=س)، ونسخة مترجمة للسندية تعود أصلاً لمكتبة بيت تلبور في حيدر أباد السند (=ح) تُشير الاختلافات التي لاحظها إلى أن لهذه المخطوطات أهمية ضئيلة في تحقيق القراءة الصحيحة للنص. وبينما استخدمت في النص القراءات المفهومة أكثر من ١، ٢، ٣، المذكورة أعلاه، فقد تمت ملاحظة اختلافات أخرى أيضاً، وهذه مضافة إلى جميع ما أشار إليه دود بوته من اختلافات قد تمَّ حفظها لأغراض التدوين في القسم الخاص بالاختلافات (ص ١٩٣ ــ ٢٥٧).

تركز الإهتمام الرئيسي أثناء إعداد هذه النسخة على تحقيق النص الصحيح لفتحنامه قدر المستطاع. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، فإن المساهمة الرئيسية تتألف من إدخال قراءات أفضل مستمدة من الدراسة المقارنة الدقيقة للمخطوطات الثلاث الأوائل؛ وتكوين تسلسل سردي أكثر دقة في بعض المواقع من السرد الذي وكما يبدو قد تعرض للإضطراب بسبب عدم وضع الأرقام في مكانها الصحيح في المخطوطة؛ وإعادة كتابة الأسماء الشخصية الأصلية ذات المنشأ العربي كما وردت في المصادر المختلفة، وتأكيد النص الصحيح للأمثال العربية من المصادر الأدبية الأصلية، وملء الفراغات على أساس المقاطع الأصلية التي تمَّ تحديدها في المصادر العربية. على أية حال، لم يكن بالإمكان ملء جميع الفراغات: حيث بقي بعضها؛ وربما لا يمكن تصحيحها أبداً. على كل حال أدت القراءة الموسعة جداً في

المصادر العربية (الأدبية، والسيرة الذاتية، والتاريخية إلـخ)، إلى معرفة النصوص الأصلية لبعض المقاطع التي وردت فيها فراغات في الفتحنامه: مثل تلك المتعلقة بتعيين سنان والتي صححت على أساس الرواية الأصلية المحفوظة في كتاب ابن قتيبة «عيون الأخبار»، وبشكل مماثل تمَّ تصحيح الفراغات في المقاطع المتعلقة بحملات عبيد الله وبديل ضد دبل وذلك استناداً إلى الرواية الأصلية الواردة في فتح البلدان للبلاذري، والتصحيح الثالث ورد في المقطع الخاص برسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم وذلك استناداً على مطابقة النصوص التي رواها الطبري واليعقوبي في تاريخيهما. تمَّ ملء هذه الفراغات الثلاثة بوضع المعلومات الناقصة ضمن أقواس مُربعة. ولأن تحقيق النص الصحيح لفتحنامه يحوز على الاهتمام الرئيسي في هذه النسخة، فإن توجه التعليقات والحواشي، يستهدف بشكل رئيسي توضيح النص ومحتواه. وفي نفس الوقت، جرت محاولة لشرح النقاط التاريخية والجغرافية التي تتطلب التوضيح. نقترح ضم النقاش التفصيلي لهذه الجوانب، بالاضافة إلى المصدر الأُصلي للروايات التي أدخلت في الفتحنامه، في النسخة التالية من الترجمة الإنكليزية للكتاب التي هي الآن قيد الإعداد. ومن الجدير بالذكر هنا هو أن الدراسة النقدية للفتحنامه وغيرها من السجلات ذات العلاقة بالموضوع والمتوفرة في المصادر العربية تقودنا إلى الاستنتاجات التالية:

١ ــ تحتوي الفتحنامه على الرواية الأكثر تفصيلاً عن الفتح العربي للسند والتي لا تتوفر في أي عمل تاريخي معروف آخر حيث تشتمل بشكل رئيسي على الروايات المستمدة من أعمال المدائني المفقودة الآن. ويستند الفصل الذي خصصه البلاذري للحديث عن «فتح السند» بشكل رئيسي أيضاً على روايات المدائني ولكنه اختصرها إلى الحد الأدنى من المعلومات الجوهرية. أما في الفتحنامه فقد تم الحفاظ على أكثر الروايات تفصيلاً في وصف الحملة العسكرية عموماً، وعلى روايات الشهود العيان عن المعارك المختلفة خصوصاً. ووفقاً لذلك أصبحت الفتحنامه مستودعاً لأهم سجل تاريخي وفي هذا السياق لأول عمل تاريخي هام في مجال التاريخ الإسلامي الهندي.

٢ ـــ تم التخطيط المسبق لفتح السند وإلى أدق التفاصيل فيما يتعلق بالامدادات الاستراتيجية على السواء حيث تم تزويد الجيش بكل ما يحتاجه واستمر تزويده بها طوال الحملة العسكرية. ولأول مرة، تم اشتراك جيش قوي مع أسطول جيد التجهيز لتحقيق النصر. وضم أفضل القادة والجنود خبرة ومراساً إلى جيش محمد بن القاسم الذي ثبت لاحقاً بأن مشورتهم كانت حاسمة في تخطيط استراتيجيات الحملة بكاملها وفي الاعداد للمعارك المعينة على السواء. وبقي مع محمد بن القاسم جميع هؤلاء القادة طوال الحملة ما عدا واحد هو جهم بن زهير الجعفي الذي نقل إلى جبهة خراسان تحت ضغط بعض الظروف القاهرة.

٣ ـــ أقيمت اتصالات منتظمة طوال الفترة التي جرت فيها الحملة بكاملها حيث طلب الحجاج وحصل على تقارير منتظمة يوماً بيوم من محمد بن القاسم وكان يرسل له التعليمات التي كان ينفذها ابن القاسم بأمانة. كان ديوان الحجاج في واسط (العراق) يعمل، بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ وأغراض، كمركز للقيادة العامة لحملة السند.

٤ ـــ تبرهن الشواهد التفصيلية الموثوق بها والتي وردت في الفتحنامه ودون أدنى قدر من الشك على أن شعب السند، وكان في غالبيته من البوذيين، ورجال دينهم وقادتهم، كانوا جميعهم يكنون للهيمنة البرهمية على بلادهم العداء، ولذلك، سارعوا للانضمام إلى محمد بن القاسم ليضعوا نهاية سريعة لهذه الهيمنة.

٥ ـــ تحتوي الفتحنامه أيضاً، بالاضافة إلى تفاصيل عملية الفتح، على مقتطفات من المعلومات الهامة عن (آ) التوزيع العرقي للسكان آنذاك في السند وعن (ب) البوذية في السند و(جـ) العلاقات السياسية بين مملكة السند والإمارات الأخرى في المنطقة.

ن. آ. بلوش

إسلام أباد

الشكرُ والحمدُ لله تعالى ، الذي ذِكرُ كرمِهِ ، هو خلاصةُ الإيمان ، وشكرُ نعمهِ هو مقدمةُ الإيمان ، ذلك الخالقُ الذي إذا أَمرَ كُنْ فيكون ، وذلك القادرُ الذي صفاتُه لا حدودَ لها ، وذلك المقدرُ الذي أنارتْ مشاعلُ الكواكب بروج سماوات قدرته ، وذلك المصوِّرُ الذي صوّرَ المنازل الثابتة بدقائق حكمته ، وذلك الخالق الذي زيّن جمال النهار بالشمس الوهاجة ، وذلك الصانع الذي أسبغ بجلال قدرته خميلة على الليل الداجي ، وبكت عين السحاب في الفضاء الرحب من قهر عدله ، وضحكت من فيض رحمته الورود على الأرض البسيطة ، ذلك الجبارُ الذي رأفَ ورحمَ فرعونَ الذي قضى مائة عام في ضلالة الكفر مخموراً ، من أجل ليلة قضاها ساجداً لله عن إيمان وعقيدة ، وذلك القهار الذي طرد إبليس الذي عبد سبعمائة ألف عام ، من أجل سجدة واحدة لم يسجدها .

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ ٱلخَالِقِينَ﴾[1] ، والحمد لله رب العالمين .

تحية وصلاة وسلام ، على الروضة المطهّرة العَبِقة النبوية الشريفة ، روضة رسول الله ﷺ الذي انصقلت مرآة قلوب المؤمنين بنصائحه ووعظه ، والذي تزينت أرواحهم بمصابيح محبته ، وذلك السالك الذي ما تألمت قدمُه المباركة من أشواك البادية ، وذلك الكريم الذي بضيائه المحمدي جعل خدّام دولته كلّ حسْبَ تسلسله من أولي الأمر .

---

(١) سورة المؤمنون ـــ الآية : ١٤ .

وقهر ببهاء سيفه ورمحه مُتَعَنّتِي ذلك العهد من كفار الحجاز، وفجّار العجم وخراسان، ومتمردي الهند، وبنىٰ مكان الأصنام والأوثان، المساجد والمنابر حتى تظهر آثار الأعمال المحمدية وشواهد المعجزات النبوية، وتمهّد لأصحابه العشرة المبشرة والأتقياء البررة بلسان النبوة وعنصر الجلالة في حقهم هذه البشارة العظيمة في كلام الله المجيد: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً﴾[1] صلوات الله عليهم ورضي الله عنهم أجمعين.

وقد رصَعت مناقب رسول الثقلين محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام قلائد عرائس، ووقّعت فواصل نفائس، حيث كانت برهاناً باهراً وتزييناً لامعاً لهذه التصانيف، ذلك أن أوامر الله سبحانه وتعالى جلت قدرته وصلت نبيه المختار ورسول الثقلين ونبي الحرمين في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱللَّيلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصفَهُ أَوِ ٱنقُص مِنهُ قَلِيلاً * أَو زِد عَلَيهِ وَرَتِّلِ ٱلقُرآنَ تَرتِيلاً﴾[2].

ذلك الذي كان سيداً لبني آدم وعظيم العالمين، صدر الرسالة، وبدر الجلالة، خبير حقيقة العاقبة الذي أقام الليل والنهار تعبداً للباري عز وجل حتى ورمت قدمه المباركة واصفرت سحنته حتى جاء حامل الرسالة الإلهية جبرائيل الأمين صلوات الله وسلامه عليه وقال للنبي المختار: [يا سيد المرسلين وتاج المتقين وقدوة الصدّيقين، لقد صدر الأمر الإلهي من ذي الجلال والإكرام بقوله تعالى: ﴿طه * مَآ أَنزَلنَا عَلَيكَ ٱلقُرآنَ لِتَشقَىٰ﴾[3]].

يا أكمل قمر في الرسل ويا خاتم الأنبياء، يا من يجاب نداه في سدرة المنتهى، لماذا تختار العناء والعذاب لنفسك؟! أشر إليَّ في توسلاتك حتى أرسل إليك بشارتي.

ابتدأ سيد الحقيقة والطريقة آفاق المعرفة، ونثر الدرر في أحاديثه وقال: «يا أخي جبريل أفلا أكون عبداً شكوراً»[4].

---

(١) سورة الفتح ــ الآية: ٢٩.
(٢) سورة المزمل ــ الآيات: ١ ــ ٤.
(٣) سورة طه ــ الآيتان: ١ ــ ٢.
(٤) انظره في كنز العمال: ٧/١٨٥٨١.

بجميع هذه المناقب التي أملكها فأنا نجل عبد ولست بآخر عبيد لله ، وصدرت من عند الله سبحانه وتعالى في حق محمد عليه الصلاة والسلام بعض الأمثال منها :

أولاً : عن قوله عز من قائل :
﴿وَمَآ أَرسَلنَاكَ إِلَّا رَحمَةً لِلعَالَمِينَ﴾[1] .

حيث يبشر بأنه عليه الصلاة رحمة للعالمين .

ثانياً : أضاء رسالته لأصحابه فاستنارت قلوبهم بالهداية ، في قوله تعالى :
﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ﴾[2] .

وفي المثال الثالث : أنهى سبحانه وتعالى الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ وثبتت نبوته باعتباره آخر رسول من عند الله في قوله تعالى :
﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِجَالِكُم وَلَكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيينَ﴾[3] .

وفي مكان آخر يبشر المتقين المخلصين ، ويهدد المفسدين المتعنتين ، حيث قال جل من قائل :
﴿يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلكُفَّارَ وَٱلمُنَافِقِينَ﴾[4] .

ولما كان الله سبحانه وتعالى قد حباك يا سيد الخلق بكل هذه المفاخر والقيم ، فإنك جاهدت في سبيل الله من أجل هداية الناس من دياجير ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإسلام والهداية .

اقتلعت جذور النفاق والجهالة ورفعت رايات الإسلام وعشت طاهراً من كل آثام الشرك والبدع ، فجاءك جبرائيل عليه السلام وقال :

« السلام عليك يا محمد » إن الله سبحانه وتعالى يهديك التحية والسلام وقد أنزل جل جلاله حكمة قضائه ومهد الأمر لك بقوله تعالى :

(١) سورة الأنبياء ــ الآية : ١٠٧ .
(٢) سورة الفتح ــ الآية : ٢٩ .
(٣) سورة الأحزاب ــ الآية : ٤٠ .
(٤) سورة التوبة ــ الآية : ٧٣ .

﴿إِنَّكَ لَا تَهدِي مَن أَحبَبتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

يا محمد لا تتصور أن أحداً بسبب قرابته إليك ومحبتك له يهتدي إلى الله، ولا أحداً ممن وسوس له الشيطان لا تشمله الهداية الإلهية، نحن الهادون فمن أبعدناه لا اقتراب له، ومن أدنيناه لا يبتعد عنا وليس لك على إنسان سلطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهِم سُلطَانٌ﴾[2].

ولهذا لا تفكر يا محمد فإن أولئك الذين عاهدوا الله في (يوم الميثاق) وارتضوا بطوق الطاعة له و(قالوا: بلى لله)، وأقرّوا بوحدانية الله وأخلصوا لخدمة الدولة المحمدية، فإن الله سبحانه وتعالى سيرفع من مكانتهم ويجعلهم الأولياء[3] على عباده.

أما الذين عاندوا مشيئة الله وأظهروا عصيانهم، فإننا بلوناهم بالكفر والضلالة.

وجاء أمر الله أن ﴿جَاهِدِ ٱلكُفَّارَ وَٱلمُنَافِقِينَ﴾[4]، و﴿فَٱقتُلُواْ ٱلمُشرِكِينَ حَيثُ وَجَدتُّمُوهُم﴾[5]، وأن فتوحات خراسان والعجم والعراق والشام والروم والهند كل في لوح مسطور وسيبقى ذكرها حتى أبد الآبدين. والله أعلم بالصواب.

مدح قباجة السلاطين[6] خلّد الله ملكه

لقد تم تسويد صفحات هذه القصة اللطيفة والتمهيد لهذه التواريخ الظريفة أيام تسلم عرش مملكة الشهيد السعيد أبو المظفر محمد بن سام، ناصر أمير المؤمنين، ملك الإسلام، وملك ملوك

---

(١) سورة القصص ـــ الآية: ٥٦.

(٢) سورة الحجر ـــ الآية: ٤٢.

(٣) أي أصحاب الولاية والحكم.

(٤) سورة التوبة ـــ الآية: ٧٣.

(٥) سورة التوبة ـــ الآية: ٥.

(٦) أبو الفتح قباجة السلاطين، ناصر الدين (٦٠٢ ـــ ٦٢٥ هـ/ ١٢٠٦ ـــ ١٢٢٨م) حكم البنجاب الجنوبية والسند بعد موت السلطان الغوري أبو المظفر معز الدين محمد بن سام (١١٧٤ ـــ ١٢٠٦) ذكره العوفي في ترجمته الفارسية لكتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي (انظر مقدمة جوامع الحكمة سلسلة جب التذكارية ـــ ط. لندن ١٩٢٩ ص ١٥).

الأقاليم، مليك بلاد الله، مغيث عباد الله، معين خلق الله، هادم أساس الكفر والضلالة، باني قواعد الدين والهداية، ناصر الأولياء العلماء، قاطع أعداء بني آدم، معز الدنيا والدين، غياث الإسلام والمسلمين، ظل الله في العالمين، نوّر الله ثراه، وجعل الجنة مضجعه ومثواه، تسلمه أبو الفتح قباجة السلاطين، قسيم أمير المؤمنين، وجليس الملك المعظم نصير الدولة القاهرة، خسرو أعظم، وسلطان الحق، وبرهان الخلق، وقطب المعالي، وسند الخلافة، وناصر الدنيا والدين، وعلاء الإسلام والمسلمين، وقامع الأعداء والمتمردين، حيث ضربت له سرادقه بكل جلال واحترام، وعمت أوامره ونواهيه جميع مناطق العالم وأقاليم بني آدم بحكمة، وانزوت طائفة المتمردين والمعاندين، وفي زمانه أحسَّ المخلصون والمتقون بأنهم في أمن وسلام ونعمة، واستقر حكمه وثبتت قواعد سلطنته بحمد الله ومنته، بدرجةٍ أنه إذا وجه راياته إلى أية بقعة من العالم، وصمم وعزم على شيء، فإن عرائس الممالك تأتيه طائعة مطأطأة الرؤوس:

سعدت ياخسرو بالملك ... وانقاد لك كل العالم
لقد هدمت مدائن الظلم ... وبك العدل استقام
تعظم الخطبة باسمك ... وكذاك العام والشهر عظيمان باسمك
وما لم يكن موجوداً في ملك جم[1] ... قد اختتم بالجواهر الثمينة في عهدك

عاشت وسلمت خيمتك وهمتك العالية وأسبغت ظلالها الوارفة علينا.

إن جميع القلوب عدا قلبك غارقة في العصيان
وقد تفرقت الممالك كالخميلة
وإذا أحصينا الممالك
تقدمت دولتك وانزوت الممالك الأخرى

---

(١) هو عند المؤرخين العرب من الطبقة الأولى من ملوك الفرس، قالوا: حكم سبعمائة وست عشرة سنة. انظر تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ــ ط. بيروت ــ دار مكتبة الحياة: ١٦ ــ ١٧.

تعطـــــي يميـــــنك ماتعطيـــــه يسارك
وحـــاتم[1] بالنسبـــة إلــــيك جسد بلا روح

أسأله تعالى أن يجعل نظام هذه المملكة ورونق هذه السلطنة متماشيين مع الأحكام الإلهية والقرآن، وأن يحفظ القصر المنيف والحصن الحصين لهذه الدولة التي ما زالت معمورة الأطراف، وأن يحفظها من نوائب الزمان وأضرار الحدثان.

وأن تكون الخطب على المنابر، والضرب على الدراهم مزينة بألقابه وخطبه العالية حتى انصرام العالم، ودوران الأفلاك، وطلوع جلال الشمس، بحق محمد وآله أجمعين.

سبب ترجمة هذا الكتاب تصنيف علي الكوفي

إن مؤلف هذا السفر المسمى بتاريخ الهند ومقرر فتح السند هو العبد المحمدي علي بن حامد ابن أبي بكر الكوفي.

وكان مؤلف الكتاب بعد أن عاش حياةً رضية وقضى فترة من عمره في الفراغ والدعة، وحظي بأكمل الحظ وبأجزل النصيب في دنياه، وبسبب نوائب الحدثان، وطوارق الزمان، وفراق موطن سكناه، جاء ليعيش بقية حياته عند حضرة (آجه) حيث أن ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]. وأبدل كأس السرور بحنظل الأسى والحرمان، وشرب من الأيام الغدّارة مرارة عيشها، وذاق القهر والنسيان.

ففي السنة الثامنة والخمسين من عمره، وكان ذلك في سنة ثلاث عشرة وستمائة، أعرض مؤلف الكتاب عن أعماله، وجعل الكتب النفيسة أنيسه وجليسه، وفكر أن أي علم يبدأ ببارقة أمل في ذهن الكاتب، وأن علماء الزمان وحكماء العهود، كل حسب عهده وزمانه باستعانتهم

---

(١) حاتم الطائي الذي ضرب المثل بكرمه.

(٢) سورة آل عمران ـــ الآية: ١٤٠.

بمخدوميهم وبالمؤرخين والباحثين قد قلدوا التاريخ قلادة العلم والأدب، مثل فتح خراسان والعراق وفارس وبلاد الروم والشام، وذكروا ذلك نثراً ونظماً.

وبعد فتح الهند على يد محمد بن القاسم وأمراء العرب والشام، ظهر الإسلام في هذه الديار وبُنيت المساجد وأقيمت المنابر من المحيط حتى كشمير وكنوج.

وكان راي داهر بن جج بن سيلائج ملكاً على بلاد (أرور)[1] حيث قتله الأمير المعظم عماد الدولة والدين[2] محمد بن القاسم بن محمد بن أبي عقيل الثقفي رحمه الله، فاستسلمت له هذه النواحي وتوابعها، ولقد أردت أن أذكر هذه المناطق وأوضاعها وكيفية قتله ليكون سفراً من أسفار التاريخ، لأنني عاهدت نفسي، وتركت حضرة (آجة) المبارك متجهاً إلى مدينتي (أرور) و(بكهر)، حيث كان أئمة هذه المناطق من العرب ذوي الحسب والنسب.

ولما وصلت إلى تلك المدينة سألت مولانا القاضي الإمام الأجل العالم البارع، كمال الملة والدين، سيد الحكام، إسماعيل بن علي بن محمد بن موسى بن طائي بن يعقوب بن طائي بن محمد[3] بن موسى بن شيبان بن عثمان الثقفي أدام الله فضله، ورحم آباءه وأسلافه بحق محمد وآله أجمعين. الذي كان في الفصاحة أفضل الناس، وفي ملاحة الروح أعقلهم، وليس له نظير في فنون العلم والزهد والتقوى، ولا ظهير له في البلاغة في تأريخ هذه المنطقة حيث قال:

إن تأريخ هذا الفتح كُتب بخط الآباء والأجداد في سفر مسطور، توارثه الأبناء عن الآباء، ولما كان قد كُتب بلسان عربي، فإنه لم ينتشر عند الأعاجم.

---

(١) أرور أو (ألور) عاصمة السند قبل الإسلام، ويعتقد أنها نشأت في فترة الهيمنة السياسية للساسانيين على السند، وأنها عرفت آنذاك باسم مدينة (رود) لوقوعها على نهر السند (مهران رود) وظلت بعد الفتح العربي تعرف باسم الرور أو الرود، وأصبح فيما بعد الاسم المتداول (أرور) وهي الآن بلدة صغيرة تحمل هذا الاسم نفسه وتبعد مسافة خمسة أميال عن مدينة روري، وينبغي التمييز بينها وبين اسم مشابه سيرد في نص كتابنا هذا هو (راور) أو (راؤر) حيث مزج بعض النساخ وسواهم فيما بينهما.

(٢) لم تستخدم الألقاب في العصر الأموي، ومنح مصنف هذا الكتاب ابن القاسم هذا اللقب جرياً على عادة عصره، ويلاحظ أن غيره من الكتاب أعطوه لقب «كريم الدين». وكان ابن القاسم كما نقل صاحب تاج العروس يكنى «أبا البهار» والبهار نبات هو العرار.

(٣) كذا والأصح [محمد بن موسى بن محمد بن] موسى بن يعقوب بن طائي بن محمد بن شيبان بن عثمان الثقفي.

ترجمة الكتاب

لقد وقع نظر هذا العبد الفقير لله على ذلك الكتاب الذي تزيّن بجواهر الحكمة، وبدرر الموعظة، وتم فيه برهان صنوف الشجاعة والرجولة لدى أهل الجزيرة العربية وبلاد الشام، وظهرت فيه أنواع الشهامة والحكمة.

وكلما حوصر حصن، تم فتحه وتبدل ليل الكفر والضلالة إلى صبح الإيمان والهداية، وكل منطقة من تلك النواحي التي تشرفت في تلك الأيام بعز الإسلام واستسلمت له، فإنها تنوّرت بالمساجد والمنابر، وامتلأت بالعباد والزهاد.

وحتى في أيامنا هذه، فإن هذه المناطق ما زالت تزداد بهاءً بجمال الإسلام، وكمالاً بالعلم والمعرفة، وتمتعت بالاستقامة في جميع عهود الدولة المحمدية في مجال الملك والسلطنة، وحتى تم تطهير مرآة الإسلام من كل صدأ تتعرض له من الكفر والضلالة.

مدح الكتاب

لما وقع هذا الكتاب الذي تشرف بقلائد العبارة الرضية وتزين بمفاهيم الديانة، في أيدي العجم، تُرجم نثراً.

لقد سَبَرت غور هذه الأفكار عندما قرأت هذا السفر الغريب في تأريخ الفتح الفريد، فأقبلت نفسي عليه، وتمت سعادتي به، وقلت في نفسي: يا علي، لقد مضى عليك حين من الدهر، وماضي الأيام، وسوالف الأعوام، كنتَ فيها تحت ظل الرعاية الإلهية وتحت كنف مولى الأنام وصدر العالم ودستور صاحب القرآن، شرف الملك[1]، رضي الدولة والدين، جلال الوزراء، صاحب السيف والقلم، نوَّر الله مضجعه، وطيب ثراه.

---

(١) أراد هنا الوزير «حسين الأشعري» وكان حياً آنذاك، ولقبه الصحيح هو «ملك الوزراء» وكان أبوه قبله وزيراً لقبه «شرف الملك».

[انظر لباب الألباب لأبي بكر الأشعري. ط. لندن ١٩٠٣: ج ٢ ص ١].

لذا كان لزاماً عليك، ورداً للجميل وتقديراً لأولاده أدام الله عزهم ورحم آباءهم، أن تقوم بنشر هذا الكتاب (فتح نامه) الذي يمثل صواب الدين وفضل الدنيا، حتى يتباهى به المحققون الأعلام والملوك العظام ويتم تصديق اعتقاد العرب في اتحاد أصحاب الأدب.

وهذا الفتح الذي كان من شهامة العرب وبلاد الشام وصولتهما الذي يعود تاريخه إلى أفراد هذه العائلة الكريمة الذين هم من العرب ذوي الحسب والنسب، والذي تم فتح أكثر مناطق خراسان وبلاد العجم على يد جدهم العظيم الأمير الأجل والأخص الأكرم، كريم الدين، وجيه العرب، نظام الملة، قوام الأمة فخر آل قريش أبي موسى الأشعري[1] رضي الله عنه وأرضاه.

ذلك الحارس الأمين، قاتل جيش الكفار والمشركين، الذي رفع رايات الإسلام في كل موضع هزم فيه الكفار.

كما يتصل الفتح بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث كان يخطب في الناس المؤمنين ويتباهى بذلك بأن محمداً قال[2]:

إن أول من تشرف برضى الله وتيمن بالعز الإلهي، هو مولى الأنعم، صاحب السيف والقلم، الأجل الأكرم، المؤيد المظفر، منصور عين الملك، فخر الدولة والدين، نظام الأقاليم، جلال الوزراء، حسين بن أبي بكر بن محمد الأشعري، ضاعف الله جلاله عن أعز أرومة وأكرم جرثومة، ما كرَّ الجديدان واتفق الفرقدان واختلف العصران.

اعتذار المصنف

لقد وضع عظماء التاريخ وأعلامه، عدة مبادئ لإبقاء ذكراهم وإحياء أسمائهم وهي:

أولاً: جعل الانصاف والعدل والحلم والوقار شعارهم.

ثانياً: جعل الأموال الفائضة عن حاجة النفس ومعاشها ذخراً للآخرة.

(١) كذا وليس لأبي موسى الأشعري علاقة نسب بقريش.

(٢) كذا ولكل عصر أساليبه بالمدح.

ثالثاً: تزيين وتشجيع الفنون الجميلة لأبنائهم.

رابعاً: توجيه العلماء والحكماء في عصرهم إلى تصنيف الكتب النفيسة، وتأليف الحكم الأنيسة باعتبارها مدارج الأماني، ومدارك المعاني، حيث لا يبقى سوى كلام الحكمة وفنون الموعظة إلى أبد الدهر، كما جاء في الأبيات التالية:

أولئك السادة العظام الذين حصلوا على الذكر الحسن

ذهبوا ولم يبق منهم سوى ذلك الذكر الطيب

أنوشيروان وإن كان يملك الكنوز كلها

لم يبق له سوى صفة العدل التي تميز بها

ومهما كانت الفرصة لهذا العبد الفقير لله، معدومة لإظهاره في لباس الفضل في هذا المقام، باعتباره منبع الفضل وموضع الحكمة، فإن السعادة نادته وتجليب بالكرم العميم ودعته شمس طالع السعد حيث استعد للثناء والدعاء لسيده وقائده الذي تسابق أفاضل عصره وعلماء زمانه وحكماء دهره إلى الإشادة بذكره والدعاء له.

أنا العبد لله علي الكوفي أقول بإخلاص، وضمن أداء حقوق الدعاء للنعمة التي أسبغت علي:

لتبق مزرعة نعمة السعد في هذه الدولة الكريمة، مليئة بزلال الكرم ولتخضر وتثمر بنور شمس العزة والرفعة والجلال.

وبهدف خلود الذكر وإعلاء مكانة هذه العائلة العظيمة، ترجمت هذا الكتاب وأزحت الستارة الحجازية عن اللغة العربية ونقلته إلى بيان اللغة الفارسية.

ذلك أنه حصن مُنِيَ بعين الرضا، ولمحة لكرم الإطلاع وإني وبسبب رفعة المضمون وقدر منزلته، ومن أجل أن يتداول الخلق فخر وعز هذا السفر عن تأريخ الفتح الذي يتمتع بجمال وجلال حقبة من الزمان وفخر الأوان، قد قمت بهذا الجهد اليسير.

وإذا حصل سهو أو تقصير ، فإنني معذور لعدة أسباب ، راجياً أن أكون موضع العفو لدى الجميع حيث لا بد لكل مخلوق من النسيان (فالإنسان مركب على النسيان).

وإذا خضنا في تفاصيل المعاذير حول هذه المقالة ، ومهما كان البحث قصيراً وصغيراً فإنه لا يفي بالغرض.

إن هذا السفر وإن كان يمثل جهداً يسيراً فإنني قصدت به التقرب إلى الوالي الذي لا زال عالياً ، راجياً أن يحظى بشرف القبول وأن يبقى بين الصحائف والكتب ما دام العصر والأوان وحتى انصرام العالم والزمان.

والله ولي التوفيق.

بداية الكتاب حول حكاية راي داهر بن جج بن سيلائج وهلاكه على يد محمد بن القاسم الثقفي

يذكر رواة الحديث ومصنفو التواريخ أن (أرور) دار الملك في الهند والسند كانت مدينة عظيمة مزينة بأنواع البساتين والحياض والرياحين والأنهار وفيها القصور المزدانة بالرياض والأزهار وتقع على نهر سيحون المسمى آنذاك (مهران).

وكان يحكم هذه المدينة ملك يدعى (سيهرس بن ساهسي راي[١]) ولديه الخزائن المليئة بالكنوز الثمينة.

وقد اشتهر سيهرس بالعدل والسخاء والكرم.

وكانت حدود مملكته تمتد من الشرق إلى كشمير ومن الغرب إلى مكران[٢] ومن الجنوب حتى سواحل المحيط والديبل[٣] ومن الشمال حتى جبل كردان[٤] وكيكانان[٥].

---

(١) كلمة راي وراجا من أصل واحد وتعني ملك أو ملكي **Royal**.

(٢) ناحية واسعة عريضة الغالب عليها المفاوز والضر. معجم البلدان.

(٣) المحيط هو بحر العرب، وميناء الديبل في الباكستان، تعرف أطلاله باسم بانبهور أو بهانبور، على بعد ٤٠ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من كراتشي وعلى بعد أربعة أميال إلى الجنوب الغربي من مدينة غارو.

(٤) يريد بذلك الجبال الغربية في لاسبيلا وجهالاوان (بلوشستان الجنوبية) ويقطنها قبائل البروهيين (البراهويين) من البلوش وعرفت هذه القبائل تجاوزاً باسم الأكراد.

(٥) سلسلة الجبال التي تفصل ساراوان وهو الإقليم الرئيسي لكالات (باوشستان العليا) عن بلاد كاششي رجانداق التي كانت تدعى «بدهية» أو «بودهية».

وقد عين على مملكته أربعة ملوك لإدارة شؤونها وهم :

الأول : ملكاً على برهمناباد[1] من قلعة نيرون[2] وديبل لوهانه، ولاكه وسمه[3] حتى المحيط[4].

الثاني : ملكاً على قصبة سيوستان[5] وبودهليه[6] وجنكان وجبل بايه وروجهان[7] إلى حدود مكران.

الثالث : ملكاً على قلعة اسكلنده[8] وباتيه[9] (اللتين تسميان أيضاً كلواره وجج بور) وضواحيهما حتى حدود ديوهبور[10].

---

(١) أسسها بهمن أردشير ثم تغير اسمها في ظل الحكم البرهمي إلى « برهمن أباد » أي مدينة « برهمن » ، وكانت قائمة على الجانب الغربي لقناة جال والي المتفرعة عن نهر السند فيما بين مدينة جهول وقناة جامر أو (في تالوكاسينجهورو في مقاطعة سنغهار) وبات اسم جال والي يلفظ حالياً « جاراري » ومن المعتقد أنه الموقع الذي اسمه الآن ديبرغانغرو (على بعد ٢ ميل غرب جهول) وكانت هذه المدينة حصينة مسورة لها أربعة أبواب رئيسة ، وإلى جانبها بنى العرب فيما بعد مدينة المنصور واتخذوها عاصمة ، ومع ذلك باتت المنصورة تدعى برهمناباد الجديدة ، وتحول هذا الاسم فيما بعد إلى « بان بهاناه » « بان بهاراه » بالسندية ، وقد كتبها البيروني « بهمنوا » [تحقيق ماللهند ص ١٣٠] ، وقام النساخ فيما بعد بكتابة هذا الاسم « بابراه ــ بابنراه ــ بابنواه ــ بابن واه » وأوضح الكوفي أنها كانت في أيامه باسم « بانبراه » .

(٢) موقع قلعة حيدر أباد.

(٣) في بعض الأحيان يطلق اسم « لوهانه » ليشمل هذه المناطق جميعاً وضم إقليم لوهانه منطقة السند السفلى [مقاطعتا ثاتا وحيدر أباد مع جزء كبير من مقاطعتي سانغهار ونواب شاه] ، وكانت برهمناباد عاصمة هذا الإقليم.
واشتملت مقاطعة « لاكهة » على تالوكامورو الحالية في مقاطعة نواب شاه.
وكانت مقاطعة « سمه » تغطي بشكل رئيسي الأجزاء الوسطى والجنوبية الشرقية من مقاطعة نواب شاه الحالية ، وكانت بلدة « ساوندي » الحاضرة الرئيسة لمقاطعة سمه وقد سار إليها محمد بن القاسم بعد فتحه لبرهمناباد.

(٤) الكلمة المستخدمة بالأصل « دريا » ويمكن أن تعني نهر السند، لكن المرجح أنها تعني البحر إلى الجنوب وعلى وجه التحديد « ساحل السند » .

(٥) القصبة الحاضرة أو المركز وسيوستان هي سيهوان مقر تالوكه سيهوان في مقاطعة دادو ، وشهرتها الآن قائمة لكونها مرقد الولي المشهور الشيخ عثمان الياس قلندار شهباز (ت : ٦٧١ هـ).

(٦) بلاد كبيرة كانت تشمل على المقاطعات الحالية التالية : دادو شمال ، ولاركنه ويعقوب أباد في السند ، ومقاطعة كاشهي في بلوشستان.

(٧) روجهان : كامل البلاد الممتدة من « روجهان » الحالية في شمالي (مقاطعة دير امراد ــ بلوشستان) في الغرب إلى « روجهان مزاري » (مقاطعة ديرا غازي خان ــ البنجاب) في الشرق.

(٨) يعني « مدينة الاسكندر » فقد يكون الاسكندر قد زارها ، ويعتقد أن موقعها هو موقع مدينة أوش التاريخية.

(٩) بائيه أو بهاتيه ، كانت كما يعتقد تقع على الجانب الجنوبي لنهر بياس بين أرور في السند وملتان.

(١٠) تحول هذا الاسم فيما بعد إلى ديواهبور ثم إلى ديبالبور ، وماتزال تحمل هذا الاسم في مقاطعة ملتان.

الرابع: ملكاً على قصبة معظم ملتان وسكة وبرهمبور وكرور[1] واشبهار[2] وكنبه[3] حتى حدود كشمير.

واستقر الملك (راي) بدار الملك في مدينة (أرور) وجعل كردان وكيكانان وبرهاس تحت حكمه أيضاً.

وكان قد جهز كل ملك من الملوك الأربعة المذكورين بجميع المعدات الحربية التي يحتاجونها من الخيول والأسلحة المختلفة، وأعطاهم أوامر للحفاظ على الولاية واستمالة الرعايا، وتجميل الإمارة، ولم يكن هناك أحد في سائر ممالكه أو على حدودها، يمكنه أن يتعرض لهذه المملكة العظيمة.

لكن بقضاء الله وقدره وحكمته، وصل من أطراف فارس ملك نيمروز[4] إلى مدينة كرمان.

وعندما سمع (راي) سيهرس بذلك، توجه من حصن (أرور) بعقل متكبر وقلب لا يفكر، لقتاله، حيث اشتبك الجيشان وهزم الملك سيهرس شر هزيمة، ولكنه بقي يقاتل حتى قتل في تلك المعارك الطاحنة.

وبعد ذلك رجع نيمروز ملك فارس إلى بلاده، وجلس راي ساهسي بن سيهرس على عرش أبيه واستمر في الحكم وإدارة مملكته، كما استمر الملوك الأربعة الذين عينهم أبوه سابقاً على أقاليم مملكته بالحكم والإدارة، مطيعين أوامره ومقدمين له أموال خزائنهم وأقسموا على الطاعة والإخلاص له واستسلمت المملكة بأطرافها الشاسعة لسلطة ساهسي واقتداره.

---

(١) كرور هي حالياً «كوت كرور» في مقاطعة ملتان.

(٢) هي على الأغلب مقاطعة بهاراتها.

(٣) إذا صحت هذه القراءة فإنها تشير إلى بلاد فيها بحيرة كبيرة، ومن غير المستبعد أن تكون القراءة الصحيحة «كيه» أو «تكة» وبلاد تكة كانت عاصمتها تكسيلا ومن المحتمل هنا أن تكون اشبهار مدينة فيها. وسنعود إلى هذا الموضوع ثانية مع مزيد من التفاصيل.

(٤) نيمروز هي سيستان (بالعربية سجستان) وكانت بالسابق بلاداً كبيرة جداً تشتمل على: فارس، والأهواز وأصفهان، وكرمان ومكران، وسجستان (أفغانستان الحالية) وبسط، وزابل، وانحصر الاسم فيما بعد وأطلق على سجستان فقط (شفاء الغليل للخفاجي ص ٣٣٤).

وعاش رعاياه تحت حكمه المنصف والعادل، مرفهين معززين.

وكان هناك حاجب للملك ساهسي اسمه رام، اتصف بأنواع العلم وصنوف المعرفة.

وكانت أوامره نافذة ومطلقة حيث لم يتدخل أي مخلوق في عمله، وأنيط ديوان الملك إليه حيث كان الملك راي ساهسي معتمداً على بلاغة وتدبير هذا الحاجب الأمين.

التحاق جج بن سيلائج بخدمة الحاجب رام

كان الحاجب رام مع وزير الملك المسمى بدهمين، حاضرين في الديوان عندما جاء أحد البراهمة، وأخذ يمدح الملك، ويثني على حكمته في إدارة مملكته بألفاظ أدبية رائعة، وبعبارات منمقة لطيفة، فسأله الحاجب رام: من أين أتيت، ولأي شيء جئت؟ فقال البرهمي: أنا جج بن سيلائج وأخي (جندر) وأبي يعيش متعبداً في أحد معابد مدينة الملك (أرور) ويدعو بالخير والبركة للملك ساهسي وللحاجب رام، وقد بعثني أبي لكي ألتقي بالحاجب رام وأسعد بفصاحته وأتذوق من عزته وأستعد لخدمته.

فقال له الحاجب رام: يبدو لي بأنك ذو فصاحة وبلاغة، وتملك من صناعة الأدب وبراعة الخط الشيء الكثير، فقال جج: إنني أحفظ الكتب الأربعة الهندية الهامة: (رك) و(جج) و(أسام) و(أثرين) وأي عمل يعطيني الأمير الحاجب ويشير علي به، لا بد أن أقوم به مستعيناً بالأمانة وسداد الرأي والتزام الدين وحسن السيرة التي أملكها، وسوف أقدمها على طبق من الإخلاص.

وفي هذه الأثناء وردت رسالة من ديبل فأعطاها الحاجب إلى جج وقال له: اقرأها، فقرأها جج بأبلغ الألفاظ وأجاب عليها بأحسن أسلوب.

وعندما رأى الحاجب رام كتابة جج وملاحتها وبلاغتها وخطها الجميل، قال: لدي مصالح ومهام كثيرة لا أجد الفرص الكافية لأدائها، فلا بأس لك أن تقوم بها نيابة عني في ديوان الملك (راي ساهسي).

استبشر جج وقبل ذلك العمل وقام بأدائه على أحسن ما يرام، فكان يجيب على الرسائل في الديوان ويدير شؤون الحاجب رام.

وفي أحد الأيام، زار الملك راي ساهسي الديوان وكان بصحبته أكابر مملكته وأعيانها، وفي هذه الأثناء وردت رسالة من منطقة سيوستان، فطلب الملك حاجبه رام، ولكن رام لم يكن موجوداً في ذلك اليوم فأجابه جج قائلاً:

أنا يا مولاي نائب الحاجب رام وإذا أمرت يا سيدي فأنا أقوم بقراءة الرسالة والرد عليها، فقال له الملك ساهسي: افعل ذلك، فبدأ جج بقراءة الرسالة بطريقة جميلة، وبألفاظ عذبة، ورد عليها بخط جميل وعرضه على الملك ساهسي.

وعندما رأى الملك ساهسي خط جج الجميل، واطلع على بلاغته وفصاحته، أعجب بذلك وأعطاه النيابة المطلقة.

وعندما مَثُلَ الحاجب رام ــ بعد ذلك ــ بين يدي الملك راي سأله الملك: من أين لك هذا النائب الفنان الفصيح اللسان والكاتب ذو القلم البارع؟ احفظه وعلمه أمور الديوان وربّه تربية جيدة.

فقال الحاجب رام: إنه ابن سيلائج البرهمي الرجل الصادق المتعبد الأمين وعند ذاك، فوض الملك أن يكون جج نائباً للحاجب رام حيث يقوم بالأعمال والكتابة في حضوره أو غيابه، وكذلك يدير شؤون السلطة ومصالح الملك، وكانت له حظوة ومقام بين يدي الملك راي ساهسي.

كما أنه واظب على العمل الذي أوصاه به، ثم حصل على محل واسع كبير يدير فيه أعماله.

ثم قضى الله سبحانه وتعالى أن ينهي عمر الحاجب رام، وجاء أجله وقضى نحبه.

جج بن سيلائج يصبح حاجباً للملك

نصب الملك ساهسي، جج حاجباً لديه بعد وفاة رام. وعمد هذا الأخير إلى مداراة الناس والسيطرة التامة على جميع الممالك، وكانت له اليد الطولى في عمله باعتباره حاجباً للملك، حتى جاء يوم كان فيه الملك ساهسي جالساً في قصره في سبستان مع عشيقته (راني سونهنديو[1]) التي سيطرت عليه وأخذت بمجامع قلبه، حينما جاء الحاجب الخاص للملك راي وقال له: إن جج على الباب ولديه مهمة، وكتاب خاص ويريد المثول بحضرة الملك، والاجتماع به، فإذا سمحت يا مولاي بذلك، سأفتح له الباب.

فالتفت الملك ساهسي إلى عشيقته راني وقال لها:

سيدخل رجل غريب إلى الغرفة، فاذهبي وتواري عن الأنظار. فأجابته راني: كثيراً ما يدخل ويخرج الخدم إلى هذه الغرفة، لماذا كل هذا الاهتمام بشخص برهمي، وما هو العيب الذي فعلته حتى أتوارى عن أنظاره، ثم أردفت تقول:

روحي فداء سيدي ساهسي ألف مرة.

ولما كانت راني مستبدة برأيها، فإن راي ساهسي لم يجادلها، فنادى على جج، وجلسا يتحدثان في شؤون الدولة وتلك الرسالة، وكانت راني آنذاك جالسة تحدق النظر في جج.

غرام راني بجج وتمنّع جج عن محبتها

كان جج شاباً برهمياً طاهراً يمتلك قواماً رشيقاً، ومنكبين عريضين، كما كان بهيَّ الطلعة، جميل القوام.

وما إن وقع نظر راني على طلعته البهية حتى انجذب فؤادها إليه، وأحست برعشة

---

(١) كذا بالأصل وينبغي اعتبارها مساوية لكلمة سونهن—ديوي (ربة الجمال) والاسم الشائع حتى الآن في السند هو سونهندي ومعناه «الجمال الأخاذ» ووردت هذه الصيغة في أربع من مخطوطات الكتاب.

العشق والهوى تدب في أوصالها، وانبهرت بجماله الأخّاذ، وقدّه الأهيف، ونمت بذرة المحبة في قلبها، خاصة وأن راي كان عقيماً، لم تحصل راني منه على ولد.

وكتبت راني ــ بعد تلك المقابلة المثيرة ــ رسالة إلى جج وأعطتها لخادمها زالي، قالت فيها:

لقد نفذت سهام عينيك إلى شغاف قلبي، فأصابته بجرح عميق، وإن صدك وهجرانك قد عذّباني، وكلي أملٌ في وصالك وقربك، حتى يرتفع طوق الحزن مني ويتزين قلبي بقلادة محبتك وغرامك، وإذا امتنعت عن إجابتي ورد جوابي فإني قاتلةٌ نفسي.

يا من هيّجت قلبي أرجوك إسعاده

فقد هزني الهجر والفراق فاطلق سراحي

ولما وصلت الرسالة إلى جج، عظم الأمر في عينيه وامتنع عن إجابتها، وقال في نفسه: كيف أطاوع قلبي وأستجيب للحرام، إن الخيانة في حرم راي تمثل الخطر المحدق العظيم في هذه الدنيا، والذنب الأعظم في الآخرة.

كما أنها ستلوّث سمعتي واسمي وينصب عليّ غضب الملوك وبخاصة نحن البراهمة، حيث أن أبي وأخي راهبان في الدير وهما ما زالا معتكفين في المعبد.

لقد أهينت كرامتي، أنا الذي جئت لأخدم السلطان، لا أن أعيش في خوف ووجل، ولا يمكن الاعتماد على أربعة أشياء، كما قال حكماؤنا: الملك والنار والحية والماء، وكتب لها بهذا المعنى، ولما وصل الجواب إلى راني قالت: أنت إذن تحترز من مؤانستي ومجالستي، لكن لا بأس أن تبقى في خيالي على أمل الوصال بك في أحد الأيام وكتبت الأبيات التالية:

سعيدة أنا إن رأيتك ولو في العام مرة

وحتى ولو رأيتك ليلة واحدة في عمري في المنام

إنني ما قطعت ولن أقطع الرجاء بك

لا بد أن يذهب ليل هجرك ويطلع نهار وصلك

وهكذا استمرت الرسائل بينهما، واقتربت القلوب، وهز شوق الوصل كليهما، وبدا الغرام واضحاً في أعينهما وشاع الخبر بين الناس لكنهما عاهدا نفسيهما على الوفاء والمحبة.

ثم اطّلع الملك راي ساهسي على أخبارهما، وأخذ المقربون له ينقلون قصص حبهما، بينما بدأ الهمز واللمز حتى من قبل المناوئين لحكمه.

لكن راي لم يكن يُصَدق تلك الأقاويل والإشاعات، وهل حقاً يجري ذلك في قصره ومن قبل حاجبه الأمين بالذات ؟!.

وبعد فترة من الزمن أصبحت شؤون البلاد جميعها بيد جج، وكان كلما أراد شيئاً يجد راي موافقاً عليه، ولم يستطع الملك ساهسي أن يقوم بأي عمل دون الرجوع إلى جج واستشارته بذلك، حتى أصبحت أوامر جج نافذة في طول البلاد وعرضها.

وفاة ساهسي

وأخيراً جاء قضاء الله وقدره، وأصبح الملك راي هزيلاً مريضاً مغلوباً على أمره، وطالت مدة مرضه، وعندما بدأت تظهر عليه علامات الهزال وفقدان الذاكرة، أخذت زوجته (راني) تفكر في الأمر، ثم دعت جْج وقالت له: يبدو أن أيام الملك راي أصبحت معدودة، وإذا هلك راي فليس له وارث يرث عرشه، وسوف يستولي أقرباؤه على العرش وسيلفظوننا لفظ النواة، ويرموننا خارج القصر، وأنت تعلم أنهم وجهوا ألسنتهم السليطة علينا، وراي على قيد الحياة، وفي حالة وفاته أعتقد أنهم سيسلبوننا أموالنا وأرواحنا، لقد دبرت شيئاً أرجو أن يكون صواباً يمهد لعودة الأمن إلينا كاملاً وتكون البلاد لك كما أرجو وأتمنى.

إن راي وافقني على ذلك بأن يحفظ الله تبارك وتعالى هذه المملكة تحت عزك وسلطانك، فأجابها جج قائلاً:

إن أمرك مطاع يا سيدتي وهو الصواب بعينه، كما أن المشورة مع العاملين المخلصين هو فريضة على الجميع، وأرجو أن تطلعيني على ما تريدينه. فقالت راني سونهنديو: أصدر أمراً بصنع خمسين قيداً وغلاً واخْفِها عن أعين الناس في داخل القصر.

فأمر جج أن يصنعوا تلك القيود والأغلال، وأخفاها في قبو داخل القصر، وعندما حان أجل راي ساهسي وبدأ يحتضر، قام الأطباء ليتركوا المكان، فقالت راني لهم: اجلسوا بعض الوقت في الدار، وأمرت الخدم أن يغلقوا الأبواب والنوافذ حتى لا يصل الخبر إلى الناس في المدينة بأن راي قد مات.

ثم أمرت أتباعها وأتباع جج بأن يظهروا في القصر. ثم نادت الحاجب وأمرته أن يحضر أقرباء راي فرداً فرداً.

وكان كلما نادى الحاجب وأحضر أحد أقرباء الملك ساهسي كان الخدم يأخذونه إلى القبو ويغلونه بالأصفاد، حتى ألقت الملكة راني القبض على جميع المعارضين لها.

ثم دعت أقرباء راي من الفقراء وقالت لكل واحد منهم: إن راي قد غير رأيه فيك، وإن قريبك فلان الذي وشى بك هو الآن في السجن، ويقول لك راي: اذهب الآن واقتله وخذ جميع ما يملك من المتاع والمال والخدم والحشم والضياع وغيرها.

وهكذا قام كل واحد من أقرباء راي ساهسي الفقراء وقتل خصمه المعارض لحكم الملكة راني.

وبذلك تخلصت الملكة راني من جميع المعارضين لها بهذه الحيلة، وسيطرت على البلاد سيطرة تامة.

اعتلاء جج بن سيلائج عرش ساهسي راي

لما أعلن المقربون والحشم والخدم بيعتهم، وبايع أقرباء ساهسي من الفقراء، تقدم الجميع بأسلحتهم مصطحبين معهم التجار والصناع والأعيان وأكابر البلاد، حاملين معهم عرش الملك حيث جلست راني سونهنديو خلف الستائر فنادت الوزير بدهيمن وقالت له: أعلن للناس أن راي ساهسي قد بلغ منه الضعف والهزال مبلغاً كبيراً، وحفاظاً على مصالح البلاد وحقوق الناس فإنه ينصب جج بن سيلائج خلفاً له وهو على قيد الحياة حتى ينصف المظلوم من الظالم، ويعطي كل ذي حق حقه.

فلما تقدم الوزير وأعلن ذلك للملأ، انحنى الجميع وأعلنوا موافقتهم وقال قائلهم: إننا ننفذ أوامر مولانا راي ساهسي وإن حاجب جج ذو خصال حميدة، يدير شؤون البلاد على أحسن وجه.

ثم تقدمت راني سونهنديو يتبعها الأمراء والقادة الكبار ووجهاء البلد محاطةً بالخدم والحشم والحراس، فألبست جج بن سيلائج الثياب الملكية المطرزة والمرصعة بالجواهر والماس، ووضعت على رأسه التاج الملكي وأجلسته على العرش.

ثم أقسم الأمراء والقادة وأعضاء البلاط على الولاء والامتثال لمليكهم الجديد ثم أعلن جج عن مراسيم إبقاء الوزراء والأمراء والقادة وغيرهم من ذوي الشأن، في مناصبهم، وانتهى الاحتفال، وتفرق الناس، ثم سارت الأمور على سابق عهدها حتى وصل الخبر بعد ستة أشهر إلى أخي الملك السابق راي ساهسي والمسمى (مهرت) ملك (جترور)[1]، فجهز جيشاً عظيماً يتقدمه المقاتلون الشجعان ذوو البأس الشديد، وتوجه لقتال جج بن سيلائج لاسترجاع عرش أخيه الفقيد.

وتقدم جيش الملك مهرت حتى وصل على بعد فرسخ واحد من العاصمة (أرور) فعسكر هناك وبعث رسالة إلى جج بن سيلائج مع وفد من كبار وجوه مملكته وقادته، قائلاً فيها بأنه هو وارث عرش أخيه ملكاً على البلاد، وأن هذا المُلك هو مُلك آبائه وأجداده، وأنك يا جج ستبقى في وظيفتك حاجباً كبيراً لي وسوف لن أغمط حقك.

قتال جج مع مهرت وقتله بخدعة

جاء جج إلى راني وقال لها: إن هذا العدو قد وصل أبواب مدينتنا، وهو يدعي الملك والميراث فماذا تشيرين علي يا سيدتي؟.

ضحكت زوجة راي وقالت: إنني امرأة أعيش خلف الحجب والستائر، وإذا كان

(١) جاء رسم هذه الكلمة أحياناً «جيتور» أو «جتور» وما أثبت بالنص ورد عند البيروني في كتابه تحقيق ما للهند من مقولة «جتهرور».

مهرت يريد قتالي فالبس ملابسي واجلس خلف السُتُر واعطني بُردتك الملكية لأخرج إلى قتاله.

وما دامت المملكة هي مملكتك فما الداعي إلى مشورتي؟ تقدَّمْ كالهزبر الغاضب وقاتِلْ بكل رجولة، وادفع أعداءك إلى الهزيمة، فوالله إن الموت بشرف وإباء وعز، أفضل ألف مرة من حياة الذل والهوان، وأنشدت تقول:

إنك تملك الأفيـــال والخدم والحشم والخيـــل
قاتـــل بإبـــاءٍ وشمم واهـــــزم أعـــــداءك

خجل جج من جواب راني وحديثها، فارتدى حُلَّة القتال وامتشق حسامه ورفع رأسه وتقدم بكل إباءٍ وشمم ونادى على حرّاسِه وأركان جيشه، وألقى فيهم كلمة حماسية وحرضهم على قتال العدو، وعين أمراء ألوية جيشه، هذا في الميمنة وذلك في الميسرة وآخر في القلب، وأعطى أوامره للتصدي بكل حزم ورجولة للمعتدين الغزاة.

ثم تبارز الفرسان والأبطال من الجيشين فرداً فرداً، ووجهاً لوجه حتى قتل الكثير منهم.

ثم رأى جج الملك مهرت في ساحة القتال محاطاً بالمقاتلين، فصاح بأعلى صوته: ما دمنا نحن الإثنان متخاصمين على المُلك، فلماذا لا نتقاتل، والمنتصر يكون ملكاً على البلاد؟ ثم قال جج: إنني كما تعلم رجل برهمي ولا يمكنني أن أقاتل وأنا راكب على الحصان، فأرجوك أن تترجل وتقاتلني.

ففكر راي جترو (مهرت) وقال في نفسه: كيف سولت له نفسه هذا البرهمي أن يقاتل ملكاً مثلي ويتحداني وأنا راي جترو ملك الملوك؟ إنني سأنزل عن الفرس وأقطع رأسه كالدجاجة الذبيحة، ثم ترجل عن حصانه واتجه نحو جج عَدْواً.

فترجل جج هو الآخر ولكنه سحب حصانه خلفه بسرعة، ولما تقابل الرجلان واقتربا من بعضهما، قفز جج مرة أخرى على حصانه وحمل على راي مهرت بشدة وقطع رأسه.

ولما رأى جيش جج انتصار قائده حمل حملة رجل واحد على جيش راي مهرت الذي

انهارت معنوياته بعد مقتل قائده ، واندحر جيش مهرت وهزم شر هزيمة ، واستسلم العديد من القادة والجنود وقُتل الآلاف الآخرون .

ثم عاد جج ثانية إلى ملكه معززاً مكرماً ، قوياً منتصراً دانت له الممالك الأربعة ، وعمد إلى تدريب جيشه وقادته أفضل تدريب ، وعزز مواقعهم وتوجه إلى إعمار البلاد .

عقد قران جج على راني سونهنديو

بعد انتصار جج واستقرار البلاد ، دعت راني سونهنديو أعيان البلاد وأكابرها إلى الاجتماع ، وخطبت فيهم قائلة : لقد توفي راي ساهسي ، وكما تعلمون لم يترك ولداً أو وريثاً للملك وقد توّج راي جج ملكاً على الممالك الأربعة فإنني أقترح أن تزوجوني وتعقدوا قراني عليه رسمياً وتعطوا إلى جج مهر زواجي .

فتقدم الأعيان والرؤساء وعقدوا قران راني سونهنديو على جج بالإجماع وباتفاق الآراء .

ثم رزقت راني من جج بولدين اسْمَاهُما (داهر) و(يرا دهرسيه) وبنت اسْمُها (بائي)[1] ولدى ولادة كل طفل كان المنجمون يقرؤون طالعه ، وقارنوا ولادتهم وطالع السعد والنحس حسب الكواكب والنجوم وقالوا : إن ولدي جج سيكون كل منهما ملكاً على البلاد ، وستكون ممالك السند تحت حكمهما وعرشهما .

أما طالع البنت ، فقالوا عنها : يجب أن لا تخرج من دار الملك في السند ، وكل من يتزوجها سيكون ملكاً على السند . ثم أوصوا ألا يكشف عن هذا السر .

جج يستدعي أخاه جندر إلى مدينة أرور نائباً عنه

بعث جج رسولاً إلى أخيه جندر قائلاً :

إن أجدادنا وأسلافنا من الرهبان وهم يتعبدون في المعابد بكل صدق وإخلاص

(١) يرد اسمها أحياناً « مائي » « مابين » « مائين » وتقابل كلمة « مائي » بالسندية سيدة ، وتستخدم للتعبير عن الاحترام لكن لا تستخدم كاسم مجرد ، أما « بائي » فهو اسم مستخدم على نطاق واسع حتى الآن .

ومشهورون بالنسك وعبادة النار وأبونا سيلائج قد سار على ما وجد عليه آباءنا الأولين، وهذا هو دين علمائنا وحكمائنا، وقد جاء في الكتب الهندية:

إذا روّض الإنسان نفسه وردعها فإن روحه عندما تنفصل عن بدنه وفي مقابل أعماله الحميدة ستكون في جسد أحد أبناء الملوك أو العظماء كي تصل إلى عز الملكية وسلطانها إلى الكمال والعلاء، وإن رب سيلائج قد أعطاني هذه الهبة وحبانا بهذه النعمة، وجعل الدولة تحت حكمي وأمري، وإني أرتئي أن تكون نائباً لي بدار الملك في أرور، وأن أجعلك ولياً للعهد وإنك ستحصل عن طريق الملك والدين والأمانة والعفة، أضعاف الثواب الذي تناله من العبادة.

ثم جاء بأخيه جندر وعينه رئيساً لديوان المظالم، وجعل في يده شؤون الحل والعقد والبسط والقبض في مدينة أرور وفوض إليه التصرف بجميع المهمات وشؤون السلطنة.

وصية جج لأخيه جندر حول قضايا الحكم نيابة عنه

لقد حبانا الله تعالى بالملك والعرش والتاج وأصدر فينا حكم أولي الأمر ورعاية شؤون البلاد، لهذا يجب علينا أن نرعى حقوق الطائفة ورعايانا، وبطريق العدل والإنصاف يجب علينا أن نسعى بأقصى الغاية بقدر الإمكان لرفاه الأمة وسعادتها ولا نسكت عن عدوان القوي على الضعيف حتى لا يؤاخذنا الله في التمييز بين الرعايا، وإنني قد قلدت أخي جندر تاج الرهبان، هذه المهمة العظيمة حتى يقوم بأدائها في حضوري وغيابي، فعلى جميع الحشم والمسؤولين الكبار والمعارف والرعايا تطبيق هذا الحكم وتنفيذه وإقرار الطاعة له.

جج يسأل وزيره بدهيمن عن قضية الولاية وحدود ممالك سيهرس راي

استدعى جج وزيره بدهيمن طاكي[1] وسأله عن حدود ممالك سيهرس وقال له:

---

(١) لعله كان ينتمي إلى أسرة الطاكيين، أو أصله من طكه، فقد كانت هنالك علاقات اجتماعية وسياسية بين أسر الحكم —

يا وزيري المعتمد ويا مستشاري الأمجد، هل تعرف حدود ممالك ومسالك السند التي كانت تحت سلطة وحكم راي ساهسي الكبير؟ وما هي تلك الممالك الأربعة التي كانت تحت حكمه؟.

أرجو إخباري بها حتى أتوجه إليها وأستنتج ولاء ومعارضة كل واحد منهم، وحتى أعطي كل ذي حق حقه، فمن كان متقيداً بأوامرنا مطيعاً لها، أقلده المنزلة الرفيعة، ومن كان معانداً متمرداً، أقضي عليه، وفي النهاية يكون الجميع تحت طاعتي وأوامري ولا أريد أن يكون هناك منازع لي وتكون أوامرنا مطاعة.

تقرير الوزير بدهيمن

لما سمع الوزير أقوال الملك جج، أطرق برأسه وقال: فليعش الملك جج! وليصل إلى علمه أن هذه المملكة والسلطنة كانت داراً للملك لأحد (الرايات) (ملك الملوك) وكان الملوك الآخرون يقدمون آيات الولاء والطاعة له، ثم وصلت هذه المملكة إلى يد الراي الأكبر سيهرس بن ديوائج[1] ولكنه هُزم وقتل على يد الجيش الفارسي، فعهد بالملك إلى ساهسي وبقي الملوك الأربعة الآخرون في ملكهم وحكومتهم على أن يقدموا الأموال للخزانة ويحفظوا الولاية وأنا أقول يا سيدي الراي، يجب أن تفكر في الأمر وأنا آمل أن تتوصل إلى الفكر الصائب والسديد، وإذا لم يُقضَ على هذا التشرذم والتشتت فإن الأيام محملة بالأحداث الرهيبة التي يصعب دفعها بعد ذلك.

ولما كان قلبك عامراً بالإيمان والإخلاص لهذه الدولة وهذه الرعية، فلا بد من القيام بعمل حتى يخضع لك السلاطين والملوك الآخرون وإن الله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب سيفتح على يدك الممالك ولينصرنك بعزه وسلطانه وستظفر بأعدائك إن شاء الله، وأنا واثق

في السند وبلاد طكه، وسيرد معنا ذكر «بجهيرا» رئيس أسرة راي وحاكم سيكه المجاورة لملتان على أنه حفيد بجهيرا طاكي.

(١) سبق للمصنف أن أتى على ذكر سيهرس بن ساهسي وأنه قتل من قبل الفرس، وسيهرس المذكور الآن أقدم تاريخاً، وكلاهما قتلا من قبل الفرس.

أن الله تعالى سينصرك عليهم ، ويأتونك فرداً فرداً مطأطئي الرؤوس ، نادمين على فعلتهم وعدم طاعتهم ، وسيخفض لك المعارضون جناح الذل والطاعة وتبقى هذه المملكة باسمك عزيزة كريمة إلى أبد الدهر .

فتوكل على الله القدير واسأله تعالى أن يحقق لك أمانيك وتتوحد المملكة على يديك .

إتفاقية جج حول حدود الممالك وتثبيتها

لما استمع جج إلى مقالة الوزير بدهيمن ، أحس بالفرحة والسرور فتشاور مع كبار القادة والمسؤولين في مملكته ، ثم بعث بالرسائل والأوامر إلى المعتمدين وأمراء وملوك النواحي يستدعيهم فيها .

وجهز جيشاً جراراً كي يتوجه إلى حدود الهند[1]المتصلة بالترك وبعد أن أشار عليه المنجمون بالفأل الحسن ، أخذ يطوي المنازل واحداً تلو الآخر حتى وصل إلى (حصن باتيه) الواقع على السواحل الجنوبية لنهر بياس حيث قابله وقاتله والي ذلك الحصن ولكنه هُزم شر هزيمة وانتصر جج عليه ، ثم توجه إلى (حصن اسكلنده) ونزل على ضواحيه بجيشه الجرار .

حصار اسكلنده

بعد أن عين جج أحد أتباعه على باتيه ، توجه لحصار اسكلنده وعسكر جنده قرب هذه المدينة . وكان في المدينة مقدم اسمه شجاع عبأ السكان من جميع الطبقات وقاوم حصار المدينة .

فبعث جج رسوله إليه وعرض عليه ولاية المدينة إضافة إلى ولاية مدينة باتيه إذا قتل ملكها جتر أو أسره .

---

(١) أي الحدود التي فصلت بين المنحدرين من أصل هندي والشعوب ذات الأصول التركية مثل ممالك كيكان ، وبركان ، وزابلستان وكابلستان ، وكانت حدود هؤلاء مشتركة مع بلاد السند وبودهما وشوميرا وطكه إلى الشرق .

ووافق شجاع على شروط جج، وبعث رهينة مع ولده ومجموعة من رجاله، وعندما انتصف الليل قتل الملك جتر وبعث برأسه إلى جج.

فاستقبل جج رسوله أحسن استقبال وأنعم عليه وأمر برفع الحصار عن المدينة وتقدم أشراف المدينة وأعيانها يحملون الهدايا والتحف إلى جج وبايعوه على الطاعة والإخلاص.

ثم ترك جج المدينة بعد أن جعل شجاع والياً عليها.

نزول جج بالقرب من سكَّه وملتان

بعد أن انتهى جج من فتح وتولية اسكلنده، توجه إلى مدينة ملتان حيث كان فيها ملك اسمه (بجهرا) وهو من أقرباء ساهسي وكانت مملكته واسعة الأطراف ذات هيبة ومقام.

لما سمع الملك بجهرا بوصول جج إلى أطراف مدينة ملتان توجه إلى مصبات مياه (راوي).

وكان ابن أخيه (سيهول) والياً على مدينة سكه المقابلة لمدينة ملتان.

وحينما وصل بجهرا إلى مياه الراوي استقبله ابن عمه (واجسين) وبقي هناك ثلاثة أشهر حتى انخفض مستوى الماء فانضم إلى سيهول في مدينة سكه لقتال جج.

وبقيا عدة أيام هناك، ولما ازداد ضغط قوات جج عليهما، وقتل العديد من أفرادهما، خرج سيهول من سكه متجهاً إلى حصن ملتان، ثم وقف على مصب المياه بكل رجاله وعدته الحربية.

أما جج فقد أحكم قبضته على سكه ثم دخلها وقتل خمسين ألفاً من جنود الأعداء، كما أخذ العديد من الأسرى كغنائم حرب، وترك الأمير عين الدولة ريحان مدني[1] والياً على

---

(١) لا ندري من ريحان هذا، فإذا أهملنا مسألة اللقب واعتبرناها إضافة من المصنف مثل اللقب الذي ألصق بمحمد بن القاسم، يبقى أمامنا إما الإفتراض بأن الاسم محرف عن اسم سندي أو هو اسم عربي، وهذا ماهو مرجح بسبب ارفاق كلمة الأمير به مع عين الدولة.

هذا وسبق أن رأينا فيما سبق أثناء سرد أخبار فتوح الشام والعراق وجود عرب روم وعرب فرس، وبعد فتح ←

سكه وتوجه هو إلى قتال الآخرين في ملتان.

والتحم الجيشان على مشارف هذه المدينة حيث خرج إليه الملك بجهرا في جيش جرار تدعمه الفيلة والرجال الأشداء من رماة السهام، وقتل عدد كبير من الجانبين.

واستمر حصار ملتان، واستمر القتال عنيفاً طاحناً بين الجيشين، فأرسل بجهرا مبعوثاً إلى ملك كشمير ومعه رسالة يقول فيها: إن جج بن سيلائج البرهمي الذي أصبح ملكاً على (أرور) قد تقدم نحونا بجيشه الجرار وعدته العظيمة، فاستولى على الأمصار والمدن، وأحكم سيطرته عليها، ونحن لا طاقة لنا بمقاومته وقد سقطت الحصون الحصينة أمام تقدمه السريع واحداً تلو الآخر، ولم يتمكن أي ملك من الانتصار عليه ووصل أخيراً إلى ملتان.

إننا نطلب منك المدد والعون، علنا ندافع ونتعاون ونتغلب عليه.

رجوع المبعوث إلى كشمير خالي الوفاض

لما وصل مبعوث (بجهرا) إلى كشمير وجد أن راي كشمير (ملك كشمير) قد توفي وجلس ابنه الطفل مكانه على العرش، كما وجد أن الوزراء والندماء والخواص والحجاب والأكابر والأعيان قد تقاسموا ملك راي.

ولما أعطى رسالة بجهرا إلى الوزراء، أجابوه بالرسالة التالية: لما كان راي كشمير قد انتقل إلى دار البقاء والملأ الأعلى وابنه طفل صغير لا عهد له بالولاية والملوكية، وقد تمرد الأمراء في إقطاعياتهم على الملك فإن هذا جعل الأمور مستعصية ولا تسمح لنا بتقديم العون والمدد إليكم، خاصة ونحن مشغولون بمشاكلنا وآلامنا.

رجع رسول بجهرا إلى بلده وأعطى الرسالة إلى الملك فلما قرأها وعلم أن العون والمدد من كشمير غير ممكنين وميئوس منهما، كتب رسالة إلى جج يطلب فيها السلام والصلح والأمان والعهد الوثيق حتى يخرج من الحصن آمناً، ولا يمس أحد أموالهم حتى يصل — بجهر وأتباعه وحشمه وحاشيته — إلى مكان آمن.

الشام التحق بعض عرب الروم بالأراضي البيزنطية، وسنرى من خلال روايات كتابنا هذا فرار بعض عرب الفرس إلى السند، أضف إلى هذا أن بعض العرب الفاتحين مثل «بني العلاف» التحق كما سنرى بداهر وتعاونوا معه.

قَبِلَ جج هذا التعهد وأعطاه الأمان، فخرج بجهرا من الحصن وتوجه هو وحاشيته وأتباعه إلى جبل كشمير فدخل جج الحصن وأعلن نفسه ملكاً عليه.

تعيين جج نائباً له في حصن ملتان ومواصلة تقدمه نحو الأمصار الأخرى

بعد أن استسلم حصن ملتان، نصب جج فيه نائباً عنه باعتباره والياً على البلاد ثم توجه إلى معبد متروي[١] للأصنام وسجد للصنم الأكبر ووزع الصدقات والأموال.

ثم توجه شمالاً حيث أعلن ولاة (برهميور) و(كرور) و(أشبهار) ولاءهم وطاعتهم للملك الأكبر جج.

ثم توجه جج من هناك إلى حدود تاكيسر وكشمير[٢]. وفي تقدمه هذا لم يتمكن أحد من الملوك أو الأمراء أو الحكام من مقابلته والتصدي له، حيث أن الله تعالى إذا جعل أحداً عظيماً وكبيراً فإنه يبعد عنه جميع الآلام، ويقرب له جميع الآمال.

وكان جج كلما وصل منطقة استسلمت له، حتى استسلمت المناطق جميعاً واحدة تلو الأخرى، ووصل إلى (حصن شاكلهار)، وهذه المنطقة هي أعلى قليلاً من تاكيسر وعلى الحدود مع كشمير، فبقي هناك مدة شهر واحد كي يعطي الفرصة لأمراء وملوك المنطقة أن يقدموا مواثيق الطاعة والولاء له، أو يأخذ ذلك منهم بالقهر والعنوة، فدانت له في النهاية جميع الممالك والأصقاع.

ولما وصل إلى حدود كشمير أمر بجلب فسيلتين لشجرتي صنوبر وأرز، وشتلهما على

---

(١) معبد ملتان.

(٢) المراد بذلك حدود المقاطعات المجاورة لكل من بلاد تاكيسر، وبما أن مقاطعة جهيلوم الحالية كانت جزءاً من تاكيسر، وجوجرات الحالية هي جزء من كشمير فإن هذا الحد كان محاذياً من حيث الاتجاه ومشابه إلى حد ما الحدود الجنوبية الشرقية لهذه المقاطعات.

مجرى ماء على الحدود يسمى (بنج ماهيات) الذي يتصل بجبال كشمير وشبك الفسيلتين مع بعضهما بعضاً وقال:

هذه حدودنا مع كشمير ولا نتخطى هذه الحدود.

رجوع جج بعد تعيين الحدود مع كشمير

تقول الرواية: إنه بعد تعيين الحدود مع كشمير، رجع جج من هناك إلى دار الملك في (أرور) وبقي هناك لمدة عام واحد ليرتاح من عناء السفر والحرب، ثم أمر بعد ذلك قواده بإعداد العدة والعتاد لحرب قادمة، وقال: يا وزيري المعتمد، لقد انتهينا من شرق مملكتنا، والآن يجب أن تعرفنا على مناطق الغرب والجنوب، فأجابه الوزير قائلاً: سيدي الملك، بعد ذهاب راي ساهسي ركب الملوك والأمراء في مناطق الغرب والجنوب رؤوسهم، وامتنعوا عن دفع أموال الخزينة ومنذ ذلك الوقت عم القصور والفتور بين أرور دار الملك وتلك الحصون، وبعد فترة من قراءة جج لطالع السعد لتوجهه للقتال، زحف نحو حصن (بودهيه)[1] و(سيوستان) وكان ملك سيوستان اسمه (مَتَهْ)، فشد جج عزمه ورحاله وعبر

---

(١) يرسم هذا الاسم أحياناً «بدهيه» ويعني عموماً «بلاد البوذيين» وتقع هذه البلاد إلى الشمال من سيوستان في السند، وهي البلاد التي عاد إليها جج فيما بعد وسيشار إلى بودهيه فيما بعد باسم كاكاراج، أي مقر الراجا أو الملك، وهي كاكار التي بقيت كقرية صغيرة حتى هذا اليوم، وحافظت على أهميتها حتى القرن التاسع عشر، حيث كانت مقر مركز التالوكا (وحدة ضرائب دخل إدارية) واسمها «تالوكا كاكار» وقد نقل منذ حوالي النصف قرن مركز التالوكا من كاكار إلى خير يورناثان شاه، وما تزال الأطلال الفخمة لموقع كاكار القديم (كاكاراج) مع مقبرة كبيرة جداً معروفة باسم «مقبرة قادس».

وكانت هذه المقاطعة مؤلفة من القسم الجنوبي لبلاد بودهية التي كان أغلب سكانها من الفرع الوثني لسيوس (سيثيان) والكاكاس (الذين ما يزالون يدعون بهذا الاسم حتى اليوم) الذين كانت كاكاراج مدينتهم الرئيسة (موطن طائفة الكاكا) ولم تكن طائفة بوده التي طبع اسمها البلاد بأكملها، فأصبح اسمها «بودهيه» طائفة قوية جداً، أو كثيرة العدد آنذاك في القسم الجنوبي على نحو ما كانت عليه في القسم الشمالي.

ويبدو أنه بعد استيلاء جج على كاكاراج فقدت بودهيه هذا الجزء الجنوبي بشكل دائم واندمج في المملكة السندية، وفي عام ٧١٢م بعدما فتح محمد بن القاسم سيوستان هرب حاكمها إلى بودهيه (أي بودهيه الشمالية) وكان المقدم الوثني للمقاطعة الجنوبية واسمه كاكاكوتاك (من الواضح انتماؤه إلى طائفة الكاكا) هو الذي عقد الصلح مع ←

من مياه مهران من موقع يسمى (دهيايت) وهو الحدود الطبيعية بين (سمّه) و(أرور)، وقصد من هناك مقاطعة (بودهيه) حيث كان أميرها هو: (سركوند بن بهندر كوبهكو) وعاصمتها (كاكاراج) وسكانها يسمونها (سيويس)، وبعد حصار سيويس مدة قصيرة، استسلمت إلى جج وتم فتحها على يديه وجاء أميرها المدعو (وكيه[1] بن كاكه) إلى جج، وطلب الأمان لنفسه ولأبيه ولأتباعه وقدم أمواله لجج وأعلن الولاء والطاعة لملك الملوك جج.

تقدم جيش جج نحو سيوستان

بعدما انتهى جج من فتح سيويس، تقدم بجيشه الجرار نحو مقاطعة سيوستان التي كان يحكمها والي اسمه (مته)، وعندما سمع مته بتقدم جيوش جج نحو مقاطعته، عمد إلى تعبئة جيوشه، وأعد العدة لمواجهة جج، وتقاتل الجيشان خارج المدينة وانتصر جج عليه، ففر (مته) وأصحابه وقواده إلى الحصن.

استمر جج في حصار الحصن في سيوستان حتى أدرك مته وأصحابه بأنهم غير قادرين على مواجهة جج فخرجوا من أبواب المدينة وطلبوا الأمان وسلموا مفاتيحها إلى أمراء حرب جج.

قبل جج استسلامهم وأعطاهم الأمان، وفوّض (مته) والياً عنه في مقاطعته وتم تعيين بعض الأمناء وبقي جج عدة أيام هناك حتى استتب الأمن والاستقرار فيها.

محمد بن القاسم، وتوجه ابن القاسم بعدها إلى حصن سيوس حيث ألحق الهزيمة بحاكم سيوستان وقتله، وقد هربت فلول قواته إلى «بودهيه بالاتر» أي إلى بودهيه العليا أو بودهيه الشمالية. وبودهيه الشمالية هي التي احتفظت فيما بعد باسم بودهيه القديمة، وكانت عاصمتها قندابيل (قنداوا) وعندما كتب عنها ابن حوقل في القرن الرابع (كتاب المسالك ــ ط. ليدن ١٨٧٣: ص ٢٣١) كانت ما تزال العاصمة ومدينة التجارة الرئيسة، وكانت بودهيه مجاورة لطوران وكيكانان (بلاد كلات) وقد ذكرها المقدسي (أحسن التقاسيم ــ ط. ليدن ١٨٧٧: ص ٤٧٦) وذكرها ياقوت في معجم البلدان.

وكما قلنا أعلاه تعني بودهيه حرفياً «بلاد بوذا» بسبب سكنى البوذيين فيها في الماضي القديم، وما يزالون فيها حتى الآن وبلدة «موت» Mutt هي مركزهم الرئيسي، وتقع قريه هاشم بوذا إلى الجنوب منها.

(١) خيل إلى بعض الكتاب الواو هنا حرف عطف وهو وهم، والواو جزء من الاسم وصيغته السندية حتى يومنا هذا «وكيو».

إرسال مبعوث جج إلى برهمناباد

عندما أصبحت سيوستان في كفاية من الاحتياجات، بعث رسولاً إلى أكهم ملك لوهانة برهمناباد، يعني والي لاكهه وسمّه وسهله ودعاه إلى طاعته وإظهار الولاء له، وبعد عدة أيام أمسكوا بشخص قرب مكران وهو يحمل رسالة (مته) ملك سيوستان إلى أكهم ملك لوهانه جاء فيها:

«إنني دائماً اتبعت طريق المحبة وهوى النفس، ولم أخالفك أبداً، ولم أنازعك أيضاً، وإنني قد استلمت رسالتك وواجهت رسولك، وما دامت علاقاتنا وطيدة فلن يواجهنا أي معارض، وإنني ألتمسك سيداً وملكاً وابن ملك ومتفق معك، وإنني أسمح لك أن تسكن من برهمناباد حتى البحر وديبل، وإذا رغبت في الذهاب إلى أية منطقة أخرى فلن يقف بوجهك أي مخلوق، وما دمت تعطي الأمان فإنني أقدم لك العون والمساعدة، وأرسل إليك الخيل والفرسان والعتاد».

ثم توجه (مته) إلى الهند وكان (بهتى) آنذاك ملكاً عليها.

إيفاد مبعوث جج إلى اكهم لوهانه لاستدعائه

أرسل جج مبعوثاً إلى أكهم لوهانه حاملاً رسالة يقول فيها:

«إنك تتصور نفسك قوي الشكيمة كريم الأصل حفيد الملوك في هذا العصر، وأنا وإن كنت لم أرث هذه المملكة والسلطنة والأموال والنعمة والمقدرة، عن آبائي وأجدادي إلا أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليَّ بلطفه بكل أسباب العز والمال والجاه، وربما أن الله تعالى قد أعطاني كل ذلك بهمة سيلائج ودعائه، وأعانني على كل ذلك، وإنني لا أتوقع معونة أو أملاً من أحد غير الله تعالى، وكل نشاطي وإقدامي من معونة الله العزيز القدير وحوله، وهو الذي نصرني في كل الصراعات والنزاعات والفتوح، وأنعم علينا نعيم الدنيا والآخرة. وإذا كنت تتصور بأنك قوي بالعدة والعتاد ما لك للمكانة والمنزلة والأموال، لا شك إن هذه النعم زائلة، وإن الانتقام منك حلال».

توجه جج إلى مقاطعة برهمناباد وقتاله اكهم لوهانه

عقد جج عزمه على مقاتلة أكهم لوهانه فتوجه نحو ولاية برهمناباد ولما سمع أكهم لوهانه بخبر مجيء جج لمحاربته، دعا قواده وهيأ الفرسان والعدة والعدد لمواجهته، ولما وصل جج إلى قصبة برهمناباد، كان أكهم لوهانه مستعداً لمواجهته وقتاله، فخرج مبارز من جيش جج وقابله مبارز من جيش لوهانه، وبعد مقتل المبارزين التحم الجيشان وأسفر القتال عن انهزام أكهم لوهانه شر هزيمة، وفر إلى الحصن فلحقه جج وحاصره هناك، وبقي يقاتله ومحاصراً له سنة كاملة، حتى أرسل أكهم مبعوثاً إلى ملك الهند المدعو (كنوج ستبان بن راسل) يطلب منه العون والمساعدة وقبل وصول الجواب، كان أكهم قد مات وورث العرش بعده ابنه الذي كان يرعاه ناسك سمني اسمه (بدّه ركو) أي محفوظ الصنم، له معبد للأوثان خاص به كان يسمى (بدّه كنوهار)، وكان هذا الناسك معروفاً في منطقتي (ناسكي) و(بهكي)، وكان يتبعه أهالي تلك المنطقتين في طقوسهم الدينية ولما وقع أكهم في الحصار، كان معه في الرأي السمني إلا أنه لم يدخل الحرب والقتال إلى جانب أكهم، بل كان يتعبد باسطاً كتبه في المعبد، ولما توفي أكهم وورث العرش ابنه الصغير، قلق الناسك السمني وتخوف من ضياع الملك والأموال والرعية، فنظر إلى اصطرلابه واستنتج بحكم مطلق أن هذه المملكة ستقع بيد جج، فقال للملك الصغير ذلك، وطلب منه تسليم الحصن والبلاد إلى جج فاستسلمت المقاطعة تماماً إلى جج.

عهد جج

لما علم جج خبر الناسك السمني وأنه كان ساحراً ومستشاراً لدى أكهم، وأنه حرض على القتال لمدة عام واحد، أقسم قائلاً: إذا ظفرت بهذا الحصار فإنني سأنتقم من السمني بأن أسلخ جلده وأعمل منه طبلاً، وأترك الطبال ينقره، ويضرب الطبل حتى يتمزق إرباً إرباً.

ولما وصل قسم جج إلى السمني، ضحك قائلاً:

إن جج لا يمكنه أن يصل إليّ فكيف يتصور أنه سيقتلني؟! ولما يئس المحاربون في الحصن من مواصلة القتال ضد جج قرروا الاستسلام، وطلبوا الأمان، وبعثوا الأعيان والأكابر

منهم ليعقدوا الصلح مع جج، واستسلم الحصن كله لجج، فخرج جج وقال: إذا أحببتم الذهاب فلن يمسكم مخلوق بأذى، وإن أردتم البقاء فَنِعْمَ الدار، فسر ابن أكهم وأتباعه بقول جج هذا، وفضلوا البقاء في ديارهم، وبقي جج مدة في مدينتهم حتى تنعم بالاستقرار والأمان.

جج يطلب يد زوجة اكهم ويزوج ابنة أخيه إلى ابنها سربند

بعدها بعث جج رسولاً إلى والدة الملك الصغير سربند وطلب يدها للزواج، فقبلت ذلك، ثم زوج ابنة أخيه للملك الصغير سربند، وعم الفرح المدينة ووزعت الأرزاق، ودقت الطبول، وأقيمت الولائم والأفراح، وبقي جج هناك سنة كاملة، ثم عين الجباة والعمال لجباية أموال الدولة، بعد أن دان له ملوك وأمراء المنطقة كلها.

ثم تذكر الساحر السمني فسأل عنه، فقيل له: إن الناسك السمني يعيش قرب الكهنة الآخرين، وهو من حكماء الهند ويعيش بالقرب من كنوهار[1]، وله بين السمنيين (النساك والرهبان الهنود) منزلة عظيمة، وله اليد الطولى في السحر والشعوذة حيث سخَّر الآخرين في خدمته، وكان يضع الطلاسم في كل مكان.

فعزم جج على إذلاله ومحاربته.

ذهاب جج إلى السمني والسؤال عن أحواله

جمع جج الفرسان مع مجموعة من القادة وتوجه لفتح معبد (كنوهار)[2]وقتل

---

(١) يرسم هذا الاسم أحياناً «كنهار» أو «نوهار» وكما أن معبد العاصمة أرور كان اسمه نوبهار، أي المعبد الجديد Nou Vihara فإن معبد برهمناباد كانت له مكانته، ويستدل من اسمه «كن+وهار=كنوهار» أنه بني أو أعيد بناؤه من قبل كنشيكا Kanishka أثناء توليه الحكم في القرن الميلادي الأول، وعلى هذا كان عمره أكثر من ستمائة سنة، ولذلك كان مركزاً كبيراً للعبادة في السند السفلى.

(٢) يفيد هذا أن الراهب السمني كان يتمتع بنفوذ كبير، ولم يساند أعمال جج في اغتصاب عرش الحكام البوذيين في ←

السمني، وقال لبعض المسلحين الذين رافقوه: إنني سأتحدث إلى السمني، وعندما تشاهدونني وقد توقفت عن الحديث ونظرت إليكم، ارفعوا سيوفكم واقطعوا رأس السمني.

وعندما وصل جج إلى كنوهار، وجد السمني جالساً على كرسي ومعتكفاً للتعبد وبيده الطين الخالص يصنع منه الأصنام ثم يضع عليه ختم معبده كنوهار، ثم يعود ثانية إلى صنم آخر، فوقف جج بجانبه ولكن السمني لم يلتفت إليه، وبعد ساعة من الزمن، ولما انتهى من صنع الأصنام التفت إليه وقال: أنت ابن سيلائج الراهب؟ فأجاب جج: نعم أيها الناسك، فسأله السمني: ولأيٍّ شيء أتيت؟ فقال جج: أقول لك الحق، إنني جئت لأراك، فقال له السمني: اركع يا جج فركع جج، فرفع السمني يده وباركه ومسح بيده على رأسه ثم أجلسه، وقال له: ما حاجتك يا جج؟ فقال جج: إنني أتيت إليك حتى توافق على مشاريعي، وتأتي إلى مقاطعة برهمناباد حتى أقلدك عملاً مهماً وأفوّض إليك الأعمال الهامة في المملكة، وتكون مع سربند على العرش وفي الحكم، وتُدار المملكة بمشورتك، فقال الناسك:

إنني لا حاجة لي بملكك وعرشك ولا أرغب في العمل الإداري، وأساساً لا أحب الأعمال الدنيوية. فقال جج: لماذا بقيت في حصن برهمناباد؟ فأجاب السمني: ذلك لأنه لما مات الملك أكهم لوهانه، وجاء ابنه الصغير إلى الحكم، وهو منقبض النفس على وفاة أبيه، رأيت من الصلاح أن أرشده وأعاونه على الحكم وأنا أعبد الله، وأسأله تعالى أن يُعينه على ذلك حتى يتم الصلح والسلام بين الفريقين، وإنني أحب إليَّ أن أخدم معبد كنوهار طالباً النجاة في الآخرة من أية أعمال دنيوية، ولما كنتَ ملك هذه البلاد فإنني سأنقل أمركَ الملكي المطاع إلى جميع القبائل، وأنا أخاف إن لم أبق هنا في هذا المعبد، أن يعمد أهالي المنطقة إلى إيذاء المعبد والإساءة إليه.

فقال جج: لا بأس بذلك فإن طاعة الصنم واجبة والاستمرارية في هذا العمل هي عين الصواب، وإذا كان لديك أمر أو حاجة فاسألني إياها لأعاونك على ذلك، فقال

السند، ولهذا أراد جج بعد اخضاعه لمدينة برهمناباد أن يحطم قوة هذا الراهب بقتله، لكنه لم يستطع وتصالح معه، كما ويفيد توجهه راكباً إلى المعبد، أن هذا المعبد لم يكن داخل المدينة بل في ضواحيها ربما على مسافة تقل عن ميل واحد، وكانت بقايا البرج البوذي حتى سنوات مضت على مقربة ستوبا Stupa في ديرغانغرو وذلك مع أطلال المدينة الطينية، ومؤخراً باعت إدارة الدخل في حكومة السند هذا الموقع فقام المالك الجديد بتسويته وفلاحته.

الناسك: إنني لا أحتاج إليك أبداً، إنني أدعو الله أن يوفقك في أعمالك للحياة الأخرى.

فقال جج: إن دعوتي هي تلك التي قلتها، وهي أن يجازيني الله ويُثيبني على أعمالي لأحصل على النجاة في الآخرة، لهذا فإنني سأقدم كل ما تحتاجه من الماء والطين(1) وغير ذلك لأكون شريكك في أجر الدنيا والآخرة.

فقال له الناسك: بما أن لك اليد البيضاء في أعمال الخير والحسنات وأن معبد (كنوهار) هو معبد قديم أثّر عليه الزمان وتعاقب الحدثان وهو يحتاج إلى الترميم وبناء جناح جديد، لذا أقترح عليك أن تصرف في بنائه من أموالك وتعيننا في هذا المجال، فأجابه جج: سمعاً وطاعة وشكراً لك على هذه المساعدة والنصيحة.

رجوع جج إلى برهمناباد

ثم عاد جج إلى برهمناباد بعد لقائه بالناسك السمني، ولما قابله الوزير قال له: سيدي الملك، لقد سمعت ورأيت منك عجباً! فقال جج: ماذا رأيت وسمعت؟ فقال الوزير: لقد كان عزمك هنا أن تذهب إلى ذلك الناسك وتقتله، ولكنك لما قابلته، التمستَ طلب رضاه، كما أنك أجبت جميع طلباته، فما هو السر في ذلك؟.

---

(1) ذكر الدكتور بلوج محقق الكتاب وناشره بالباكستان أنه زار موقع البرج البوذي وتفحصه عام ١٩٥٢ ورأى بعض الآثار والتقطها، وأنه كان يمكن رؤية الأساسات المربعة الشكل لغرف المعبد الصغيرة حول جوانب البرج الذي كان ارتفاعه حوالي ــ ١٢ قدماً ــ وأن هذه الأساسات امتدت حول إطار بلغ حوالي ــ ٢٦ قدماً ــ وهذا يعني أن مساحة الساحة التي أحاطت بالبرج كانت ــ ٢١٠ أقدام مربعة ــ.

وقال الدكتور بلوج: عندما كنت أتفحص البرج أخبرني الراحل مير الله بخش خان تالبور ــ المحرر السابق لجريدة الوحيد اليومية في كراتشي ــ وابن عمه مير خان محمد، وكانا أصلاً من أهل المنطقة، وقد رافقاني في جولتي وأخذاني إلى مكان شمال غرب البرج البوذي، وأخبراني أنه في عام ١٩٣٢، تمَّ أثناء حفر قناة للري صغيرة هناك، اكتشاف عدد كبير من الألواح الطينية التي ختمت عليها صورة بوذا، وهما حين ذكرا ذلك لم يكونا قد اطلعا على ما أورده الكوفي في كتابنا هذا.

إن ما ورد في كتابنا عن لقاء جج بالراهب السمني، الذي كان جالساً يصلي على كرسي وهو مشغول بعمل ألواح الطين من الطين المصقول يوثق ما تم افتراضه حول التحديد الدقيق لهذا الموقع التاريخي، ولقد حصلت خلال الستينيات على لوحين مشابهين لهذه الألواح، ويبدو أن ألواح معبد كنوهار كانت تُصدّر إلى المعابد البوذية الأخرى.

فقال جج : نعم لقد حصل ذلك ، إنني رأيت شيئاً هو حتماً ليس سحراً ولا شعوذة ، إنه حقيقة لا ريب فيها . ذلك أنني لما جلست بجانبه ، وجدت وجهاً مخيفاً مرعباً واقفاً خلفه ، له عينان غاضبتان تقدحان شرراً ، وله شفتان كبيرتان متدليتان ، وأسنانه كأسنة الرماح ، وفي يديه الماس والعقيق . ولما رأيت ذلك امتلأت رعباً وخوفاً ، ولم أتمكن من الكلام معه خاصة وأنتم تسمعون ، لذا فإنني فضلت المداهنة والمداراة وقمت من مكاني .

إقامة جج في برهمناباد

عقد جج العزم على البقاء في مقاطعة برهمناباد حتى يسيّر أصول الدولة هناك ، وينظم جباية الأموال ويسيطر على الأوضاع والرعايا حيث أذل (زطّ[1] لوهانه) وقهر أكثر الناس فيها وأخذ العديد منهم رهائن ، وسجنهم في سجن برهمناباد وشدد عليهم ألا يدخلوا عليهم السكاكين ، ولا يلبسوهم الحرير ، وألبسهم الملابس الصوفية الحمراء والسوداء ، كما كان يخرجهم للملأ وهم راكبون على الخيل بدون ركاب وسرج وهم حفاة الأقدام عراة الرؤوس ، وعندما كانوا يخرجون من الديار التي سجنوا فيها كانت تصاحبهم الكلاب ليجمعوا الحطب لوالي برهمناباد ، وكان معهم دائماً جاسوس أو عين لمراقبتهم .

كان هدف جج من كل ذلك ، هو إرغامهم على الطاعة والولاء للملك الصغير سربند ابن الملك أكهم ، حتى لا يفكروا يوماً بالثورة والانتفاضة عليه .

وهكذا رتب جج الأمور في برهمناباد ، وأذل كل متعنت ومعاند وجعله أسيراً للوالي ، حتى استقامت الأمور في المملكة .

★ ★ ★

(١) في الأصل «جت» والجت هم الزنوج الهنود Jet وأسماهم العرب الزط ، وللزط ذكر في التاريخ الإسلامي لا سيما في العراق . وحين عامل جج الزط بقسوة متناهية وصرامة ، فعل ذلك تمشياً معهم وتطبيقاً لقوانين الطبقات في شبه القارة الهندية (قوانين مانو) التي قضت ألا يتملك الزط أي شيء فيما عدا الكلاب والحمير ، وأن يرتدوا ملابس الموتى وأن يستخدموا الأوعية المشوية أو الأوعية المكسرة كآنية ، وأن يستخدموا الحلي المصنوعة من الحديد الذي علاه الصدأ ، وشملت هذه المعاملة الزط في البنجاب وراجبوت .

ذهاب جج إلى كرمان
وتعيين الحدود مع هذه المدينة

بعد أن استتب الأمر لجج في برهمناباد بدأت تراوده أفكار حول حدود مملكته مع كرمان، حيث كانت هذه البلاد متضامنة مع ملوك الهند، ففكر جج بتوضيح الحدود معها، وكان ذلك في السنة الثانية من هجرة الرسول محمد ﷺ إلى المدينة، وبعد هلاك كسرى بن هرمز ملك فارس ووصول الحكم إلى المرأة[١] مما جعل الناس نادمين على ذلك.

ولما علم جج عن تلك الأوضاع غير المستقرة والمرتبكة، عقد العزم على التوجه إلى كرمان، وبعد أن استطلع سعده عند المنجمين، تقدم بجيشه الجرار حتى وصل (آرمابيل) التي كانت موئلاً لأحد الكهنة السمنيين البوذيين من آل راي سيهرس ملك السند، وبسبب انقطاع الولاية وبُعد المقاطعة، كان معارضاً للحكم.

ولما وصل جج، استقبله استقبالاً حاراً وأعلن الولاء والمحبة والطاعة لجج، ولهذا فإن جج لم يبق في آرمابيل، بل توجه مباشرة إلى (مكران) وفي طريقه كان الأمراء والملوك يقدمون له الهدايا والطاعة والولاء، ثم ترك مكران متوجهاً إلى بلاد أخرى ووصل إلى مقاطعة (كنزبور)[٢] القديمة فنزل في الحصن وأمر بتجديده وبنائه، ثم واصل مسيرته حتى وصل مدينة كرمان، وفي وسط الطريق بين مكران وكرمان، كان هناك نهر صغير نزل عنده جج

---

(١) المرأة هي بوران دخت بنت كسرى وملكت سنة وأربعة أشهر، ووصلت إلى الملك بعد وفاة أردشير بن شيرويه. انظر كتاب تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني: ١٩، ومفيد التنبيه إلى أن الكوفي جعلها تلي الملك في السنة الثانية للهجرة بينما جعلها الأصفهاني تليه في السنة السابعة.

(٢) رسم هذا الاسم في جميع المخطوطات الفارسية لكتابنا هذا على هذا الشكل، ولعل المترجم وجده هكذا بالأصل العربي أو وجده رسم أوله بالقاف «قنزبور» فاستبدل القاف بالكاف جاعلاً إياه يأخذ الشكل الفارسي، وورد هذا الاسم في فتوح البلدان للبلاذري ومصادر أخرى بأشكال مختلفة مثل «كنزبور ــ قنزبور ــ فنزبور» لكن يواجهنا هنا سؤال: ما هو الاسم الأصلي؟ إن الإشارة هنا إلى مدينة مكران واسمها حالياً «بنجكور» ولا ندري فيما إذا كان هذا الاسم نفسه في القرن السابع أيام الفتوحات الإسلامية وكتبه العرب فنزبور على أساس استبدال الباء بالفاء والجيم بالزاي؟ ويظل من الأفضل أن نقرأ هذا الاسم «قنزبور» حيث القاف ــ الكاف والجيم ــ الزاي، ونفترض أن هذه المدينة كانت تعرف أولاً باسم كنج بور، وأنه حرف إلى بنجكور.

وعين الحدود الشرقية لبلاده، ووضع على جانب النهر فسائل النخيل وربطها ببعضها قائلاً:

إلى هنا تنتهي حدود بلادي، وبقيت تلك الحدود منذ عهد جج بن سيلائج هي الحدود الرسمية مع السند حتى يومنا هذا.

ذهاب جج إلى آرمابيل (١)

رجع جج بن سلائج إلى آرمابيل ثم خرج منها إلى صحراء (توراني)(٢) ولم يتصد له أي من أمراء المنطقة خلال مسيرته حتى وصل بلاد قندابيل(٣) ــ يعني قندهار ــ فحاصر المنطقة وأهاليها، ثم واصل سيره حتى نهر (سيبي)(٤)، وعسكر هناك وبقي حتى شعر أهالي المنطقة بالعجز والعسر من الحصار الشديد، فجاؤوه قبائل وأمراء يحملون الأموال والهدايا ودانوا لجج بالولاء والطاعة، وخصصوا كل عام مائة حصان جبلي، ومائة ألف درهم جزية لجج بن سيلائج(٥) ومملكته.

---

(١) أي «أرمن بيله» وهي «بيله» الحالية، المركز الرئيسي لمقاطعة لاس بالا في بلوشستان، وتصحف هذا الاسم لدى بعض النساخ إلى «أرمائيل» أو «أرمبيل» وأشار إليها ياقوت وقال هي مدينة هامة بين ديبل ومكران.

(٢) بلاد توران هي جهلوان الحالية أي الجزء الجنوبي من منطقة كلات في بلوشستان ومركزها خزدر، وكانت تعرف في القرن العاشر باسم «توران» (ابن حوقل: ٣٣٠) (المقدسي: ٤٧٦ ــ ٤٧٨) (ياقوت ــ معجم البلدان وكتاب المشترك ص ٢٩٦).

هذا ورسم اسم «توراني» في المصادر ومخطوطات كتابنا بأشكال عدة مثل «نولاني ــ توراني ــ نوراني ــ بوراني»، وجادل بعضهم بأن «بوراني» هو الرسم الصحيح، فبوراني هو اسم النهر الذي ينساب عبر مقاطعة لاس بالا مشكلاً ما يمكن تسميته بوادي بوراني، والذي ورد في نصنا هو «دشت قبل هذا الاسم وتعني دشت صحراء أو سهوب، وعلى هذا القراءة الصحيحة «دشت توراني» أي بلاد توران الصحراوية وهي بلاد كثيرة التلال تمتد إلى الشرق من خزدر باتجاه جندافا.

(٣) من المرجح أن الكوفي أضاف ــ يعني قندهار ــ من عنده، وهذا وهم وقع فيه فقندابيل هي جندافا كما أشرنا من قبل، وكانت جندافا الحاضرة الرئيسة في بلاد بودهية، وهي المركز الرئيسي لـ «جندافا تحصيل» في مقاطعة كاشي في بلوشستان.

(لمزيد من التفاصيل انظر مادة ــ قندابيل ــ في الموسوعة الإسلامية ــ الطبعة الجديدة ــ بالإنكليزية).

(٤) يرجح أنه نهر بولان الذي يجري إلى جانب سيبي التي هي حالياً المدينة الرئيسية في مقاطعة سيبي في بلوشستان.

(٥) يذهب بعض الباحثين إلى أن كلمة «جج» هي بالأصل «جاجا» وهي الصيغة البيروقراطية لكلمة ياباني. أما أصل كلمة سيلائج فهو «شيلاداتيا» وكلمة بساس هي الصيغة المحورة عن «بسباس» التي لعلها كانت بالأصل ــ

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية واستقرار الأوضاع، رجع جج إلى دار الملك (أرور) وبقي هناك حتى وافته المنيةُ وذهبت روحهُ إلى بارئها.

وكان حكمه قد امتد طوال أربعين عاماً.

اعتلاء جندر بن سيلائج عرش دار الملك في أرور

لما توفي جج بن سيلائج، جلس على العرش مكانه، أخوه الراهب جندر بن سيلائج، فعمد إلى تقوية أركان دين الرهبان والنساك، وجعل الدعوة له علانية بين الناس، ودعمه، ودعا إليه جميع الناس، وكتب الرسائل إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الدخول في دينه، واستلم منهم الرد عليها.

فيسفاساكا، ويمكن استخلاص رسم شجرة العائلة التالي لأسرة برهمن، وذلك اعتماداً على مواد كتابنا:

بساس

سيلائج

جج جندر

داهر دهرسينه بائي

جيسينه قوفي وكيه دهرسيه

جج

راج دهول بجهرا ككسه كورسينه جيين ديوراج

ذهاب متّه ملك سيوستان إلى ملك كنوج[(١)]

كان (بارانسي) في هذا العهد ملكاً على الهند، فتوجه مته ملك سيوستان إلى راي (كنوج)، وكانت كنوج تحت إمرة سيهرس[(٢)] بن راسل وقال له:

إن جج بن سيلائج قد مات، وإن أخاه الراهب جندر قد تربّع على العرش من بعده، وهو ناسك يقضي جُلَّ أوقاته في تدريس العلوم اللاهوتية في المعبد، ويسهل علينا أخذ المملكة من يديه، وإذا سيطر سيدي ملك كنوج على مُلْك جندر، وجعلني ملكاً عليها، فإنني سأجبي الأموال الطائلة وأقدمها لخزائن الراي العظيم، أرجو نقل هذا الرأي إلى الملك العظيم سيهرس.

جواب سيهرس على هذه الرسالة

أجاب سيهرس في رسالته إلى مته بأن جج كان ملكاً عظيماً يحكم رقعة كبيرة من الأراضي، وبما أن جج قد مات، فإن علينا أن نأخذ تلك الديار، وأكون أنا ملكاً عليها، فتزداد هيبتي ومكانتي بين الملوك، وسوف أجعلك أميراً عليها.

ثم أرسل الملك سيهرس أخاه (برهاس بن كسائس[(٣)]) إلى راسل ملك كشمير ورمل، وأخبره بالأمر وبايعه على مصادرة مُلك جج وتعاهدا على القتال واحتلال أراضي جج، فتوجه الجيشان للسيطرة على البلاد فوصلا إلى نهر يدعى (هاسي) فعسكرا هناك، ولما سمع عمال وأتباع جندر في مقاطعة ديوهبور أخبار قدوم جيوش ملك كشمير، فروا بجلودهم سالمين.

تقدم الجيشان أكثر فأكثر حتى وصلا إلى موضع يسمى (كاهويه) وبقيا هناك شهراً

---

(١) أي مملكة كنوج.

(٢) ربما أصل هذا الاسم «شري هرشه».

(٣) إذا كان سيهرس بن راسل كما ذكر أعلاه فإن أخاه لايمكن أن يكون ابن كسائس والذي ورد في نصنا «برادر خود» ـــ «أخوه» ولعل العبارة بالأصل «برادرزاده خود» ـــ «ابن أخيه» وأن مرد الخطأ إلى أحد النساخ، هذا وجاء في بعض المصادر «بساس» بدلاً من «برهاس».

واحداً استعداداً للحرب وبعثوا لجندر بن سيلائج رسولاً يطلبون فيه الاستسلام والطاعة والولاء على أن يقدموا له الأمان.

لما سمع ذلك جندر، أبى الذل والهوان وفضّل القتال وأخذ يستعد لمواجهتهم، وأرسل دهرسين بن جج إلى برهمناباد لشحذ همم سكان المنطقة حتى لوهانه، مما أشعل الحماس في نفوسهم، وأقبلوا أفواجاً أفواجاً وانضموا إلى جيش جندر، أما جندر نفسه فقد ذهب إلى حصن داهر بن جج، وبقي عنده هناك حتى تم تطويق جيش سيهرس الذي قاوم الحصار وقاتل طويلاً، لكنه لم ينتصر على جندر وداهر، فعمد إلى المراوغة وإظهار الصلح حتى يخرج داهر جج من حصنه ويقتله.

راسل سيهرس يبعث رسولاً إلى داهر جج

ثم بعث راسل سيهرس رسوله (برهاس) إلى داهر جج قائلاً: إننا نريد إبرام العهد الوثيق معكم وسوف تكون هذه الولاية آمنة تحت حكمك وإننا سنترك الحديث في شؤون الدولة عند اللقاء.

فخرج إليه داهر من الحصن يرافقه خمسمائة رجل من أتباعه الأشداء المدججين بالسلاح كي يبرم ميثاق العهد، وتتم المصالحة، فتقدموا حتى وصلوا إلى سراي راسل ووقفوا ينتظرون الإذن بالدخول.

أما راسل فقد دعا حاجبه وقال له: عندما يدخل داهر جج وأصحابه خذ منهم أسلحتهم وقل لهم بأنني أريد أن آخذ أحد السيوف للذكرى، وعندما يسلمون أسلحتهم بالكامل، ألق القبض عليهم واقتلهم، فنزل الحاجب ووقف تحت سقف الطاق وهو يقول لهم: ارموا أسلحتكم، ولكن في تلك اللحظة بالذات انهار السقف على الحاجب ودُفن تحت الأنقاض، فنزل بعد ذلك الملك راسل ووقف أمامه وأخذ الأسلحة من الجميع وألقاها جانباً وهو ينظر إليهم شزراً، حتى وصل إلى داهر فتقدم منه وقال: أعطني سلاحك، فقال داهر: أيها الملك إن هذا الخنجر هو أخي في حلي وترحالي، في يقظتي ومنامي ولن أبعده عني، فما كان من الملك راسل إلا أن تقدم خطوة أخرى منه.

وكان أحد أتباع داهر ـــ في هذه الأثناء ـــ يرقب العملية فخطا هو الآخر خطوة أكبر ليكون عند اللزوم حاجزاً بين راسل وداهر، ثم قال داهر: أيها الملك إن خنجري هذا أفضل من كل تلك السيوف التي رميتها، عندها خطا راسل خطوة كبيرة ليأخذ الخنجر من يد داهر، فقفز مرافق داهر على راسل وأمسك بلحيته وألقاه أرضاً، وجلس على صدره قائلاً: سأقتلك شر قتلة. وفي هذه الأثناء، أمر داهر أتباعه أن يسترجعوا أسلحتهم، ثم سلُّوا سيوفهم.

وعندما وجد راسل نفسه ضعيفاً لا حول له ولا قوة، عمد إلى الخداع والمراوغة، وقال: ماذا تريد مني يا داهر؟ لقد أردت أن أعقد معكم عهداً وثيقاً للصلح والسلام. فضحك داهر، وقال: لقد وضح الأمر تماماً وانكشفت نوايا غدرك، ولن نثق بك بعد الآن، وليكن في علمك أنّ حاجبك مات تحت الأنقاض غير مأسوف عليه، ثم نريد منك أن تسلمنا مجموعة من الرهائن لنأخذهم جميعاً إلى حصن (ديوهبور) حتى تطلق سراح رهائننا عندكم.

وافق راسل على ذلك وبعث برهائنه إلى حصن (أرور) وتقدم داهر من راسل وأخذه مخفوراً مع (٥٠٠) خمسمائة رجل من أتباعه الأشداء إلى حصن برهمناباد، ثم تمت عملية تبادل الرهائن وتم الصلح بينهما.

جلوس جندر بن سيلائج على عرش مملكة جج

بعد تلك الأحداث، استقرت الأوضاع في مملكة جندر ونعمت رعاياه بالأمن والطمأنينة وبقي جندر ملكاً على البلاد لمدة سبع سنوات، وفي العام الثامن فارق الحياة، وجلس داهر بن جج ملكاً على أرور كما أصبح راج بن جندر أميراً على برهمناباد واستمرت سلطنته عاماً واحداً، تبعه بعد ذلك أخوه (دهرسيه) ملكاً على برهمناباد بعد موافقة أخته بائي على تعيينه ومبايعتها له.

ثم دعا الملك دهرسيه بن جج، ابنة أكهم لتعيش معهم مدة خمسة أعوام فلبت رغبته وأعلن الجميع الطاعة والولاء له، وكانت هناك قلعة جديدة تسمى (راؤر)[1] قد وضع حجر

(١) غالباً ما جرى المزج بين هذا الاسم واسم العاصمة «أرور» فالعاصمة في السند في الشمال، وقلعة راؤر في الجنوب، ـــ

الأساس لها جج، وكان قد بدأ ببنائها لما وافته المنية ولم تكمل تلك المدينة فقام داهر بإكمال بنائها، ودعا المزارعين وأتباعه ليسكنوا فيها ولما تم ذلك، رجع إلى مملكته برهمناباد.

إرسال أخت بائي إلى أرور لتتزوج ملك باتيه

لما علم دهرسيه بأن أخته قد بلغت سن الرشد وتجاوزت سن الطفولة، وبعدما أخذ المنجمون طالعها الحسن وعرفوا سعدها، لم يلبث باتيه أن أرسل وفداً لخطوبتها، فلم تخيب آماله، وأرسل دهرسيه جهازاً رائعاً لأخته (رايانه) مصحوباً بسبعمائة فرس مطهَّم يرافقهم خمسمائة فارس.

وكان ملك باتيه قد أرسل خبراً مع وفده إنه إذا حصل قبول خطوبة أخت دهرسيه، فإن مهرها سيكون حصن (بوجه)، ولما وصل المبعوث إلى (أرور) بقي هناك مدة شهر واحد، وكان هناك منجم هندي مشهور، وقد سأله أحد أعيان الملك فيما إذا كان قد استخرج الطالع الحسن فأجابه بالإيجاب.

ولما مَثُلَ أمام الملك راي داهر سأله الملك: لقد أتيت اليوم متأخراً، فما الذي شغلك عنا؟ فأجابه: كان قلبي متردداً وفكري مشغولاً، حتى قام أحد المنجمين البراهمة العارفين جيداً بالتنجيم فاستخرج الطالع ووجده خيراً وسعداً، فقال له الملك داهر: اذهب إليه ليستخرج كيفية السفر وحالة المملكة وشؤون السلطنة.

فقام ذلك العين المقرّب من الملك وقال: ليحفظ الله الملك إنني سأذهب لأستخرج الطالع، وأرى أخبار شؤون البلاد ولا سيما من ذلك المنجم القدير، أدام الله رفعة مليكنا وعزة بلادنا.

ومعنى هذا الاسم «الأميري» أو «الملكي» ومن غير المستبعد أن يكون جج قد شرع ببناء هذه القلعة بعد اخضاعه برهمناباد، وأن يكون داهر قد أكمل عمارتها فيما بعد، وسنرى من خلال روايات كتابنا أن قلعة راؤر كانت قائمة في إقليم برهمناباد على الجانب الشرقي للمجرى الرئيسي لنهر السند (أي مهران) وعبر محمد بن القاسم مهران وروافده مثل جونج ونتري ودادها واه قبل اشتباكه مع داهر بالقرب من قلعة راؤر، وحافظت راؤر على مكانتها بعد فتحها، بسبب وقوعها في دلتا نهر السند، وذكرها ياقوت في معجم البلدان، ويعتقد أنها راري الحالية التي تقع أطلالها على الضفة الغربية لحوض جونجرو Goongrro المهجور في تالوكا في مقاطعة ثاتا Thatta الحالية، وكانت هذه المدينة المقر الرئيسي لشعوب الزط.

ذهاب داهر إلى المنجم ليستطلع طالع أخته

ذهب داهر إلى المنجم، ولما رآه المنجم قام إكباراً له واحتراماً لمقامه ومنزلته وخاطبه قائلاً: أدام الله المليك، أية خدمة يمكن أن أقدمها لمليكي المفدى؟.

فأجابه راي داهر: أتيت لأرى مستقبل مملكتي ومصالح الجيش، وما هي عواقب أمورنا؟ فقال المنجم: إن جميع الأبراج تشهد لك بحسن الطالع وليس هناك نحس في طالعك، إن هذه المقاطعة هي ملكك وتحت سيطرتك لعدة سنين، وإذا أراد الملك السفر فإن تجواله سيكون ميموناً ومباركاً ومسعوداً، ولسوف ترجع يا مولاي بالسلامة معززاً مكرماً، ثم سأله الملك داهر عن طالع أخته بائي.

المنجم يستخرج طالع أخت داهر

قرأ المنجم طالع بائي وقال: إن نتيجة حساباتي تُظهر أنه يجب ألا تخرج من هذه المقاطعة ولن يتزوجها غير ملك تكون الهند والسند تحت إمرته واقتداره، إن هذه البنت لذلك الملك العظيم، وبعد سماع داهر طالع أخته بائي، أخذ يفكر ويتساءل ما معنى هذا الطالع؟! ثم رجع إلى داره وسأل وزيره عن معنى هذا الطالع.

استشارة الوزير بدهيمن

قال الوزير بدهيمن للملك داهر: إن إدارة المملكة وشؤونها عمل عظيم وحساس وإن انقطاع الملوكية والحشم والخدم عمل كبير جداً، وإذا فقد الإنسان خمسة أشياء، يجد نفسه بائساً: وهي: فقدان المَلِكِ لِمُلْكِهِ والوزير لوزارته وانقطاع العالم عن عمله، والرابع فقدان الشعر والأسنان، والخامس فقدان العورات.

إن الملوك قد يقتلون إخوتهم وأقاربهم من أجل الملك، أو يخرجونهم من ولاية العهد، ولا يرغبون في مشاركة المقربين وتدخلهم في الحكم، وإذا انعزل الملك عن مملكته فإنه سيتساوى مع بقية عوام الناس، ولما كان المنجمون قد حكموا على أختك بذلك الحكم

واستخرجوا طالعها، فإنه يجب عليك أن تنكح أختك بائي وتجلسها على العرش، وإن تحرجت عن القيام بذلك، ليكون اسمها على الأقل زوجتك حيث تكون مملكتك مستقرة وآمنة.

ثم استدعى داهر خمسمائة رجل من خواصه وأتباعه وقال لهم: إنني في كل حال من الأحوال معتمد عليكم في جميع الأمور، وإن أوامري لن تكون سارية المفعول ما لم أستشيركم.

لقد قرأ المنجمون الطالع واستنتجوا أن بائي لا يجوز أن تغادر هذا الحصن فسيكون زوجها، ذلك الرجل الذي يسيطر على هذه الدولة، ويجب ألا تخرج السلطة والمملكة من يدي، إن هذا المعنى قد عرفه الملك، وإن انقطاع المُلْك عمل رديء، ويرى الوزير بدهيمن أن هذا عار كبير علينا وعلى جميع البراهمة وإذا وصل هذا الحديث السيئ إلى الملوك ولاكته ألسنة عوام الناس فإنهم سيخرجوننا من ديننا ومذهبنا.

طلسم الوزير بدهيمن

عندما رجع الوزير بدهيمن إلى الدار، أخذ خروفاً، ونثر على صوفه الحصى والخردل، ثم رش الماء عليه وأبقاه ليلة ونهاراً، وبعد ذلك خرج إلى الطريق يصحبه ذلك الخروف وخلفه الأطفال والصغار والكبار، يستغربون فعلته متعجبين، ومضت ثلاثة أيام على هذا المنوال وهو يدور ويتجول في المدينة، واعتاد الناس على المنظر ولم يلتفتوا إليه بعدئذ ونسوا أمره، فقال الوزير: أيها الملك الجليل: إن أي عمل أو تصرف مهما كان حسناً أو سيئاً، ينساه الناس بعد ثلاثة أيام، لذا فإنه يتوجب عليك أن تعمل ما تراه صواباً بدون الالتفات إلى ما يقوله الناس.

ثم استدعى الملك داهر مستشاريه وأتباعه الخمسمائة وأطلعهم على رأي الوزير وما يريد أن يفعله، فوافق الجميع، وقالوا: إن ما يفعله جلالة الملك هو الصواب بعينه، وأوامره نافذة حتى على أرواحنا، إننا لن نقبل أن تتبدل هذه المملكة، وأن يتحكم بها أخوك أو أي شخص غريب.

لما استمع داهر إلى رأي أتباعه ومستشاريه، واتفاقهم على ما يفعله، أخذ عباءته

ووضعها على رأس أخته، ثم أعطاها خاتمه وقميصه وسيفه، ثم عقد العباءتين وجلس معها تحت عباءة واحدة وخيمة واحدة، مما أثار لغط عامة الناس وخواصهم، وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم.

رسالة داهر إلى أخيه دهرسيه يعظمه فيها

ثم كتب داهر رسالة تعظيم إلى أخيه دهرسيه، وشرح فيها قضية طالع بائي وما استنتجه المنجمون بأن هذه الفتاة ستكون ملكة (أرور)، وأن زوجها هو ملك هذه البلاد، ثم ذكر فيها زواجه بأخته بائي قائلاً: إنه اختار طريق العار هذا مضطراً، وإنه راعى مصلحة البلاد العليا في ذلك، طالباً العذر من أخيه.

وصول كتاب داهر إلى أخيه دهرسيه

لما وصلت رسالة داهر إلى أخيه دهرسيه، كتب هذا الأخير جواباً له قال فيه: إن ما فعلته هو المنكر وهذا العمل غير مقبول قطعاً، إن كان عن طريق الاختيار أم عن طريق الجبر، فلا عذر لك في ذلك، أما بالنسبة لبائي فما دامت المملكة الدنيوية في يدك فإن الباب مسدود في وجهك، وإذا كان ذلك بسبب وسوسة الشيطان، فيجب عليك الرجوع عن ذلك، وأن تثوب إلى رشدك وتشعر بالندم، وترجع عن غيِّك حتى لا تخرج من ديننا وحتى لا نفسخ بيعتنا لك بالملوكية.

أما إذا لم ترعو، ولم تستجب للنصائح والمواعظ، فإنه سينزل بك بلاء عظيم وعليك أن تعلم بأن جزاء مثل هذه الأفعال الدنيئة عظيم جداً.

لما وصلت رسالة دهرسيه إلى أخيه الملك داهر، وجد أن من الأفضل أن يتوجه بنفسه لزيارة أخيه دهرسيه، ثم استشار وزيره في أمر هذه الزيارة وطلب منه النصح والإرشاد.

الوزير بدهيمن يمنع داهر من زيارة أخيه

فقال له الوزير بدهيمن : لقد أخطأت خطأً فاحشاً بخوض مثل هذه الأمور مع أخيك حيث لا يمكن تلافي ذلك بأية صورة كانت ، ولن ينفعك دفاعك عنها إلا بالموت الزؤام ، وإذا تصديت لأخيك فإنك هالك لا محال ، وإذا تصورت أن أخاك لن يخالفك في ذلك فقد تصورت المحال حيث لن نقبل الشركة أو المشاركة في الملك ، والمرأة والأرض حيث تتعرض النفوس عند ذلك للخطر ، مثلما أن الابن لا سلطة له على أبيه ، والأب لا يعتمد على ولده ، وإذا كنت مصمماً على ذلك فعلى حياتك السلام .

فقال داهر : إذاً ما هو الرأي في هذا الأمر ؟ فأجابه الوزير : إن التدبير الصواب هو أن تحترز من مجالسة أخيك ولا تخالطه ، ولا تشتاق للقائه ، وأن تلازم الحصن وتفعل ما يقوله لك المنجمون وتتبع نصائحهم .

سمع داهر نصيحة وزيره ، ولازم مقاطعته وحصنه وكدس ما يحتاجه من الغذاء والغلات والحطب ، كما تجهز بكل وسائل العتاد الحربي والسلاح وبقي مستعداً مترصداً .

رسالة داهر إلى دهرسيه

بعد ذلك أخرج داهر قلماً ودواة ، وسطر رسالة ذكر فيها تقديره واحترامه لأخيه وتعظيمه لشأنه ، والإقرار بعبوديته له ، ثم كتب حول قضية بائي فقال : إذا كانت بائي تنحدر إلينا من الأب ، إلا أنها ابنة زط[1] حيث إن أصلهم مخالف ومجرم وبخاصة إلى المرأة الزط حيث أنهم في الحقيقة بعيدون عن العقيدة ، ولا يلزمون بالأمانة والوفاء والمثل السائد عند الزط معروف عند الجميع ، وهو « كل من أمسك رجل المِعْزَة فلْيَحلِبْها ومن أمسك يد المرأة الزطية تصبح له » ، ولما كان لها صفة المرأة الأجنبية فيجوز له نكاحها ، وإذا كان لديك في هذا الأمر شك فإنني أقسم لك بالأيمان المغلظة وأعطيك عهداً وثيقاً بأنني سأبقى في جميع الأحوال عبداً

---

(١) يحاول داهر هنا أن يبرهن أن بائي كانت أختهم من زوجة أبيهم ، لأن أمها كانت من طائفة الزط ، مع أنه سبق وقرأنا ما يفيد أن الأخين داهر ودهرسيه وأختهم بائي كانوا من أم واحدة هي سونهنديو .

لك، مأموراً من قبلك، فأنا لست سوى عامل من عمالك في حصن أرور، وليس عندي معك أي خلاف أو نزاع والسلام.

توجه دهرسيه إلى أرور للقبض على داهر

بعد أن وصلت رسالة داهر إلى دهرسيه، وعلم من تلك الرسالة بأن أخاه داهر قد امتنع عن المجيء إليه، وأنه قد تقلد ذلك السحر الطلسم، ولم تنفعه نصيحة أخيه، أمر بتجهيز زاده وراحلته واستخرج طالع السعد لسفره.

ومضت أيام ودهرسيه يطوي الفيافي والقفار المهلكة ويعبر الأنهار الخطرة، ويصنع حوضاً في كل منزل يحط الرحال فيه، ثم يملأ الأواني والقِرَبَ بالماء، ويتزود بالغذاء حتى لا يجوع ويعطش أتباعه ومرافقوه.

أما داهر فقد قضى أيامه بالطرب والعشق والفرح، لكنه كان كل يوم يرسل الجواسيس إلى الصحارى والطرق العامة تخوفاً من هجمة أخيه، كما أعد العدة والسلاح للمقاتلين من أتباعه وجعلهم على أتم الاستعداد للمواجهة والقتال، وأجلس على الأبواب الأربعة للحصن الحراس المدججين بالسلاح، وكان هذا ديدن داهر في حين كان دهرسيه يعتقد بأن أخاه داهر قد ندم على فعلته.

ولما وصل على مقربة من (أرور) أرسل بعد ثلاثة أيام بعض حراسه وأفراد جيشه لاستطلاع الأمور، فرجعوا وقالوا له: إن داهر بن جج وأتباعه غارقون في الملاهي والملذات ولا يعرفون شيئاً عن نية دهرسيه أو مقاصده.

محاولة دهرسيه القبض على داهر

وهكذا طمع دهرسيه بأخيه، وشجعه أنه غارق في ملذاته غافل عما حوله، فقال في نفسه: لا بد من أخذ هذا الحصن واستسلامه لي، وبعد ساعات وصل إلى (أرور) في وقت السحر بعد منتصف الليل، حيث كان داهر في هذا الوقت متهيئاً للذهاب إلى الصيد

والقنص وهو بكامل ملابسه الحربية، وعندما كان يحاول الخروج من الحصن إذا به يشاهد الفرسان حوله يتقدمهم دهرسيه الذي صاح بحراس الأبواب: افتحوا الأبواب، إلا أن الحراس استعدوا للقتال ولم يفتحوا الأبواب، فأرسل دهرسيه رسولاً إلى داهر قائلاً له: إنني لم آت إلى الحرب والخصام، إن هذا الحصن كان داراً للملك لأبي، وقد وصل لي بالوراثة، وإنني أقول لك بأنك والٍ من قبلي عليه، ولا يمكن وجود خيمتين في مملكة واحدة، اترك هذا الحصن وسلمه إلى أتباعي الذين عينتهم عليه.

فقال له داهر: لا تقترب أنت يا دهرسيه، ليعسكر جنودك خارج الحصن، ثم أرسل أتباعك حين أطمئن لذلك فأسلمهم الحصن ثم أخرج.

ولما علم دهرسيه أن داهر استعد للقتال، ولم تنطلِ عليه هذه الحيلة عبر مياه مهران، واقترب من الحصن كثيراً مهيئاً لداهر حيلة أخرى وذلك بأن يداريه أولاً ويتواضع له، باعتباره أخاه حتى يطمئن ويخرج من الحصن.

داهر ووزيره يتخذان التدابير اللازمة

استدعى داهر وزيره بدهيمن وقال له: أعتقد أن من اللازم الآن أن أبدي كثيراً من التواضع لأخي، ومن رأيي أنّ الأمر يقتضي أن أخرج إليه، وأحصل على رضاه، وأعتقد أنه سوف لن يغدر بي.

فقال له الوزير بدهيمن: أيها الملك، لا يمكن الاعتماد على هذا الرأي، ولا يغرر بك بهذه الخديعة، ولا تقبل أقواله لأن الملوك دائماً يتحايلون على الملك ومصيدتهم وغدرهم هو القسم والأيمان المغلظة، ويتحدثون بكل تواضع حتى يحصلوا على بغيتهم، وكما قيل في أدب الملوك خذ عدوك بالمكر والحيلة، وإنني أخاف عليك من غدرِ دهرسيه، ولا أريد أن تقع فريسة بين يديه، لأن عندها لا يمكنك الخلاص منه فقال داهر: أُقر أنّ هناك خوفاً، ولا أمان لديه، لكنه أخي وشقيقي من أبي وأمي، ولا يمكنني الهرب من أخي ولا بد لي من الاستجابة إلى مطالبه وأن أمثل بين يديه لخدمته.

ثم بعث دهرسيه رسالة عهد وثيق قائلاً فيها: إنني ومن أجل اطمئنانك سآتي إليك

بمفردي ، أما أنت فاخرج إلي مع أتباعك وحراسك ، ثم اتفق الاثنان على ذلك وعينوا موعداً للقاء .

وفي اليوم الثاني ، ولما طلع قرص الشمس من الشرق ، ونفضت الدنيا لباس السواد ، ركب دهرسيه فيله وتوجه إلى الباب الغربي للمدينة ، ولما وصل إلى الباب ، أخبر الحراس داهر بأن أخاه قد وصل إلى الباب الغربي ، فما هي أوامرك ؟ فقال داهر لحراسه : افتحوا الأبواب وأدخلوه وحيداً ، ففتحوا الأبواب ودخل دهرسيه لوحده .

في هذه اللحظات استدعى داهر وزيره بدهيمن وقال له : إن دهرسيه قد دخل الحصن منفرداً ، وظل مصراً حتى أتى ، فلا بد لي من الذهاب إليه فيما رأيك في ذلك ؟ فقال الوزير : إنك يجب أن لا تعتمد على أقواله ، إنه يحاول الغدر بك ، ثم إن إدخاله إلى الحصن لم يكن من مصلحتك ، وبخاصة وأنه وحيد ، ولا أرى مصلحة في قتله ، بل أشير عليك أن تعتقله وتسجنه حتى يوقع بين يديك وثيقة العهد والأمان ، وعليك أن تأخذ بنصيحتي .

دخول دهرسيه إلى حصن أرور وبقاؤه هناك

لم يصغ داهر إلى أقوال وزيره ، وسمح لأخيه دهرسيه أن يدخل على فيله حتى وصل إلى باب القصر الملكي ، فترجل داهر وركض على قدميه نحوه ، واحتضن أخاه قائلاً : تفضل إلى القصر يا أخي ، فقال دهرسيه : إنني لن أدخل ، اركب معي الفيل حتى نخرج ونجلس ساعة سوية ونتحدث عن أفراحنا وأتراحنا ، ونتناجى حتى يعلم العام والخاص بأن ليس هناك ما يكدر صفو أخوتنا ، وأن لا سبيل لنمام أو مفرق بيننا ، فينتشر هذا الخبر بين الناس ثم يعود كل منا إلى بلده وحصنه وتقطع ألسنة الحساد والمنافقين .

وأطاع داهر أوامر أخيه وانقاد إليه ، بينما وقف وزيره بدهيمن متأسفاً لحاله متفكراً خائفاً من مكر دهرسيه وغدره .

ثم أمر دهرسيه سائس الفيل أن يتقدم أكثر بالفيل حتى يتمكن داهر من الركوب عليه ، وجلس داهر إلى جانب أخيه دهرسيه على الفيل ، ثم ساق الفيل وذهب الاثنان ، وبقي

الوزير ممتطياً جواده، ومصاحباً إياهما حتى وصلا إلى باب الحصن، عند ذاك ندم داهر على فعلته فنظر إلى الوزير وقال له: ما رأيك؟ إنه يريد أن يأخذني خارج الحصن هل ترى ذلك من الصواب؟ فقال له الوزير: تركت الرأي في القصر.

فقال داهر: قل لي ماذا أصنع الآن؟ فقال له الوزير: لم يبق الآن في اليد حيلة وآخر فرصة لك هي أنه عندما تصل إلى باب الخروج من الحصن، اقفز من على ظهر الفيل فنراك، وعند ذلك نتصرف نحن، وهكذا فعل داهر، حيث أنه لما وصل إلى باب الحصن قفز من على ظهر الفيل، حينما كان خارجاً من الباب، فبادر الوزير بدهيمن إلى إغلاق الباب بكل رفق وهدوء، ولم يلحظ أحد ما حدث.

أما دهرسيه فإنه حينما التفت خلفه ولم يجد أخاه داهر ورأى باب الحصن موصداً، شعر بالأسى ورجع إلى جيشه مهموماً متألما من فعلة أخيه، ولما وصل إلى مقره وترجل من على ظهر الفيل شعر بالحمى، ثم ظهرت عليه الحصبة في اليوم التالي، وفي اليوم الرابع أسلم الروح إلى بارئها واستسلم لملك الموت، وبقي جيشه حائراً متردداً لا يعرف ماذا يعمل!.

معرفة داهر بوفاة أخيه دهرسيه

لما وصل خبر وفاة دهرسيه إلى أخيه داهر أراد أن يذهب إلى أخيه ليرتب دفنه وحرقه، فقال له الوزير: سيدي الملك يجب أن لا تستعجل الأمور، إن الملوك يكونون أقوياء القلوب في مثل هذه الحوادث، وإذا ذهبت لدفنه ربما غدر بك جيشه، وكما يقول المثل: عندما يتعب الثعلب من الجري، يتصنّع الموت حتى يطمئن الصياد ويسير الهوينا ولا يتعجل قتله، ثم يقفز الثعلب بعد أن أخذ قسطاً من الراحة ويتابع الجري والمراوغة، الملك يجب أن لا يذهب بنفسه إلى جيش عدوه، عليك أن ترسل أحد الاتباع ليتجسس عليهم وينظر إلى الأحداث عن بعد ويكتشف الأمور.

ثم ذهب اثنان من أتباع داهر إلى معسكر دهرسيه لتأدية فروض العزاء وقالا: إن داهر أرسلهما لعيادة أخيه دهرسيه، فأخذهما الحراس إلى جثمان دهرسيه ليروه وهو جثة هامدة ثم أعطوهما خاتم دهرسيه لكي تثبت صحة دعوى موته إلى أخيه، ورجعا إلى داهر في الحصن.

ويقول المؤرخون لما رأى داهر خاتم أخيه لم يحتمل الانتظار، وكبرت في عينه الرزية فذهب راكضاً منفرداً إلى معسكر أخيه، ثم ألقى نفسه على جثمان أخيه وهو يشق ثوبه ويلطم وجهه، وقد فقد السيطرة على أعصابه.

احراق جثمان دهرسيه

أمر داهر بإحضار أخشاب الصندل، وتمَّ في موكب مهيب إحراق جثمان دهرسيه، ثم دعا أتباع أخيه إلى مقاطعته وبقي في أرور لمدة شهر واحد يتقبل العزاء من المعزين، وانضم إليه جميع أتباع أخيه وجيشه، كما تزوج بامرأة أخيه، وهي ابنة أكهم لوهانه[١]، وذهب إلى حصار برهمناباد.

وبذلك انتهى حكم دهرسيه الذي توفي وهو في الثلاثين من عمره[٢].

توجه داهر إلى حصار برهمناباد

بقي داهر في حصن برهمناباد عاماً واحداً، حيث جاء الأمراء والأعيان من جميع المقاطعات لبيعته وإبداء الولاء والطاعة له، ثم دعا داهر ولد دهرسيه وطلب بيعته، فبويع بالملك، ثم توجه داهر إلى مقاطعة سيوستان ومن هناك إلى حصن (راؤر) حيث كان والده جج قد وضع حجر الأساس لها، فأكمل بناءها وبقي هناك مصيِّفاً أربعة أعوام حيث الهواء الرقيق والجو الرائع، والمياه العذبة الحلوة. وفي الشتاء كان داهر يقضي أوقاته في برهمناباد، واستمر يفعل ذلك لمدة أربع سنوات، وكان في الربيع يعيش في أرور.

وهكذا قضى داهر ثمانية أعوام أخرى على هذا المنوال، حيث استقرت دولته، وبلغت

(١) المرجح أن المقصود هنا «أكهم حاكم لوهانه» وليس «أكهم ابن لوهانه».

(٢) «ملك دهرسيه سي ساله بود» هذه أفضل القراءات لهذه الفقرة لأنها تفيد أنه توفي وهو ابن ثلاثين عاماً، في حين أن القراءات الأخرى مثل: «ملك دهرسيه! إز سي سال بود» أو «ملك دهرسيه را از سي سال بود» تفيد أنه حكم ثلاثين عاماً وهذا ما لم يحصل.

أقاصي المعمورة، فَقَدَّم جميع الملوك والأمراء آيات الولاء والطاعة له، كما هابه ملوك السند والهند الكبار وقدموا له المال والفيلة.

مجيء ملك رمل لمقاتلة داهر راي

لما بلغ صيت الملك داهر أسماع ملك رمل، يعني ملك الهند، استنفر قواته المسلحة ومقاتليه الشجعان بكامل العدة والعدد مستخدماً الفيلة والخيل، وتوجه إلى حرب داهر بن جج، ووصل عن طريق (بودهيه) إلى مدينة (أرور) وفي طريقه أعلنت جميع الممالك عن ولائها وطاعتها له.

ولما وصل خبر وصوله إلى داهر، استدعى وزيره بدهيمن، قال له: لقد جاء خصم قوي جبار بجيوشه الجرارة إلى سواد ولايتنا، ماذا تشير عليَّ أيها الوزير؟ فأجابه الوزير قائلاً: أبقى الله الراي، إذا كانت لديك المقدرة على مقاومته فاستعد للحرب، وقاتل خصمك حتى تدفع شره وتبقى ولايتك تحت إمرتك، وإذا لم يكن في مقدورك ذلك، فبايعه وأعلن بيعتك له، وإذا كان يجب أن تدفع له المال فإن ما جمعته من المال والخزائن ينفعك في هذا اليوم حيث أن المال يليِّن القلوب والحديد، فقال الملك داهر: الموت أحب إليَّ من الذل والهوان، وكيف يمكنني أن أتحمل هذا العار؟.

ذهاب العربي محمد بن الحارث العلافي
إلى حرب ملك رمل

كان في مملكة داهر رجل عربي اسمه محمد بن الحارث العلافي وهو من عرب أهل الشام[1] قد قتل عبد الرحمن بن الأشعث بسبب هروبه من الحرب، فخاف قومه فلجأ مع

---

(١) في الأصل «علافي عرب ازبني سامه» مما يفيد الانتماء إلى بني سامة، الذين كانوا عند بعض الرواة من قريش (انظر الايناس في علم الأنساب للوزير المغربي ــ ط. الرياض ١٩٨٠ ص ١٧٥) لكن البلاذري ذكر أن العلافيين كانوا من قضاعة، يعني من أهل الشام وجنده، ولذلك ترجمت العبارة بـ «من عرب أهل الشام».

(٥٠٠) رجل مسلم عربي إلى داهر وبايعه ، وتذكر الوزير بدهيمن هذا العربي ، وقال للملك داهر : ليس هناك أحد يحب الحرب مثل العربي ، وأرى أن تستدعي العلافي وتستشيره في الأمر ، فركب داهر فيله وذهب للقاء العربي ، وقال له : ياوجيه العرب ، إنني احترمتك ورعيتك حتى يحين الوقت الذي تعينني فيه ، والآن وقد جاءنا خصم عنيد وقوي ، فما رأيك في الأمر ؟.

فقال العلافي : إن رأيي أن تكون مرتاح البال ، ولا يزعجك في ذلك شيء ، وإنني سوف أتدبر أمره وأكفيك شره ، أعطني مجموعة من الفرسان الأشداء وستراني أقطع عليه الطريق وأكسر شوكته ، أما أنت فقِفْ على مسافة فرسخ واحد بعد أن تحفر خندقاً أمامك ، واستحسن الملك داهر رأي العربي العلافي وجهزه بما يريد .

فخرج العلافي بخمسمائة من رجاله العرب الشجعان وعدد آخر من الجنود المقاتلين الأشداء ، وحمل على فيلق ملك رمل في جنح الليل حملة رجل واحد ، وهم يصرخون بأعلى أصواتهم ، فانبهر جيش ملك رمل واضطرب اضطراباً عظيماً ، إذ لم يكن يتوقع هذا الهجوم المفاجئ ، وهزم شر هزيمة ، فقتل من قتل وأسر أكثر من خمسين ألفاً من رجال رمل وخمسين ضفاً من الفيلة ، وغنموا أسلحة وعتاداً لا يحصى .

ولما أصبح الصباح نقل أسراه إلى الملك داهر وأراد قتل مليكهم بنديانرا ، فقال الوزير : بما أن الله فتح عليك بهذا الثمن البخس ، اشكره واحمده على آلائه ونعمائه ، ومن شمائل الملوك والعظماء ، إذا فتح الله على أيديهم الأمصار ، أنهم يغفرون للأعداء ويطلقون سراح الأسرى ، وإن الصلاح أن تخلي سبيل الملك بنديانرا ، ففعل الملك داهر ذلك ، وعفا عنه .

أما مسألة اشتراك العلافيين في قتل ابن الأشعث ففيها نظر ، وهي مستبعدة (انظر تاريخ الطبري : ٦/٣٨٩ــ٣٩٣ــ حوادث سنة ٨٥ هـ) .

هذا وسيذكر الكوفي فيما بعد أن سبب التجاء العلافي إلى داهر قتله ربما بعد سنه ٨٦ هـ/٧٠٥م لسعيد بن أسلم الكلابي والي مكران ، وقد أورد البلاذري في فتوح البلدان ــ ط . القاهرة ١٩٣٢ : ٤٢٣ أن الحجاج بن يوسف «ولى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي مكران وذلك الثغر ، فخرج عليه معاويه ومحمد بن الحارث العلافيان ، فقتل وغلب العلافيان على الثغر» ثم ذكر أن الحجاج ولى الثغر مجاعة بن سعد التميمي ، فغزا وفتح ، ولعل هذا ما دفع بالعلافيين إلى اللحاق بداهر والتعاون معه ضد حاكم رمل (بلاد جسلمر حالياً Jesalmer) .

ثم التفت إلى وزيره وقال : أيها الوزير العزيز والمستشار العظيم، اطلب مني حاجتك، فقال له الوزير : سيدي الملك : إنك تعلم أن ليس لي ولد يحفظ ذكري بعد موتي، لذا أطلب من جلالتك أن تضرب نقوداً تكتب اسمك على أحد الوجهين، وتكتب اسمي على الوجه الآخر ليبقى ذكرى لولائي وخدماتي لسيدي الملك، وستبقى الذكرى ما دامت السند والهند على اللسان والأفواه، فأمر الملك راي داهر أن تضرب النقود بالشكل الذي أراده الوزير، وهكذا استقرت مملكة الراي داهر وقويت شوكتها، لكن داهر لما دانت له الأمم، وازدادت بين يديه الأموال والخدم والحشم بدا متغطرساً فخوراً عنيداً متمرداً.

تم هذا الكتاب

تاريخ الخلفاء الراشدين
حتى خلافة الوليد بن عبد الملك

يقول رواة الأخبار ومتتبعو الآثار: أول ما اقترح على جيش الإسلام غزو الهند والسند، كان أيام خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذلك بعد هجرة الرسول ﷺ بخمسة عشر عاماً، حيث أرسل في البداية عثمان بن أبي العاص الثقفي إلى البحرين فجهز له جيشاً وتوجهوا إلى عُمان، كما هيأ السفن مع الرجال والعدة والسلاح عن طريق البحر وجعل المغيرة بن أبي العاص أميراً عليه حتى يصل عن طريق البحر إلى (ديبل)، وكان ذلك في عهد جج بن سيلائج، بعد أن قضى في ملكه خمسة وثلاثين عاماً، وكان أهل ديبل من التجار، كما كان هناك ملك أيام جج اسمه سامة بن ديوائج.

ولما وصل الجيش إلى ديبل، ظهر له جيش المدينة وتقاتل الجيشان، وروى أحد الرجال من بني ثقيف أنه حينما تقابل الجيشان واحتدم القتال، رأى المغيرة ابن أبي العاص شاهراً سيفه وهو يقول:

بسم الله وفي سبيل الله حتى استشهد[1]، ولما سألوه: هل كنت تقاتل أيضاً؟ قال الثقفي: نعم كنت أقاتل وأنظر وأستمع لما يجري.

كذلك تم تعيين أبي موسى الأشعري رضي الله عنه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

(١) تتوافق هذه الرواية مع ما أورده البلاذري: ٤٢٠، إلا حول ما ذكره مصنفها بشأن استشهاد المغيرة، الأمر الذي لم يثبته البلاذري بقوله: «فلقي العدو، فظفر».

رضي الله عنه والياً على العراق، فجهز الربيع بن زياد الحارثي بالخيل والفرسان والعتاد من دار الخلافة للتوجه إلى مكران وكرمان للاطلاع على أحوال الهند والعراق.

ثم علم ابن العاص بأن في الهند والسند ملكاً (رائي) قاسي القلب متمرداً عنيداً جباراً فأخبر بذلك أبا موسى الأشعري الذي أوضح الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، إلا أنه امتنع عن غزو الهند في ذلك الوقت.

ولما استشهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واستلم الخلافة بعده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنهما[1]، أراد أن يرسل جيشاً لغزو الهند والسند وكان هناك جيش للإسلام معسكراً في (قندابيل)[2] ومكران وقائده عبد الله بن عامر بن كُرَيز بن ربيعة، فأرسل إليه كتاباً يطلب فيه أن يستعلم عن أحوال الهند والسند وطلب منه أن يرشح رجلاً عاقلاً صالحاً عفيفاً لذلك، فانتخب عبد الله بن عامر لهذه المهمة حُكَيمَ بن جبلة العبدي وأرسله للاستطلاع.

وجاء في الأخبار نقلاً عن عبد الله بن عمر بن عبد القيس بأنه قال: إن حكيم بن جبلة العبدي، كان رجلاً خطيباً، ذرب اللسان قوي الحجة شاعراً فناناً ويذكر أنه قال الأبيات الآتية في مدح علي بن طفيل الغنوي (وهو جاهلي):

---

(١) في هذا دلالة على أن الخليفة عثمان كان أول من فكر رسمياً بالقيام بعمل عسكري ضد حكام السند والهند، ذلك أن الحملات البحرية المبكرة التي أرسلها عثمان بن أبي العاص الثقفي حاكم عمان، قد جاءت بمبادرة شخصية منه، دون إذن عمر الذي عنفه على ذلك، وبسبب ذلك قيل رفض عمر بن الخطاب غزو السند أو الهند.

ويبدو تبعاً لما جاء في نص كتابنا هذا أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان فكر بغزو السند رداً على موقف جج من المسلمين ومهاجمته لهم في مكران، فقد ذكر الطبري: ١٨١/٤ ــ ١٨٢، أن ملك السند عبر النهر وقاتل قوات المسلمين التي كانت تحت قيادة الحكم بن عمرو التغلبي، وكانت تحارب الساسانيين وكان ذلك سنة ٢٣ هـ، ولهذا السبب طلب عثمان من عبد الله بن عامر استطلاع أحوال السند والهند.

(٢) هذه أول إشارة إلى وجود قوات إسلامية في قندابيل (جنداڤا)، وهي وإن لم ترد في المصادر التاريخية المشهورة، فقد ورد ذكر ذلك بشكل غير مباشر في طبقات ابن سعد: ٤٧١/٨ (ط. بيروت ــ دار صادر) في ترجمة سهية بنت عمير الشيبانية التي قالت: «نعي إلي زوجي من قندابيل صيفي بن قسيل، فتزوجت بعده العباس بن طريف أخا بني قيس، ثم إن زوجي الأول جاء فارتفعنا إلى عثمان، فأشرف علينا، فقال: كيف أقضي بينكم وأنا على حالي منه؟ قالوا: فإنا قد رضينا بقضائك، فخير الرجل الأول بين الصداق أو المرأة فاختار الصداق».

فاهلكنـــي لكـــــم في كل يوم تعوجُّكـــم علـــــيَّ وأستـــــقيم
رقـــاب كالمواجـــن خاضبـــات وأُستـــاه على الاكـــوار كوم[1]

كما مدح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لدى قدومه إلى البصرة قائلاً:

ليس الرزيـــة بالدينـــار تفقـــده إن الرزيـة فقـد العلـم والحكـــم
وإن أشرف من أودى الزمـــان به أهل العفاف وأهل الجود والكرم[2]

كما ذكر بعض الرواة والمحدثين أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قد كتب رسالة إلى عبد الله بن عامر يدعوه فيها إلى إرسال حكيم بن جبلة إلى الهند والسند ليستطلع أخبار البلاد وأهلها حيث سمّاه عبد الله ورشحه لذلك.

ولما رجع حكيم بن جبلة إلى عبد الله بن عامر وشرح له أحوال الهند والسند وأهلهما وأوضح طرق قتالهم ونوع أسلحتهم ومعاقل سكناهم، أرسله عبد الله بن عامر إلى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وأرضاه ليحدثه بتلك الأخبار.

ولما مثل حكيم بن جبلة بين يديه سأله عثمان رضي الله عنه: يا حكيم هل رأيت أهل الهند وعرفت أحوالهم؟ قال حكيم: نعم يا أمير المؤمنين، فقال له: صف لي ذلك، فقال حكيم يصف البلاد:

---

(١) نسب أبو زيد في كتابه النوادر (١٦١، ٢٥٩) هذين البيتين إلى شاعر جاهلي هو علي بن طفيل السعدي، بينما نسبا في لسان العرب إلى عامر بن الطفيل السعدي، ورد في تاج العروس البيت الثاني فقط وقد وردا معاً في ديوان عامر بن الطفيل (ط. لندن ـــ ذكرى جب ص ١٥٨)

(٢) كان حكيم من أصحاب الإمام علي بن أبي طالب، ذكر له صاحب العقد الفريد (ط. القاهرة ١٩٥٣): ٢٧٥/٣ بيتاً قاله من قصيدة مدح بها الإمام علي هو:

دعـــــا حكيم دعـــــوة سميعـــــة نال بها المنزلـــــــة الرفيعـــــــة

وقد تفرد مصدرنا بذكر بيتي حكيم، وأوردهما بدون ترجمة مما يقدم برهاناً جديداً على صحة أصل الكتاب العربي.

ماؤها وَشَلٌ، وثمرها دَقَلٌ، وأرضها جَبَلٌ، ولصها بَطَلٌ[1]، إنْ قَلَّ الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا.

فسأله عثمان رضي الله عنه: كيف هم في العهد والوفاء؟ هل هم أوفياء أم ناكثو العهد؟ فقال حكيم: إنهم خونةٌ وغدَّارون، لذا فإن عثمان بن عفان احترز من جيش السند، ولم يرسل أحداً إلى هناك لفتحها.

خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه

ولما وصلت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سنة ثمان وثلاثين، ذكر مؤرخو ذلك الزمان ومفسرو الأحداث والأوان: أنه لما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقع الاختلاف والصراع بين الناس.

ويروي عامر بن الحارث بن عبد القيس: أنه لما نشب الخلاف وكان أهالي النواحي والأطراف مخالفين ومعارضين، رشحوا ثاغر بن ذُعْر[2] إلى ثغر الهند على رأس جيش من المسلمين الأشداء، وجعلوا في معيَّته جماعة من الأعيان والأكابر حيث توجه لفتح الهند من طريق (بهرج) و(كوه بايه) وكان ذلك في أواخر عام ثمان وثلاثين للهجرة.

ولم يقف أحد من أهالي المناطق التي مروا بها في وجههم وجعل الله على يده النصر والظفر، حيث غنموا الغنائم الكثيرة أينما حلوا، كما أخذوا العبيد بأعداد كبيرة حتى وصلوا إلى جبل (كيكانان) وهناك تصدى لهم أهل المنطقة ووقفوا يقاتلون بقوة وعزيمة.

---

(١) في الأصل: وأهلها بطل، والتقويم من فتوح البلدان: ٢/٤٢٠ ـــ ٤٢١. ويلاحظ أن المصنف أورد العبارة العربية ثم شرحها بالفارسية. ولا بد من التنبيه إلى أن بعض المصادر العربية نسبت هذا الوصف لآخرين غير حكيم، كما أنه من المفيد العودة إلى ما رواه الطبري: ٤/١٨١ ـــ ١٨٢، حيث هناك وصف مشابه، وأن الحادثة وقعت أيام عمر بن الخطاب، وهو الذي أصدر أمر المنع.

(٢) لم يرد هذا الخبر في مصدر آخر معروف.

خبر معركة ثاغر بن ذُعر

يروي الهُذَلي[١] بأنه كان في ذلك الجيش القوي، رجل اسمه الحارث بن مرة[٢] وكان شجاعاً قوي الشكيمة تحت إمْرته ألف رجل مقاتل مسلح فارس وثلاثة من الشبان الشجعان المسلحين يحيطون به، فجعل أحدهم على لوائه، والآخَرَين على رأس فرقتين أخريين، وجعل في إمْرة كل منهما (٥٠٠) خمسمائة فارس مدجج بالسلاح.

ولما وصل الجيش إلى مكران ووصل الخبر إلى كيكانان، اجتمع أهل كوه مايه وكيكانان في جيش عرمرم وتقدموا نحو كيكانان، وكان ذلك في سنة اثنتين وأربعين للهجرة، وكان أهالي هذه المنطقة من الرجال الشجعان المغامرين ومن طلاب الحرب والقتال، فجمعوا من المقاتلين عشرين ألف رجل من الرجالة وحاولوا محاصرة الجيش الإسلامي إلا أن المقاتلين العرب هجموا هجمة رجل واحد، وهم يصرخون «الله أكبر» بصوت دوت له الفيافي ورددته الجبال! فأصاب الفزع والهلع قلوب الكفار من كيكانان فاستسلم العديد منهم، كما فرّ الآخرون، ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن يسمع في أيام الحرب التكبير من ذلك الجبل.

وخلال هذا الفتح الإسلامي العظيم، سمع المسلمون بشهادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، فرجعوا من هناك، ولما وصلوا إلى مكران علموا بأن معاوية بن أبي سفيان أصبح الخليفة.

---

(١) أبو بكر الهذلي من أئمة الرواة البصريين، كان مرجعاً في أخبار فتوحات المشرق، عاصر الخليفة السفاح ونال حظوته. وقد روى المدائني عنه كثيراً.

(٢) يستدل من نصنا هذا أن الحارث بن مرة كان تحت إمرة ثاغر بن ذعر، بينما روى البلاذري في فتوح البلدان: ٤٢١ «فلما كان آخر سنة ثمان وثلاثين وأول سنة تسع وثلاثين في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، توجه إلى ذلك الثغر الحارث بن مرة العبدي متطوعاً بإذن علي، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً، وقسم في يوم واحد ألف رأس، ثم إنه قتل ومن معه بأرض القيقان إلا قليلاً، كان مقتله في سنة اثنتين وأربعين، والقيقان من بلاد السند مما يلي خراسان». القيقان هي بلاد كلات Kalat في بلوشستان حالياً.

خلافة معاوية بن أبي سفيان

بدأت خلافة معاوية بن أبي سفيان في الأشهر الأولى من سنة أربع وأربعين[١] للهجرة، وذكر المؤرخون نقلاً عن المهلب عن الهُذلي عن قاسم أنه قال: سمعت من نصر بن سفيان أنه لما أصبح معاوية بن أبي سفيان خليفة، بعث عبد الله بن سوّار على رأس جيش من أربعة آلاف مقاتل لفتح السند، وقال له: في بلاد السند يوجد جبل اسمه كيكانان حيث الرجال الأشداء والخيول العالية القامة، وقد وصلت من تلك المنطقة قبلك غنائم كثيرة، وأهل المنطقة غدارون معاندون، يلتجئون وقت الضيق إلى الجبال ويتمردون على الولاة والفاتحين.

كما أرسل معاوية بن أبي سفيان عمر بن عبد الله بن عمر لفتح أرمابيل، وعيَّن عبد الله ابن عامر والياً على مدينة البصرة حتى يصل إلى قرب قيس بن الهيثم السلمي وينضم إليه لغزو عُمان وأردبيل.

ويذكر الرواة عن أبي الحسن[٢] عن الهذلي عن مَسْلَمة بن محارب بن مسلم بن زياد أنه سمع لما أرسل معاوية عبد الله بن سوّار مع أربعة آلاف مقاتل لفتح بلاد السند، زوده بالزاد حتى لا يشعل أحدٌ ناراً، ولكن وفي إحدى الليالي انتبه عبد الله إلى أن ناراً موقدة في معسكره فبعث أحد أتباعه ليتحرى عن الموضوع فجاءه الخبر بأن امرأة كانت تلد واضطرت إلى إشعال النار فسمح عبد الله بذلك، ويقال إنه قام إكراماً لهذه المرأة بإطعام الجيش من طعامها لمدة ثلاثة أيام[٣].

ولما وصل جيش المسلمين إلى بلاد كيكانان[٤] واحتدمت المعارك، انتصر المسلمون عليهم وأخذوا الغنائم الكثيرة وهزم جيش الكفار في كيكانان، لكن أهل كيكانان سدوا منافذ الجبال وممراتها، فاحتدم القتال أشد من السابق بين الفريقين فوقف عبد الله بن سوّار يخطب

---

(١) كذا وهو وهم لعل مرده إلى أحد النساخ، فقد بويع معاوية بالخلافة سنة ٤٠ هـ في ايلياء (القدس).

(٢) المدائني وكان كما أشرنا من تلاميذ الهذلي، وهو من مصادر كتابنا هذا الأساسية.

(٣) في فتوح البلدان: ٤٢١ «فرأى ذات ليلة ناراً، فقال: ما هذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يعمل لها خبيص، فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثاً»، وقد فعل ذلك لسخائه.

(٤) كتب المؤرخون العرب ولا سيما البلاذري هذا الاسم «قيقان».

في جيشه قائلاً: ياأبناء المهاجرين والأنصار لا تديروا وجوهكم عن الكفار حتى لا يتشتت إيمانكم وتنالوا الشهادة.

فتشجع المسلمون وحمي وطيس المعارك وجلجلة السيوف، وخرج رجل من بني عبد القيس وقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه رئيس الأعداء، كما التحق ياسر بن سوّار مع بني عبد القيس ليقتلا ذلك الرئيس، إلا أن جيش كيكانان برز كله إلى ساحة المعركة واشتد القتال، وهُزِمَ المسلمون في النهاية وامتلأت ممرات الجبال بجثث القتلى، فرجع من رجع من جيش المسلمين إلى مكران.

روى أبو الحسن عن حاتم بن قبيصة بن المهلب أنه قال: لقد كنت في ذلك اليوم مع الجمع المقاتل فرأيت ابن سوّار يقابل شاباً، فحمل أتباعه وقتلوا العديد من المشركين، ثم استشهد عبد الله بن سوّار في عصر ذلك اليوم[1] وكنت في ذلك اليوم أسلب القتلى حاجاتهم وحصلت على مائة خاتم، ثم قال عبد الله بن عبد الرحمن العبدي: إنني سمعت أشعار تلك المعركة الرهيبة عندما كنت جالساً عند معاوية وأنشد يقول:

من كابنِ سَوّارٍ إذ جاشت مراجله ... في الحرب لا أوقدت نار لها بعدهْ
كانت مراجله للرزق ضامنةً ... فإنهن بنات الحرب والجُوَدَهْ

وقال الأعور الشَّنّي[2]:

أبلغ ربيعة أعلاها وأسفلها ... أنا وجدنا ابن سوّارٍ كسوّارِ

---

(١) يستدل مما رواه البلاذري: ٤٢١، أن ابن سوار كان قد وفد إلى معاوية وأهدى إليه خيلاً «قيقانية»، وهذه الخيول من أجود الأنواع وقد تمتعت بشهرة تاريخية، وبعدما أقام ابن سوار عند معاوية قليلاً «رجع إلى القيقان فاستجاشوا الترك فقتلوه».

وذكر خليفة بن خياط هذه الواقعة في تاريخه: ٢٤٤/١ (ط. دمشق بتحقيقي ١٩٦٧) في حوادث سنة ٤٧ هـ بقوله: «فيها غزا عبد الله بن سوار العبدي القيقان، فجمع له الترك، فقتل عبد الله بن سوار وعامة ذلك الجيش»، وغلب المشركون على بلاد القيقان.

(٢) الأعور الشني هو الشاعر بشر بن منقذ بن عبد القيس، كان يكنى أبا منقذ، كان من أصحاب الإمام علي، حضر الجمل وصفين. انظر المؤتلف والمختلف للآمدي (ط. القاهرة ١٩٦١): ٤٥—٤٦.

لا يسمن الخيل إلا ريث يمهلها   وما سواه فتردى طول أعمار

ولاية سنان بن سلمة بن المُحَبَّق الهُذْلي على ثغر الهند

نقل المؤرخون هذا التاريخ عن الهذلي وعيسى بن موسى عن أبيه أنه قال: لما استشهد عبد الله بن سوّار، بعث معاوية رسالة إلى زياد يسأله فيها أن يختار رجلاً بارزاً لثغر الهند، ولما وصل الرسول إلى زياد، كتب هذا الأخير رسالة إلى معاوية يقول فيها:

[لقد اخترت رجلين بارزين هما: الأحنف بن قيس وسنان بن سلمة الهذلي فكتب له معاوية:

في أي يوم قَبِلَ بِكَ الأحنف بن قيس؟ أفي ذلك اليوم الذي ترك فيه أم المؤمنين، أمْ في ذلك اليوم الذي قاتلنا فيه في حرب صفين؟][1].

ثم عين زياد، سنان بن سلمة والياً على ثغر الهند (مكران) حيث رحل سنان إلى هناك، وبقي والياً لمدة عامين وشهر واحد، ثم إن زياداً عزله بعد ذلك.

ولاية راشد بن عمرو الجُدَيْدي على ثغر الهند

ذكر أبو الحسن عن الهذلي أنه سمع الأسود يروي بقية الخبر ويقول: لما عزل زياد واليه ابن سلمة، عين مكانه راشد بن عمرو والياً على الهند، وكان راشد رجلاً شريفاً كبير الهمة والعزم، فاستدعاه معاوية وأجلسه بجانبه على السرير، وبقي الرجلان يتحدثان طويلاً في أمور الدولة، ثم التفت معاوية إلى رجالات الدولة وقال لهم: إن راشد رجل شريف يقتدى به، فعليكم طاعته وعاونوه في قتاله ولا تتركوه وحيداً.

---

(١) لحق الأصل سقط تمّ تداركه من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة: ٢٢٧/١ (ط. القاهرة ١٩٢٥) حيث الرواية نفسها قوله: «وكتب معاوية إلى زياد: انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فولّه، فكتب إليه: إن قبلي رجلين يصلحان لذلك: الأحنف بن قيس وسنان بن سلمة الهذلي، فكتب إليه معاوية: بأي يومي الأحنف نكافيه: أبخذلانه أم المؤمنين، أم بسعيه علينا يوم صفين؟ فوجه سناناً».

ولما وصل راشد بن عمرو إلى مكران، اجتمع مع أعيان وأشراف العرب هناك، وذهب إلى سنان ورآه رجلاً عظيماً سديد الرأي حصيفه فقال: والله إن سناناً لرجل عظيم ومناضل ومقاتل فذ.

وينقل المؤرخون عن عبد الرحمن بن عبد ربه السُّلَيْطي أنه قال: سمعت من عبد الرزاق ابن سلمة أنه لما وصل راشد بن عمرو إلى ناحية السند وجبى أموال (كوه بايه)، توجه إلى كيكانان وبقي هناك عاماً واحداً حصل فيه على جميع الأموال والغنائم التي نهبها العصاة، ثم رجع من هناك عن طريق سجستان حتى وصل إلى جبل منذر وبهرج حيث اجتمع أهالي تلك المنطقة الجبلية وشكلوا جيشاً قوامه خمسون ألف مقاتل، وسدوا الطرف في وجه راشد ابن عمرو وفرسانه، والتحم الجمعان من مطلع الشمس حتى الظهيرة، واستشهد في هذه المعركة راشد بن عمرو، ورجعت الولاية بذلك مرة أخرى إلى سنان بن سلمة.

تعزيز ولاية سنان بن سلمة الثانية

ذُكر عن يسار القرشي أنه قال: لما استشهد راشد بن عمرو، أعاد زياد، سنان بن سلمة مرة أخرى للولاية وهو يتباهى به، ذلك أنه ولد في عهد الرسول ﷺ، وعندما بُشر أبوه بولادة ابنه سنان، قال رسول الله ﷺ: يا سلمة أبشر بابنك، فقال سلمة: إذا كان ولدي ونفسي فداء في سبيل الله، أفضل من ألف ولد ليسوا في سبيل الله، فسمَّاه الرسول ﷺ سناناً.

ولما تمت توليته مرة أخرى، توجه إلى مكران على رأس جيش من المسلمين، فرأى النبي ﷺ في المنام يقول له: يا بُني إنك ذاهب إلى اختبار شجاعتك، إن اليومَ يومك، ولسوف تنضبط الولاية على يدك، ثم ذهب سنان إلى ثغر الهند وسيطر على عدة ولايات حتى وصل إلى ولاية كيكانان، وكان في كل ولاية يمر عليها يطبق بها ويُجري السنن الإسلامية الحميدة، ثم وصل إلى (بودهيه) فغدروا به واغتالوه واستشهد هناك، وكتب في ذلك ابن خلاص البكري شعراً قال فيه:

أبلـغ سنـان بن منصور وأخوتـــه | أعني هُديتَ، كراماً غير أغمـار
إنـا عتبنـا عليكـم في إمارتكـــم | والدهـر ذو قلـل في النـاس دوّار
يعطي الجزيـل وينشر غير مستتـر | ولا يـزيـدك شـراً بعـد إقتـار
لم ينـزل القـوم إذ جَنَّت فَتاتُهُـم | كابـن المعلّى ولا مثـل ابـن سوَّار
ولا ابـن مرةَ إذ أودى الزمـــان به | كم فلّل الدهر من ناب وأظفار[1]

ولاية المنذر بن الجارود بن بشر

وبعد استشهاد سنان بن سلمة، وُلِّيَ المنذر بن الجارود بن بُشر على ثغر الهند، ولما جاء أمر الخليفة إليه[2]أن قاتل يا منذر، وكان ذلك في سنة إحدى وستين هجرية، أراد أن يلبس لباس الإمارة والحرب وكانت ملابسه معلقة على المشجب، فلما سحبها تمزقت، وكان عبيد الله بن زياد حاضراً فاغتم لذلك وقال: إنه فأل سيئ ثم ودعه ورجع، ثم قال: إن المنذر لن يرجع من سفرته هذه، وهو لا محالة هالك، وكان عبد العزيز حاضراً، فالتفت إلى ابن زياد، وقال: لم تتلف أموالك؟ لا تنصب أحداً، فقال عبيد الله بن زياد: لقد أرسلت المنذر لأنني متأكد أن أحداً لا يمكن أن يجاريه في الشجاعة والبسالة ولا يقف بوجهه، وإذا سمح له الحظ فإنه سيرجع غانماً بالأموال.

ولما قصد المنذر بلاد العدو، ووصل إلى طرف بلاد توراني، أصابه الألم والأذى وقضى نحبه[3]. وكان في ذلك الوقت ولده الحكم بن المنذر في كرمان.

وطلب أخوه من عبد العزيز أن يوليه ثغر الهند، وكان الوقت ظهراً وصوت المؤذن ينادي «الله أكبر» وقد دخل الحجاج عليهما، فالتفت إلى عبد العزيز[4]وقال: لو لم يطرق

---

(١) جرى ضبط هذه الأبيات بمعونة المرحوم الأستاذ عبد العزيز الميمني.

(٢) يفيد هذا أن تعيينه جاء مباشرة من الخليفة، ويفيد البلاذري: ٤٢٢ أن المعين هو زياد، وقد مات المنذر بعد وفاة زياد في ولاية عبيد الله بن زياد.

(٣) ذكر البلاذري: ٤٢٢ أنه توفي في قصدار (خزدر) بعدما غنم وسبى، ووفقاً لما ذكره صاحب «قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» (مخطوطة بيرجهنده ـ السند) كانت وفاة المنذر سنة ٦١ هـ.

(٤) هذه الرواية فيها بعض الغموض، ولعل هذا حدث مع بداية فتنة ابن الزبير وخروج المختار في الكوفة، وكان عبيد الله بن ←

أسماعي أذان الصلاة لكنت وليت أخاه على الثغر، إن كثيراً من أعياننا يضحون بأنفسهم في سبيل الله، وأنت (موجهاً كلامه إلى أخي المنذر) تريد الولاية لنفسك، إنني عينت ولده الحكم مكانه.

ولاية الحكم بن المنذر

يذكر الرواة بأنه لما وصل الحكم إلى الثغر وعلم عبيد الله بذلك، أصابه الأسى والغم واعتبره ولداً له ووهبه ثلاثمائة ألف درهم، وبقيت الولاية تحت إمرة الحكم لمدة ستة أشهر، وكان الحكم رجلاً شجاعاً مقاتلاً شريفاً، وعبَّر عبد الله الأعور الحرمازي عن ذلك بالأبيات التالية:

يا حكم بن المنـــذر بن الجارود ... أنت الجواد والجواد محمــــود
سرادق المجد علـــــيك ممدود ... نبتَّ في الجود في أصل الجود[٣]

خلافة عبد الملك بن مروان

يذكر الرواة والمؤرخون أنه لما وصلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان، أسلم ولاية العراق والهند والسند إلى الحجاج بن يوسف الثقفي فأرسل الحجاج سعيد بن أسلم الكلابي والياً على مكران[٢]، ولما وصل سعيد إلى مقربة من مكران وجد سفهوي بن لام الحمامي[٣]، وهو من قبيلة الأزد، فسأله سعيد: هل أنزل هنا، أرجو أن تصاحبني وتأتي معي إلى مكران.

زياد قد عاد إلى الشام، ويمكن أن يكون المقصود بالحجاج وعبد العزيز: الحجاج بن عبد الملك بن مروان وابنه عبد العزيز. انظر معجم بني أمية [استخرجه من تاريخ دمشق الدكتور صلاح الدين المنجد. ط. بيروت ١٩٧٠]: ٢٣.

(٣) شهر بالكذاب الحرمازي، ترجم له ابن قتيبة في الشعر والشعراء ص ٤٣٠ — ٤٣١، وأورد ما قاله بالحكم بن المنذر إنما مع خلاف.

(٢) في فتوح البلدان: ٤٢٣: «ولما ولي الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل العراق، ولى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي مكران وذلك الثغر، فخرج عليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافيان....».

(٣) بنو حمامة بطن من الأزد. انظر اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (ط. بيروت ١٩٨٠): ١/٣٨٥.

فقال سفهوي : ليس عندي أمر بذلك ، فقال سعيد : سأكتب للخلافة بذلك ، فقال سفهوي : والله لن أعمل معك وإنني أشعر بالعار إذا اشتغلت معك ، فقتله سعيد وقطع رأسه وبعثه إلى الحجاج ، ثم ذهب إلى مكران ، ثم عين عماله لجباية الأموال ، وقد حصل على الكثير من أموال الهند ، ثم كان يوماً في المرج وهو يجبي الخراج ، فالتقى بالعلافيين وتقاتل الجمعان .

خبر العلافيين وخروجهم

يقول رواة الأخبار نقلاً عن قتيبة بن الأشعث : اجتمع في يوم من الأيام كليب بن خلف المُغْني وعبد الله بن عبد الرحيم العلافي ومحمد بن معاوية العلافي فتذاكروا أمر سفهوي ابن لام وقالوا : إنه كان من مدينتنا عُمان ، فكيف يحق لسعيد أن يقتل قريبنا ، ولما أتى سعيد إلى المرج لجباية الخراج تصدى له العلافيون ، واحتدم النقاش والجدل حتى انتهى بالقتال بين الفريقين ، وقتلوا سعيداً ، وأصبحوا سادة مكران وحكامها . وفي هذا يقول الفرزدق :

سقى الله قبراً من سعيد تضمنت ... نواحيه أكفاناً عليك ثيابها

وحفـــرة بيت أنت فيها موسدٌ ... وقد سُدَّ من دون العوائد بابها

لقد ضمَّتْ أرض بمكران سيِّداً ... كريماً إذا الأنواء خفَّ سحابها

شديد على الأدنين منك إذا احتوى ... عليك من الترب الهيام حجابها

لتبك سعيــداً مرضعٌ أم خمسة ... يتامى ومن صرف القراح شرابها

إذا ذكرت عيني سعيداً تحدَّرت ... على عبراتٍ يستهلُّ انسكابُها[1]

وغضب الحجاج من جماعة سعيد وسألهم : أين أميركم ، فأجابوه إن العلافيين قد غدروا به واغتالوه ، فأمر الحجاج أحد أتباعه من بني كلاب أن يذهب ويقتل سليمان العلافي ويرسل برأسه إلى أتباع سعيد ، وهم حجاج بن أسلم ، وبشر بن زياد ومحمد بن عبد الرحمن

(١) ديوان الفرزدق (ط. دار صادر ـــ بيروت) : ٨٩/١ مع فوارق لا سيما قوله في البيت الثالث «باصطخر» بدلاً من «بمكران» .

وإسماعيل بن أسلم وكانوا يجتمعون في بيت سعيد ومعهم مواليهم يرفعون عقيرتهم بالبكاء والنحيب وصعصعة بن مجرية الكلابي يقرأ عليهم هذه الأبيات:

أعاذل كيف لي بهموم نفسي ... بذكرى تابعاً فيها سعيدا
وإخواناً له سلفوا جميعاً ... غطارفة من الأدنين صيدا
إذا ما الدهر حلّ فلم يكونوا ... بما قد حل من أمر شهودا
بقندابيل حيث ترى المنايا ... وقد لاقت بهم كرماً وجودا
ولا تشمت بنا سوقاً ستلقى ... من الآجال مطرقة حديدا

ولاية مُجَاعة بن سِعْر بن يزيد بن حُذيفة

يذكر المؤرخون أن بشر بن عيسى صاحب الخِلاط[1] روى حكاية عن فرقد بن المغيرة وعمرو بن محمد التميمي أنه لما ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي مجاعة بن سعر على مكران أصبحت الهند والسند وقندابيل تحت ولاية الحجاج، وكان ذلك سنة خمس وثمانين للهجرة.

وفي عهد الحجاج فرَّ العلافيون من مكران قبل وصول مجاعة، ولما وصل إلى مكران دعاهم إليه ولكنهم كانوا قد ذهبوا إلى ملك السند داهر بن جج، ولم يحصل عليهم، وبقي مجاعة عاماً واحداً والياً على مكران، ثم أسلم روحه إلى الباري عز وجل.

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان

لما استلم الوليد بن عبد الملك الخلافة عام ست وثمانين للهجرة عين محمد بن هارون والياً على مكران.

---

(١) الخلاط أن يكون ثلاثة نفر مثلاً، ويكون لكل واحد أربعون شاة، وقد وجب على كل واحد منهم شاة، فإذا أظلهم المصدق جمعوها لئلا يكون عليهم فيها إلا شاة واحدة، ويبدو أن المصدق الذي كان يتولى تفريق المجتمع كان يعرف باسم «صاحب الخلاط». انظر النهاية لابن الأثير.

كما ذكر المؤرخون أنه لما قضى مجاعة نحبه، بعث الحجاج بن يوسف الثقفي محمد بن هارون مكانه وأعطاه كامل الاختيار في الأوامر والنواهي، وأوصاه حول جباية أموال الديوان قائلاً له: حاول جهدك أن تقبض على العلافيين وتأخذ بثأر سعيد وفي عام ست وثمانين هجرية تمكن من القبض على أحد العلافيين، وحسب وصية الحجاج فإنه قتله وأرسل رأسه إلى الحجاج وبعث برسالة له قائلاً: إنني نجحت في القبض على أحد العلافيين وقطعت رأسه وإذا واتاني الحظ فإنني سوف أتتبع الآخرين وأرسل لك رؤوسهم، وواصل محمد بن هارون لمدة خمسة أعوام فتح البحر والبر[1].

أخبار التحف والهدايا التي بعثها ملك سرانديب إلى الخليفة

يقال أن ملك سرانديب[2]ملك جزيرة اليواقيت قد أرسل للحجاج سفينة محملة بالتحف والهدايا من الدر والياقوت والجواهر الثمينة والغلمان والعبيد الأحباش، كما أرسل لدار

---

(١) لا شك أنه أراد مكران، هذا واستمرت ولاية محمد بن هارون خمس سنوات وإليه يعود الفضل في إخضاع مكران فعلياً، لمؤهلاته ولطول المدة التي قضاها وهي أطول مما قضاه أي من الولاة الذين سبقوه.

(٢) يبدو أن عبارة «ملك سرانديب» لم تكن بالأصل العربي، وهي إضافة من الكوفي، وجاء في فتوح البلدان: ٤٢٣ «ثم استعمل الحجاج بعد مجاعة محمد بن هارون بن ذراع النمري، فأهدى إلى الحجاج في ولايته ملك جزيرة الياقوت نسوة ولدن في بلاده مسلمات ومات آباؤهن، وكانوا تجاراً فأراد التقرب بهن، فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد الديبل في بوارج، فأخذوا السفينة بما فيها، فنادت امرأة منهن ــ وكانت من بني يربوع ــ ياحجاج، وبلغ الحجاج ذلك، فقال: يالبيك، فأرسل إلى داهر يسأله تخلية النسوة، فقال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم، فأغزى الحجاج عبيد الله بن نبهان الديبل فقتل».

سرانديب هي سيلان، لكن البلاذري لم يشر إليها بل أوضح (ص ٤٢٤) «إنما سميت هذه الجزيرة جزيرة الياقوت لحسن وجوه نسائها».

لربما كانت سيلان هي جزيرة الياقوت، فالعرب عرفوها منذ ما قبل الإسلام، ويحتمل أن جالية منهم من التجار أقامت فيها في القرن الأول للهجرة، وأن بعض أيتام التجار أرادوا العودة إلى ديار الإسلام، هذا وكانت سيلان تنتج الياقوت والياقوت كما ذكر ابن خرداذبه، لكن تظل المسألة قائمة بسبب الوصف الذي رواه البلاذري، وبسبب ما جاء عند البيروني في كتابه «الجماهر في معرفة الجواهر»: ٤٧ (ط حيدر أباد الدكن ١٣٥٥ هـ) قوله بعد حديثه عن سرنديب وياقوتها: «وربما سمي موضع باسم ليس له فيه مسمى، ففي البحر الأخضر في حدود الديبجات والذابج إلى جزائر ديوه وجاوه جزيرة تعرف بجزيرة الياقوت، ليس فيها منه سمة، وإنما سميت بذلك لجمال نسائها».

الخلافة ــ إضافة إلى ذلك ــ تحفاً وطرائف مكنونة لا نظير لها، وقد توجهت النساء المسلمات مع الهدايا لزيارة الكعبة المشرفة وليشاهدن دار الخلافة الإسلامية.

ولما وصلت السفينة إلى بلاد (قازرون)[1] هبَّت رياح هوجاء وقذفت بالسفينة إلى سواحل (الديبل)، وكان يسكن بلاد الديبل في ذلك الوقت مجموعة من شذاذ الآفاق وقراصنة البحر يقال لهم (نكامِره) فهاجموا السفينة وقتلوا بعض ركابها وبحارتها وأخذوا الباقين من النساء والرجال والأطفال أسرى وعبيداً، كما صادروا جميع الموجودات من التحف والجواهر والأموال.

ويقال: إن امرأة من بين الجمع صاحت بأعلى صوتها: يا حجاج يا حجاج أغثني أغثني، وكانت تلك المرأة من بني عزير[٢]. ولما سمع الحجاج هذا الخبر: ناداها لبيكِ لبيكِ ويروي: وسط الأسعدي أنه لما تم فتح الديبل كنت هناك ورأيت تلك المرأة وهي بيضاء ناعسة ممشوقة القوام.

والحكاية أن بعض التجار من مدينة الديبل وعدداً من الذين فروا من تلك السفينة جاؤوا إلى الحجاج وذكروا له ما حصل، مع استغاثة تلك المرأة بالحجاج فقال: لبيكِ لبيكِ.

وثانية أين تقع جزيرة الياقوت المعنية بنصنا هذا؟ تبعاً لوصف البيروني وقعت فيما وراء سيلان حيث البنغال وبورما وماليزيا وسومطرة وجاوه وكمبوديا (خمير) وفيتنام (تشامبا).

وكان ابن خرداذبه من معاصري البلاذري وقد تحدث عن وصول العرب إلى سيلا (كوريا) (ص ٧٠، ١٧٠) واستيطان المسلمين فيها لطيبها، وهذه البلاد شهرت بجمال نسائها، وربما هي بلاد «الواق واق» حيث أصل التسمية «ياق ياق» لدى بعض الباحثين، وأخيراً من المرجح أن هذه التسمية تسمية معربة لاسم محلي مثل يواقيتي Yavakoti أو أن المقصود هو سومطرة؟.

(١) قازرون أو كازرون إحدى بلاد فارس، وأريد بها بشكل عام الحزام الساحلي الممتد من حدود شيراز إلى البحرين ــ معجم البلدان.

(٢) قال البلاذري إنها كانت من بني يربوع، كما أطلق على القراصنة اسم «الميد» وتدل هذه الكلمة في اللغة السندية ــ البلوشية على الصيادين سكان السواحل وليست اسماً عرفياً، فالاسم العرفي كما ذكر الكوفي «نكامره» وأصل الكلمة «نان حمرة» والنكامرة جماعة شغلت دوراً كبيراً في تاريخ السند وأنتجت عدداً من الأبطال الشعبيين، وكان مركزها قربور الحالية، وبقي من هذه الطائفة شراذم قليلة مبعثرة في أيامنا.

الحجاج يبعث رسولاً إلى الملك داهر

بعد سماع تلك الاستغاثة، يقال إن الحجاج بعث رسولاً إلى داهر ورسالة إلى محمد ابن هارون والي مكران يقول فيها: ابعث مع رسولي أحد أتباعك إلى داهر وقل له أن يخلص النساء المسلمات من الأسر والعبودية، ويرجع جميع التحف والجواهر إلى دار الخلافة، كما قَرَنَ الرسالة بالتهديد والوعيد في حالة عدم الاستجابة إلى طلبه.

ولما وصل الرسول إلى داهر بن جج في مدينة الديبل التي كانت مقر الملكية آنذاك، قدم الرسالة له وقرأها ثم قال: إن هذه الطائفة هي مجموعة من اللصوص والخارجين على القانون، وهم أقوياء لا يستطيع أحد ملاحقتهم والتغلب عليهم، ونحن أيضاً لا نستطيع ذلك.

الحجاج يطلب أمراً من دار الخلافة لغزو بلاد الديبل

لما رجع الرسول إلى الحجاج وسمع رد داهر بن جج، كتب الحجاج رسالة إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يطلب فيها الأمر بغزو بلاد السند والهند، لكن الوليد لم يصدر له أمراً بذلك ومنعه من الغزو، فكتب الحجاج رسالة ثانية إلى الخليفة وطلب منه ثانية غزو السند والهند فوافق الخليفة هذه المرة.

وبعد موافقة الخليفة، عيَّن الحجاج، عبد الله بن نبهان السُّلمي قائداً على جيوش مكران وأرسله لغزو الديبل.

توجه عبد الله السلمي بجيشه إلى الديبل وتقاتل الجمعان واستشهد عبد الله في المعركة وعاد المسلمون إلى مكران.

ثم عيَّن الحجاج، بُديل[1] قائداً جديداً لغزو الديبل حيث كان بديل في عُمان وبعث إليه رسالة يقول فيها: اذهب إلى محمد بن هارون في مكران وقل له بأن يجهز معك ثلاثة

(١) في فتوح البلدان: ٤٢٣ «فأغزى الحجاج عبيد الله بن نبهان الديبل فقتل، فكتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعُمان يأمره أن يسير إلى الديبل، فلما لقيهم نفر به فرسه، فأطاف به العدو فقتلوه، وقال بعضهم: قتله زط البدهة».

آلاف مقاتل لغزو الديبل، امتثل بُديل لأمر الحجاج، وتوجه على رأس ثلاثمائة رجل من المقاتلين الأشداء إلى مكران وعبر مضيق عُمان حتى وصل إلى حصن (فنزبور).

ولما وصلت رسالة الحجاج إلى محمد بن هارون، جهز جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل والتحق بهم بُديل وتوجهوا إلى الديبل.

وفي هذه الأثناء علم أهل الديبل بالخبر فأرسلوا مبعوثاً إلى داهر (في أرور) يخبرونه فيها بوصول بُديل.

وكان (جيسيه) بن داهر أميراً على (نيرون) فبعث أبوه رسالة إليه يدعوه إلى المجيء إلى أرور.

وصول جيسيه بن داهر من نيرون

وصل جيسيه مع أربعة آلاف مقاتل يركبون الفيلة والخيول ليقابل بُديل، وكان بُديل قد هزم أهل الديبل فالتحق جيسيه بجيشه الجرار وأفياله العديدة وآلته الحربية القوية، واستمرت الحرب بين الجانبين من الصباح وحتى انصرام الرواح، وكانت فرس بديل تخشى رؤية الفيلة، فكان بديل يعصب عين فرسه ويقاتل حتى قتل ثمانين كافراً ثم استشهد في المعركة.

خبر شهادة بُديل يصل إلى الحجاج

لما وصل خبر استشهاد بُديل إلى الحجاج، شعر بالأسى والحزن الشديدين وقال لمؤذنه: يا مؤذن اذكر اسم بُديل كلما أقمت الأذان لأتذكره وآخذ بثأره.

ويقال إنه بعد مقتل بُديل وهزيمة الجيش الإسلامي جاءت الوفود إلى الحجاج وكان بينهم رجل أخذ يتحدث عن ذلك اليوم الرهيب من المعركة التي اختلط فيها الحابل بالنابل وكان لا يسمع فيه سوى صليل السيوف، ثم تحدث عن بسالة بُديل وكيفية استشهاده، فالتفت إليه الحجاج وقال له: أنت كنت هناك فقال الرجل: نعم. فقال له الحجاج: لو كنت رجلاً شجاعاً لاستشهدت مع بُديل.

ويروي عبد الرحمن بن عبد ربّه لما قُتل بُديل، خاف أهل حصن نيرون من أن يثأر العرب لمقتله، فقال أحدهم: إن من الأفضل أن نسترضيهم ونزيل غضبهم، بدون علم الملك داهر، فبعثوا ببعض شخصياتهم إلى الحجاج وطلبوا منه الأمان والعهد الوثيق، وأنهم سوف يقدمون الديات والأموال.

وارتاح الحجاج لهذه البادرة وأصدر لهم وثيقة الأمان والعهد الوثيق وقال: اعملوا شيئاً حتى تخلصوا أسرانا من الكفار ولا بد من خضوع المنطقة حتى حدود الصين للإسلام ولو بحد السيف، فقال عامر بن عبد الله[1] للحجاج: ولني على الهند وستراني أصل إلى حدود الصين فقال له الحجاج: إنك شديد الطمع، وأنا أعلم بأن المنجمين قد قاموا بالحساب ووجدوا أن الهند يتم فتحها على يد الأمير عماد الدين محمد بن القاسم الثقفي.

ولاية عماد الدين محمد بن القاسم بن محمد ابن الحكم بن أبي عقيل الثقفي

لما جاءت رسالة دار الخلافة إلى الحجاج تخبره فيها بأنه أصبح مشرفاً على بلاد السند، عين الحجاج، محمد بن القاسم والياً على الهند، وكان محمد بن القاسم ابن عم الحجاج وصهره[2]. وكان في السابعة عشرة من عمره عندما وُلّي إمارة الهند فكتب حمزة

---

(١) كذا بالأصل ولعل الصحيح «عبد الله بن عامر».

(٢) القاسم أبو محمد هو ابن عم الحجاج، ولم يكن محمد بن القاسم صهراً للحجاج فقد كان للحجاج أخت اسمها زينب تزوجت من ابن عمها الحكم ولم يذكر النسابون للحجاج سوى أربعة أولاد، هم: محمد وعبد الملك وأبان وسليمان، وتزوج محمد بن القاسم من بني سعد بن تميم، وأنجب ولدين هما عمرو الذي أسس مدينة المنصورة بالسند، والقاسم وقد ولي البصرة. انظر جمهرة الأنساب لابن حزم (ط. القاهرة ١٩٦٢): ٢٦٧ ــ ٢٦٨. الاشتقاق لابن دريد: ١٥٩. وقد مدح القاسم بن محمد عدد من الشعراء منهم رؤبة بن العجاج وكان مما قاله فيه من أرجوزة طويلة (ديوانه: ٥٧ ــ ٦٣):

ما في غد إني امــرؤ من معشر
يغــدون أنصارك يوم النــصر
وهــم على رغــم العــداة الزفــر
أخــوال آبــائك في المجد الثري

الحنفي[1] الأبيات التالية في تهنئته.

إن الشجاعة والسماحة والنهى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة ... ياقُرْبَ ذلك سؤدداً من مولد

ويروي أبو الحسن المدائني عن بشر بن خالد أن الحجاج بعث بعد مقتل بُديل برسالة إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، يطلب فيها السماح له بفتح الهند، فكتب له الوليد: إن الهند ولاية بعيدة وقومها جهلة ولا بد من صرف المبالغ الطائلة من أجل تأمين الرجال والسلاح والعتاد ويحتاج الأمر إلى مؤونة كبيرة وقد ذهب إليها العديد من الجيوش الإسلامية فهلكت هناك بسبب عدم التخطيط والتدبير لها.

رسالة الحجاج

وكتب الحجاج مرة أخرى إلى الخليفة قائلاً: ياأمير المؤمنين: إن المسلمين هناك يعانون الأمَرّين من الكفار وقد أرسلنا جيشاً وهزم أمام جيش الكفار، ولا بد من أخذ الثأر، ولا بد من خلاص المسلمين من معاناتهم ومما نزل بهم، وكما تفضلتم في رسالتكم فإن الولاية بعيدة ومن أجل ذلك لا بد من الاستعداد لهذا الأمر بصرف المبالغ الطائلة، ونحن والحمد لله نملك السلاح والعتاد والمال، وما يصرف على الجيش وهو جالس يصرف عليه وهو يقاتل، وإننا بعون الله سنأخذ أضعافاً مضاعفة عند النصر.

سعد بن زيد في الصميم الدوسر

وكان رؤبة من بني سعد بن زيد مناة بن تميم. جمهرة ابن حزم: ٢١٥.

(١) هو حمزة بن بيض بن نمر، ويروى أنه قال قصيدة في رثاء محمد بن القاسم. انظر المؤتلف والمختلف للآمدي: ١٤١. الكامل لابن الأثير (ط. القاهرة ١٣٥٧): ٤/١٣٤.

وصول الرسالة إلى دار الخلافة
والسماح بالتوجه إلى الهند

لما وصلت رسالة الحجاج الثانية إلى دار الخلافة التي يطلب فيها السماح بفتح الهند، وافق الخليفة على ذلك وكتب إلى الحجاج. ثم كتب الحجاج رسالة أخرى يطلب فيها ستة آلاف مقاتل من أشراف الشام وأبنائهم مع عدتهم الكاملة من السلاح والعتاد ليتشرفوا بالقتال في سبيل الله، كما طلب ذكر أسمائهم فرداً فرداً حتى يعرفهم شخصياً، ويصمدوا في الحرب رجالاً أشداء.

التحاق ستة آلاف مقاتل من الشام بالجيش الإسلامي

ذكر أبو الحسن عن إسحاق بن أيوب أنه قال: لما كتب الحجاج إلى الخليفة يطلب فيها ستة آلاف مقاتل من أبناء أشراف الشام الذين تربُّوا في كنف آبائهم وهم على قيد الحياة، تربية صالحة يتمكنون منها بالوقوف مع محمد بن القاسم في حربه ضد الكفار، جاء فعلاً ستة آلاف رجل من مشاهير الشام، ولما وصلوا تقدم أحدهم وقال للحجاج: إنني لم أتعلم فنون القتال، ولم أعد نفسي فقال له الحجاج: اغربْ عن وجهي وإلا قتلتك فهرب الشامي من وجه الحجاج.

وخلال رجوع ذلك الرجل، شاهده فرسان قادمون للالتحاق بجيش المسلمين لغزو الهند فقالوا له: أين أنت ذاهب يا رجل؟ فقال لهم: لقد كنت من ضمن جيش الشام الذي أرسل إلى الحجاج ولما سألني الحجاج عن تدريبي قلت له إنني لم أتعلم فنون الحياة والحرب فنهرني وهددني وطردني، فسمحوا له بالرجوع وأكبروا في الحجاج روح الجدية العظيمة.

خطبة الحجاج يوم الجمعة

وقف الحجاج يوم الجمعة في جموع المقاتلين وقال: إن الأيام ذات دول والحرب سجال يوم علينا ويوم لنا، فعلينا أن نصمد في اليوم الذي هو علينا ونشكر الباري عز وجل في اليوم

الذي هو لنا، حتى يزيد الله النعمة علينا، وعلينا دائماً أن نذكر الله عز وجل ونشكره على نعمائه وآلائه، وأن نعم الله أبوابها مفتوحة لنا، ولن يغلق أي باب بوجهنا ما دمنا مع الله وفي سبيل الله، وما زال فراق بُديل يحز في نفوسنا ويستصرخ ثأرنا، وأنا أقول دائماً لبيك لبيك يا بُديل، والله لو أعطوني أموال العراق كلها على أن لا انتقم لهذا العار لما قبلت ولن تنطفئ لظى نار غضبي.

ارسال محمد بن القاسم إلى أطراف الهند والسند

ولما أنهى الحجاج خطبته، أركب محمد بن القاسم فرسه ووزع الصدقات على الفقراء والأموال على أتباعه وبارك لمحمد بن القاسم غزوه وسفره وترحاله، وأنشد الأبيات التالية:

دعـا الحجـاج فارس بُديـل ... وقـد مال العـدو على بديـل

وشمّـر ذيلـه الحجـاج لما ... دعـاه أن يُشمـره بذيـل

فديتُ المال للغـارات حثـواً ... بلا عدّ يُعَـدّ ولا بكيـل

ثم قال لمحمد بن القاسم: اخرج عن طريق شيراز واطو المنازل واحداً تلو الآخر حتى يأخذ منك الغضب مأخذاً شديداً.

وصول الجيش إلى شيراز

وصل محمد بن القاسم الثقفي إلى شيراز وعسكر هناك حتى يلتحق به جند العراق والشام بعد ذلك.

ارسال السفن والعتاد والسلاح

ثم أمر الحجاج أن يجمع كل ما هو موجود من المنجنيقات والسهام والرماح ووضعها

في السفن الحربية، وعين ابن المغيرة وخُرَيْم[1] على رأس القوة البحرية وأوصاهما: إذا حصل خلل في السفن، فاعتبروها سفنكما وجاهدا واجتهدا في إصلاحها.

رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم

ثم بعث الحجاج رسالة إلى محمد بن القاسم قال فيها: لقد بعثت إليك ابن المغيرة وخريم عن طريق البحر حتى يلتقيا بك في منطقة الديبل وعليك بالانتظار هناك حتى تصل السفن، اذهبوا في حفظ الله وعونه.

إعانة الجمال

ثم وصلت المساعدات التي أرسلها الحجاج إلى شيراز وهي: ستة آلاف مقاتل فارس، وثلاثة آلاف بعير لحمل الأثقال والعتاد ومعها رسالة يقول فيها: لقد تم تجهيزكم بكل ما تحتاجونه وعلى كل أربعة فرسان أن يضعوا أحمالهم على جمل واحد، وعليكم أن لا تزيدوا الأثقال على الجمل وراقبوا الله في ذلك، واصبروا وصابروا وإذا وصلتم إلى بلاد الأعداء فانزلوا في صحراء هامون وعندما يحين القتال، تفرقوا على شكل أفواج واخرجوا من الأطراف لأن حرب الفيلة لها خصوصيات خاصة بها، وعندما يحمل الأعداء عليكم قفوا في مكانكم وارموهم بوابل من السهام.

وكان الحجاج قد أمر الخياطين بصنع رؤوس السباع والفيلة حتى يرسلها إلى جيش محمد بن القاسم ليرهب بها الأعداء.

وقرأ محمد بن القاسم رسالة الحجاج والتزم بمحتواها.

وكان ذلك قبل انقضاء العام الثاني والتسعين للهجرة النبوية.

وروى إسحاق بن أيوب وهلواث الكلبي أن تجهيزات الحجاج للجيش فاقت كل

(١) كذا بالأصل ولعل هناك تصحيفاً مرده إلى النساخ وأن الصواب كما سنرى «خريم بن عمرو المري» وكان من كبار القادة أيام الحجاج.

التصورات وكانت أكثر مما يحتاجه الجيش من العدة والعتاد والسلاح والمؤن.

وصول محمد بن القاسم إلى مكران

ذكر المؤرخون أن عبد الرحمن بن عبد ربه روى عن عبد الملك بن قيس أنه قال: كنت مع محمد بن القاسم لما وصل مدينة مكران وكان فيها آنذاك محمد بن هارون فالتقاه ماشياً في المدينة فأركبه معه على حصانه حتى وصلا إلى الدار.

وعندما ترجل محمد بن القاسم ومن معه من الفرسان، بعثوا بالهدايا والتحف إلى الأكابر والأعيان فرداً فرداً.

ثم قال: لقد عرف محمد القاسم بالتواضع واللطف والمحبة والدين والهيبة والعدل والرأي الحصيف والأهبة والكفاية أثناء تسلمه ولاية الهند والسند وحكمه لها.

ذهاب محمد بن هارون مع محمد بن القاسم

يذكر ابن منظر البحري أن محمد بن القاسم توجه من هناك إلى أرمابيل[1] ومعه محمد ابن هارون الذي لاقى المصاعب والمشقات الكثيرة من وعثاء السفر وعناء الركوب فما إن وصل إلى أطراف أرمابيل حتى زهقت روحه، فدفن هناك[2].

نزول محمد القاسم في أرمابيل

ثم غزا محمد القاسم أرمابيل وبقي هناك حتى يغزو نيرون.

---

(١) أرمابيل هي لس بيله الحالية في بلوشستان.

(٢) ذكر البلاذري: ٤٢٤، أنه توفي قرب أرمابيل ودفن بقنبل التي كانت حسب الاصطخري (المسالك والممالك ـ ط. القاهرة ١٩٦١ ص ١٠٥ ـ ١٠٨) وابن حوقل (صورة الأرض: ٣١٦) بين أرمابيل والديبل، ولعل قبره المعروف حالياً باسم ضريح بير آري خارج مدينة بيله.

وصول رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم وهو في أرمابيل

لما فتح محمد بن القاسم أرمابيل، وصلت رسالة الحجاج إليه، وكان في رسالة الحجاج هذه وصايا حربية هامة أشار فيها إلى أنه إذا وصلتم إلى منازل الديبل وسوادها، احذروا تلك المنازل واحفروا الخنادق أينما وصلتم لأنها ستكون ملاذاً وحماية لكم، وكونوا يقظين أغلب الوقت، وعليكم بتلاوة القرآن، والإكثار من الدعاء، واذكروا الله دائماً على لسانكم، واطلبوا النصر من عند الله تعالى حتى ينصركم بعونه، وقولوا كثيراً: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وعندما تصلون إلى سواد الديبل، احفروا الخندق بعرض اثني عشر ذراعاً وبعمق ستة أذرع وعندما تقابلون العدو، كونوا هادئين، وإذا رفع الأعداء عقيرتهم بالصياح والقول البذيء وخرجوا للقتال، لا تقابلوهم ولا تقاتلوهم حتى أخبركم بذلك، ضمن رسائلي، تصرفوا بما أمليه عليكم حتى تتكلل مهمتكم بالنجاح والتوفيق، إن شاء الله تعالى.

خروج جيش محمد بن القاسم من أرمابيل متوجهاً إلى الديبل

ثم توجه محمد بن القاسم بجيشه الجرار إلى مدينة الديبل، وكان آنذاك جيسيه بن داهر أميراً على نيرون فكتب رسالة إلى أبيه قال فيها: إن محمد بن القاسم قد وصل بجيشه إلى سواد الديبل، هل أذهب إلى قتاله؟.

استدعى داهر أعيان العلافيين العرب واستشارهم في الأمر، فقالوا له: إن محمد بن القاسم هو ابن عم الحجاج، وقد جاء بجيش جرار قوامه الشجعان من أبناء الشام، وقد جهزوا بكل أنواع السلاح، وهم قادمون لمقاتلتكم، ونفضل أن لا نتقابل معهم. وقد سمع رجل من الشام، وهو يقول بأن كل رجل من رجال محمد بن القاسم جاء لينتقم من داهر.

لما سمع داهر أقوال العلافيين، منع ابنه جيسيه من مقاتلة محمد بن القاسم وأتباعه.

تعبئة الجيش العربي ووصول مكتوب الحجاج

لما خرج محمد القاسم من أرمابيل، جعل محمد بن مصعب بن عبد الرحمن على مقدمة الجيش وجهم بن زحر الجعفي على مؤخرة الجيش[1] وعطية بن سعد العوفي في الميمنة وموسى بن سنان بن سلمة الهذلي على الميسرة ثم جلب باقي المقاتلين من الرماة والخواص والسيافين معه إلى قلب الجيش حتى جاء يوم الجمعة من سنة ثلاث وتسعين مضين للهجرة المحمدية.

ووصلت سفن خريم بن عمرو[2] وابن المغيرة محملة بالسلاح والعتاد والرجال ومعهم الرسالة من الحجاج بن يوسف الثقفي أعطوها إلى محمد بن القاسم حيث أشار فيها إلى ضرورة حفر الخنادق، وأنه قد ألحق بخدمته كبار الأعيان والأشراف منهم:

عبد الرحمن بن سليم الكلبي الذي عرف بشجاعته ورجولته وتجاربه القتالية، والذي لم يقف بوجهه أحد من الأعداء إلى ذلك الوقت.

والثاني سفيان بن الأبرد المشهور بالجَلَد وسداد الرأي والعفة.

والآخر قطن بن مدرك الكلابي المعروف عنه المعاونة في الشدائد والمدلهمات والقول الصدق، والذي أنجز كل عمل أنيط به ولم يلمه أحد أبداً وكان مصاحباً الحجاج دائماً.

وجرّاح بن عبد الله[3] الرجل ذو الخبرة الواسعة في فنون القتال والحرب وهو من فضلاء الرجال ومجاشع بن نوبة الأزدي الذي اشتهر بالأمانة والهمة والنزاهة والصدق.

ثم أشار الحجاج في رسالته إلى محمد القاسم: بأنني آمل أن لا يختلفوا في الرأي ولا يخالطوا العدو، ومن الأسماء التي درجتها في رسالتي ليس هناك من هو أعز من خريم بن عمرو لكونه رجلاً محنكاً قوي القلب شديد المراس وشجاعاً في الحرب وهو من أسرة عرفت بالصدق والاخلاص، وإن التحاق خريم بجيشك وبجهدك يبعد القلق والخوف عني لأنه يتحلى

---

(١) في البلاذري: ٤٢٤ جعل الحجاج على مقدمة ابن القاسم أبا الأسود جهم بن زحر الجعفي.

(٢) قائد الأسطول، ولعل هذا الأسطول قد أقلع من البصرة، وقد شغل الأسطول دوراً فعالاً في فتوحات محمد بن القاسم.

(٣) أي الجراح بن عبد الله الحكمي، ورد ذكره في عدد كبير من المعارك وقد ولي جبهة الخزر.

بالخصال والأخلاق الحميدة ولا تسمح لأي مخلوق في أن يخالفك أو يعاندك، أبعده **حالاً عنك**، وعندما يصلك كتابي هذا، عليك أن تمتنع عن الأكل والشرب حتى **تستوعب كل** ما كتبته لك وتستوضح الأمور كلها.

لقد كان الحجاج يحب كثيراً الأمير محمد بن القاسم، وقد أعطى الصدقات عدة مرات عنه وقدم الدعوات له، وكان من أصدقائه بكر بن وائل وعُدَيْل بن فرخ[1] وفي غيابه كانا يهديان ناقة ضحية له وكانا يدفعان ثمنها من أثواب وحلي بناتهما، حيث قال عديل بن فرخ الأبيات التالية في ذلك:

سلبتُ بناتي حليهن فلم أدع ... سواراً ولا طوقاً وقرطاً مذهباً
وما غرني الآذان حتى كأنما ... تعطل بالبيض الأرانب أرنبا
من الدر والياقوت من كل حرة ... ترى سمطها فوق الخمار مثقبا
دعون أمير المؤمنين فلم يجب ... دعاء ولم يُسمعن أماً ولا أبا

وينقل الحكماء والأكابر عن أبي الحسن المدائني بأنه قال: سمعت من أبي محمد مولى بني تميم أن محمد بن القاسم قد نزل في سواد الديبل وحفر خندقاً، ورفع الرايات والأعلام، وعسكر الجيش في كل المواقع التي وصل إليها، وأخرجوا المنجنيقات ونصبوها. وكان هناك منجنيق خاص بأمير المؤمنين اسمه العروس، كان لا يمكن نصبه إلا بمساعدة خمسمائة رجل.

وكان في وسط مدينة الديبل معبد كبير للأصنام تتوسطه قبة عالية ترفرف عليها راية خضراء، وكان ارتفاع المعبد أربعين ذراعاً وسعة القبة أربعون ذراعاً وارتفاع الراية مثلها، وكان للراية أربعة ألسن تتطاير في الهواء[2].

وعندما دخل جيش الإسلام، نكسوا راية المعبد وأنزلوها وبدأ القتال من طرف أهالي المدينة، ولكن لم يقابلهم جيش الإسلام. ومضت سبعة أيام على هذا المنوال وكل يوم يصلنا

---

(١) عديل بن فرخ العجلي، توعده الحجاج مرة بالقتل ثم عفا عنه. انظر الاشتقاق لابن دريد: ٢٠٨.

(٢) في فتوح البلدان: ٤٢٤ «ونصب منجنيقاً تعرف بالعروس، كان يمد فيها خمسمائة رجل، وكان بالديبل بد عظيم، عليه دقل طويل، وعلى الدقل راية حمراء، إذا هبت الريح أطافت بالمدينة، وكانت تدور والبد فيما ذكروا منارة عظيمة يتخذ في بناء لهم فيه صنم أو أصنام يشهر بها...».

كتاب أن أوقفوا القتال ولا تقاتلوا، وفي اليوم الثامن جاء الأمر بالقتال فعبأ محمد القاسم جيشه وحملوا على الكفار حملة رجل واحد مما اضطر الأهالي إلى الالتجاء إلى الحصن.

ثم خرج أحد البراهمة من الحصن وطلب الأمان، وقال: عاش الأمير العادل، إن كتب التنجيم لدينا تحدثنا أن ولاية السند يتم فتحها على أيدي جيش الإسلام وينهزم الكفار وما دامت راية المعبد ترفرف وسالمة فلن يتم الفتح لكم فعليكم تمزيق الراية وهدم قبة معبد الأصنام حتى يتم الفتح على أيديكم.

جعونه يكسر رأس معبد أصنام الديبل

دعا محمد القاسم، المسؤول عن منجنيق الخلافة (العروس) وهو جعونه السلمي وقال له: إذا أمكنك أن تكسر رأس معبد الأصنام هذا وعمود الراية التي ترفرف فوقه أعطيتك عشرة آلاف درهم. فقال له جعونه: إن المنجنيق هو منجنيق الخلافة وسوف أطلق عليه الحجارة وأكسره بإذن الله، فقال محمد القاسم: إذا كسر المعبد والراية وزعت عشرة آلاف درهم إنعاماً لذلك. وإذا لم تكسره فماذا يكون شرطك؟ قال جعونه: إذا أخطأت فاقطع يدي، وهكذا تم تدمير المعبد ورايته الشريرة.

فكتب محمد القاسم عن صلابة وثبات جعونه إلى الحجاج بن يوسف الثقفي. وفي اليوم التاسع وصل كتاب من كرمان يقول فيه إذا بدأ العدو بالحرب اجعلوا الشمس خلفهم حتى تردوا الخصم، وإذا أراد أحد من أهالي السند الأمان فأعطوه الأمان، أما أهالي الديبل فلا تعطوا الأمان لأي منهم. ثم خرج كاهن من داخل الحصن وقال: لقد جاء في كتبنا الهندية أن دولة راي الهند قد أفلت ودالت، وجاء عهد الإسلام والمسلمين، وطلب الأمان للنساء والأطفال فأعطاهم محمد القاسم الأمان. ثم دخل الراهب إلى الحصن وبشر العبيد بأن خلاصهم سيكون على يد محمد القاسم ابن عم الحجاج، وسوف يتم فتح الحصن على يديه.

عماد الدين محمد بن القاسم يستدعي جعونه المنجنيقي

وفي اليوم التاسع وعند شروق الشمس، استدعى محمد بن القاسم، جعونه المنجنيقي

وأعطاه الأوامر بضرب المعبد والعدو . كما أنه هيأ الجيش للقتال . على أن يبدأ الرماة أولاً ثم يرميهم الفرسان .

وبدأ جعونه بضرب المعبد بالمنجنيق ، وكبر المسلمون بصوت هادر فطار علم المعبد ، مع قسم من قاعدته وساريته ، ثم ضرب جعونه الحجر الثاني فأصاب قبة المعبد فانهدمت تماماً ، ولما رأى أهالي الديبل ما أصاب معبدهم من تدمير ارتعبوا وخافوا خوفاً شديداً وبلطف من الله وبقدرته تعالى انهار المعبد تماماً بعد الحجر الثالث وأصبح انقاضاً مع الأرض سواء .

وكان محمد القاسم قد نصب جهم بن زُحر الجعفي على باب المشرق ، وعطاء بن مالك القيسي على باب المغرب ونباتة بن حنظلة الكلابي على الشمال[1] ، وعون بن كليب الدمشقي على الباب الجنوبي وذكوان بن علوان البكري وخُريم بن المغيرة في القلب ، ثم قرعت الطبول وهجم الجيش هجمة واحدة إضافة إلى ألف من خيالة أهل البصرة ، وارتفع التكبير عالياً ، ووصل المقاتلون المسلمون إلى أعلى البرج وكان أول من صعد البرج رجل من قبيلة مراد من الكوفة ، وتبعه عجل بن عبد الملك بن قيس العبدي من البصرة ، ولما وصل المقاتلون بأجمعهم إلى البرج ، فتح أهالي الديبل باب الحصن وطلبوا الأمان . لكن محمد بن القاسم لم يعطهم الأمان وقال لجيشه : اقتلوهم جميعاً ، واستمر التقتيل ثلاثة أيام ، ويروى أن (جاهين بن برساید راوت) والي الديبل ألقى بنفسه من سور الحصن وفر هارباً ، ولما سمع داهر بن جج بذلك أرسل الفرسان والتعزيزات إلى المدينة .

ولما وصل جاهين إلى نهر مهران إلى مكان يدعى (كارمتي)[2] على الضفة الشرقية من النهر[3] استدعى أحد الجنود وأركبه فيلاً ليخبر داهر بن جج بالهزيمة ، ولما وصل المبعوث إلى داهر سأله : أين هو الآن جاهين ، فقال له : إنه في الموضع المدعو (كارمتي) فقال داهر :

---

(١) كان نباتة بن حنظلة الكلابي واحداً من كبار القادة في جيش محمد بن القاسم ، اتسم بالبراعة والسياسة ، شغل دوراً في إبرام معاهدات الصلح مع حكام السند ، ولي جرجان ، وتصدى فيما بعد لجيوش الثورة العباسية حتى قتل . الطبري : ٣٩١/٧ ــ ٣٩٣ ــ المسعودي ــ التنبيه والاشراف : ٣٢٧ . تاريخ اليعقوبي : ٤٠٧/٢ .

(٢) أصل الكلمة باللغة السندية « خارمتي » أي الأرض المالحة ، ولا شك أنه كان اسماً أطلق على إحدى السباخ التي وقعت على أحد فروع نهر السند .

(٣) النهر هنا هو نهر السند الرئيسي ، وبما أن جاهين كان قادماً من الديبل ، فإن رحلته كانت عبر منطقة دلتا نهر السند .

لعنة الله عليك لا تقل هذا الاسم الكريه للملوك (كلمة كارمتي تعني الرملة البيضاء)[1] فهذا فأل سيئ، ثم دخل محمد القاسم الحصن، ووصل إلى المعبد وكانت مجموعة من الكفار السمنيين قد لجأت إلى المعبد وأرادت أن تقفل الأبواب وتحرق أنفسها، فدخل رجال محمد القاسم وأخذوا اثنين منهم وقتلوهما وأسروا سبعمائة غلام في ذلك المعبد وهم يلبسون الملابس الموشاة بالجواهر والياقوت، ويقال إنه قد تم في ذلك الحصن أسر أربعة آلاف رجل.

دعوة البرهمي الذي أعطاه الأمان محمد بن القاسم

ثم دعا محمد بن القاسم ذلك البرهمي وسأله عن المحتجزين المسلمين من النساء والرجال الذين أسروا في معركة سرانديب، فأشار إلى مكانهم فذهبوا وخلصوهم، ووضعوا مكانهم مجموعة من أشرار الديبل ليجنوا ما زرعت أيديهم من البغي والكفران.

استدعاء السجان قيله[2]

كان سجان المحتجزين المسلمين شخصاً يدعى قيله بن مهترائج. وهو رجل عاقل داهية عرف بالأدب والكتابة البارعة، وفعل الخير، فلما استدعوه إلى محمد بن القاسم سأله كيف كان يعامل الرهائن، فقال:

أيها الأمير، اسأل عن ذلك من شئت من الرهائن المسلمين أنفسهم وكيف كنت أرفه عنهم وأخفف عنهم الآلام وأنني عملت ذلك مرضاة لربي.

فسأل الأمير محمد بن القاسم المترجم عن قوله فقال: إنه يقول لسمو الأمير: اذهبْ وتعرف على أحوال الرهائن بنفسك واسألهم عن معاملتي لهم.

---

(١) الرملة البيضاء بالسندية «ندمتي» وعلى هذا فإن الشرح المقدم في المتن ليس دقيقاً تماماً.

(٢) ربما كانت كلمة «قيله» هي اللفظة المعربة لكلمة «كيله» التي تستخدم للتبجيل حتى الآن في الأوساط غير المسلمة في السند.

ذهاب محمد القاسم إلى الرهائن واستفساره عن أحوالهم

ثم استدعى محمد القاسم الأسرى وسألهم عن قيله السجان وكيفية معاملته لهم، فقال الجميع كلنا شاكرون له معاملته الطيبة لنا، لقد كان يواسينا دائماً، ويؤملنا بقرب وصول الجيش الإسلامي لتحريرنا وفتح الديبل.

فالتفت محمد بن القاسم إلى قيله وعرض عليه الإسلام فنطق بالشهادتين وتشرف بعز الإسلام.

وكان محمد بن القاسم قد عين وداع بن حميد البحري عاملاً على مدينة الديبل وأوصاه بقيله في أن يقوم بأعمال الحسابات والنفقات ويمسك سجلات الديوان، فكان ما أراده.

توزيع الخُمس من غنائم الديبل من العبيد والأموال

يذكر المؤرخون عن الحكم بن عروة عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت عن شخص اسمه برهمن سوديو أنه قال: لما تم فتح الديبل، وتم تحرير الأسرى من المسلمين، وغنم الجيش الإسلامي العدد الكبير من العبيد الأسرى، فرز محمد بن القاسم خُمس العبيد والغنائم من الأموال وغيرها، وأرسلها إلى الخزانة العامة وبيت المال عند الحجاج، ثم وزع الغنائم على المجاهدين والمقاتلين حيث أعطى كل فارس ضعف سهم راكب الجمل أو الماشي كما جرى إرسال ابنتي راي الديبل أمتين إلى الحجاج.

وصول خبر نهب الديبل إلى الملك داهر

يقول الراوي نقلاً عن الحكم إنه لما وصل خبر فتح الديبل على يد جيش الإسلام إلى داهر جج، وأن ملكها فر إلى جيسيه في نيرون وكيفية معاملة المسلمين بالحسنى لأهل الديبل

وشهامة أهل الشام والعرب ، كتب داهر رسالة إلى ولده جيسيه قال له فيها : إنه فور وصول رسالتي إليك ، عليك عبور مياه مهران والوصول إلى برهمناباد القديمة[1] ، وعليك أن تنصب سمنياً والياً على حصن نيرون وأن توصيه بالحفاظ على المدينة بكل قوة .

نزول محمد بن القاسم في أطراف نيرون[2]

توجه محمد بن القاسم إلى غزو مدينة نيرون ، ولما وصل إلى هناك كانت رسالة راي داهر قد وصلت إلى نيرون .

رسالة راي داهر

«بسم الله العظيم ذي الوحدانية ورب سيلائج :

من داهر بن جج ملك السند وراي الهند وقائد البر والبحر إلى المغرور والمفتون بنفسه محمد بن القاسم الذي يهوى القتل والحرب بدون رحمة ، حتى أنه لا يغفر لجيشه وجعل الجميع في محرقة الموت .

وكان قبل ذلك من رأى في منامه الغرور ، وتوجه إلى منطقتنا ، وقد بايعه أبو العاص بن الحكم على ذلك ، لأنه تصور في ذهنه المريض أنه سيفتح ولاية الهند والسند ويستقر فيها . فذهب إلى نفر قليل من أتباعنا فقتلوه في سواد الديبل وهزم تماماً جيشه الضعيف[3] والآن جاءنا محمد القاسم بذهنه المريض أيضاً ليلقى هو وجيشه المصير نفسه ، وهو عندما فتح الديبل ، وهي مدينة التجارة والصناعة ، عليه أن يعلم أنها ليست قلعة حربية ، وليس فيها المقاتلون الأشداء الذين سيلاقيهم وسيكون فناؤه على أيديهم ، وأنا لو أشرت بإصبعي إلى

---

(١) تمييزاً لها عن برهمناباد الجديدة التي أسسها العرب على مسافة خمسة أميال منها وأطلقوا عليها اسم المنصورة ، لكن مع ذلك باتت تعرف باسم برهمناباد الجديدة .

(٢) بالأصل «أرمابيل» وهو خطأ صوابه ما أثبتناه ، وهذا ما أورده البلاذري أيضاً : ٤٢٥ .

(٣) في هذا إشارة إلى الحملة العربية الأولى ضد الديبل التي أرسلها سنة ١٥ هـ/٦٣٦ ـــ ٦٣٧ م عثمان بن أبي العاص والي البحرين وعُمان ، والمعلومات عن مصير الحملة كما ذكر داهر في رسالته غير صحيحة . انظر فتوح البلدان : ٤٢٠ .

جيسيه بن راي داهر لمحا جيشك من الوجود وجاء بك أسيراً إلي، جيسيه الذي قهر الملوك، وقاتل جبابرة الزمان، ذو الحسب والنسب من الرهبان الأكابر، والذي حنا له ملوك الهند رؤوسهم، وأصبحت الهند والسند تدينان له بالولاء والطاعة، كما أعلن ملوك مكران وتوران التبعية له، وهو صاحب مائة حلقة من الأفيال، إنه سيركب الفيل الأبيض الذي لم ولن يقابله لا فرس ولا فارس.

وإنني أحذرك بأنه لن يتمكن أي مليك أو جيش ـ حتى انصرام العالم ـ من مجابهته حتى في المنام.

وإن مصيرك هو مصير بُديل نفسه[1]، وإنك لن تستطيع مواجهتنا في القتال فاسلم بجلدك وجيشك»

ولما وقع كتاب راي داهر بيد محمد بن القاسم، استدعى مترجمه وأملى عليه الرسالة التالية:

رسالة محمد القاسم إلى داهر بن جج

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن القاسم الثقفي قاتل الكفار والآخذ بثأر المسلمين من المتمردين والمعاندين، إلى الكافر الجاهل المنكر المتكبر المغرور بسلطان أيامه والزمان، الذي لا يعرف الوفاء ومرور الأيام التي يتخللها الجفاء، المغرور داهر بن ججْ البرهمي الغدار.

أما بعد: فلا بد لك من العلم بأن ما سطَّرته من الجهالة وغاية الحماقة وافتتانك برأيك الركيك قد وصلنا. وعلمنا مضمون أحوالك ومقالك، وفهمنا كل ما سطَّرته من الحديث عن القوة والشوكة والعدة والآلة والأهبة بالأفيال والحشم والجيش.

ونحن بقوة الله وحوله قد وُهِبْنا القوة والعدة والأهبة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي

(١) في هذا إشارة إلى بُديل بن طهفة البجلي الذي أرسله الحجاج ضد الديبل بعد سنة ٨٦ أي قبل ست سنوات من إرسال محمد بن القاسم. انظر فتوح البلدان: ٤٢٣.

العظيم. ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيداً﴾[1]، ثم لا ينظرون، ﴿إِنِّي تَوَكَّلتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾[2]، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيرُ ٱلمَاكِرِينَ﴾[3]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلمَكرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهلِهِ﴾[4]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةَ بِإِذنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[5].

أيها العاجز، ماذا ينفعك ركوب الفيل وكثرة العدد والعدة؟ ولعلمك إن الفيل ذليل وعاجز أيضاً وهو أضعف العُدَدِ ولا يستطيع أن يُبعد الذبابة عنه التي هي أضعف المخلوقات. ونحن نفتخر بفرساننا وهم من حزب الله، قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلغَالِبُونَ﴾[6] وخيل الله وفرسانها هم المنصورون. ولتعلم بأننا جئنا لقتالك بسبب أفعالك السيئة وخصالك غير المرضية، وبسبب استكبارك حيث أوقفت سفن أموال سرانديب وأسرتَ المسلمين.

وإنك تعلم بأن أوامر دار الخلافة خلافة النبوة مطلقة ونافذة في جميع أنحاء الدنيا، وأنت تعلن التمرد والعصيان، وتأخذ أموال بيت مال المسلمين التي كان الولاة والملوك السابقون يعطونها ويعتبرونها حقاً بذمتهم فيرسلونها إلى دار الخلافة، ولأنك لوثت نفسك بهذه الخصال الدنيئة وتمردت على الطاعة والقيام بالواجب، فقد جاءنا الأمر الإلهي من دار الخلافة كي أنتقم من تلك الأفعال، وأتوجه لقتالك، ولسوف أقهرك وأهزمك أينما واجهتك بعون الله تعالى وسأبعث برأسك بمشيئة الله إلى العراق، أو أضحي بروحي في سبيل الله، وأعتبر هذا الجهاد واجباً عليَّ طبقاً للآية الكريمة ﴿جَاهِدِ ٱلكُفَّارَ وَٱلمُنَافِقِينَ﴾[7] وقبلتُ الجهاد في سبيل مرضاة الله تعالى وإني آمل الكثير من كرم الله ونصرته لجنوده إن شاء الله تعالى.

كتب في سنة ثلاث وتسعين من الهجرة.

---

(١) سورة يوسف ـــ الآية: ٥.
(٢) سورة هود ـــ الآية: ٥٦.
(٣) سورة آل عمران ـــ الآية: ٥٤.
(٤) سورة فاطر ـــ الآية: ٤٣.
(٥) سورة البقرة ـــ الآية: ٢٤٩.
(٦) سورة المائدة ـــ الآية: ٥٦.
(٧) سورة التوبة ـــ الآية: ٧٣.

ذهاب محمد القاسم إلى نيرون بعد فتح الديبل

يذكر رواة الأخبار وأصحاب التواريخ عن نباتة بن حنظلة الكلابي بأن محمد القاسم بعد أن فتح الديبل وحصل على الغنائم الكثيرة أمر بوضع المجانيق في السفن ووجهها إلى حصن نيرون عبر مياه (ناله ساكرة)[1] وتوجه هو عن طريق (سيسم)[2] ولما وصل سيسم وصلته رسالة الحجاج التالية :

وصول رسالة الحجاج إلى محمد القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم :

من الحجاج بن يوسف إلى محمد بن القاسم :

لتعلم أن كل جهدنا وهمتنا وإنفاقنا هو أن نوصلك إلى النصر والظفر لتكون منصوراً مظفراً وسوف ينال الأعداء عقابهم العاجل وعذابهم الآجل بعون الله تعالى .

يجب أن تكون واثقاً بأن كل تلك الأفيال والغنائم والمتاع والمال ستكون لك يوماً ما ، لذا عليك أن تعيش حياة حسنة مع أصحابك وتسعى لاحترام كل واحد منهم وتقوّي قلوبهم بأن تلك الولاية ستكون ملكك ، وعليك أن توزع جميع الأموال والغنائم التي تحصل عليها في سبيل الهيبة ، وتصرفها على الجيش ، ولا تمنع ما يجب بذله في سبيل المأكل والمشرب ، واسع بكل جهدك لتأمين اليسر والحاجات ، وأن تضع جميع ما في الديبل في خدمة جيشك ، والأهم من ذلك أن تنفق ما وجدته في حصن الديبل من الذخائر في سبيل ترفيه الرعية واستمالة قلوب

---

(١) أي عبر قناة ساكرة ، وهي قناة باغار التي شكلت فيما بعد الدلتا الرئيسة لنهر السند أثناء مروره عبر بلاد ساكره ، وسنزيد هذا توضيحاً فيما بعد .

(٢) بعدما وجه ابن القاسم المعدات نحو أعالي البلاد بوساطة السفن توجه مع معظم جيشه بطريق البر نحو نيرون عن طريق سيسم بعد شهر واحد من تحركه ، ويرجح أنه قوبل في سيسم بالترحاب ولم يخض أية معركة ، وإذا ما استعرضنا المواقع البوذية بين الديبل (بنبهور) ونيرون (حيدر أباد) فمن الممكن القول إن سيسم حيث تل ثارو في منتصف الطريق بين مدينة ثاما وقرية جوجو ، على بعد عشرة أميال إلى الغرب منها ، فهذا ما دلت عليه عمليات المسح الأثري في الهند .

السكان ، وإذا أصبح الصنَّاع والزرَّاع والتجَّار مرتاحين ومرفهين ، فإن الولاية ستكون مزروعة ومعمورة إن شاء الله تعالى .

كتبه في العشرين من رجب سنة ثلاث وتسعين .

فتح نيرون

يُروى عن أبي الليث التميمي عن جَعْونَة بن عقبة السُّلمي أنه قال : كنتُ مع محمد بن القاسم عند فتح حصن الديبل حيث توجه بعدها إلى نيرون التي تبعد عن الديبل خمسة وعشرين فرسخاً ، قطعها في ستة أيام ووصل في اليوم السابع إلى سواد نيرون إلى ولهار في منطقة بدوري[1] حيث يوجد وادي نهر مهران المسمى سيحون ، ولكنه كان يابساً خالياً تماماً من الماء .

وكان جيش محمد بن القاسم قد أنهكه التعب وأخذ منه العطش مأخذاً كبيراً ، فوقف محمد بن القاسم بقلب خاشع ، وصلى ركعتين ثم دعا الله بكل إيمان قائلاً : « يا دليل المتحيرين ويا غياث المستغيثين ، أغثني بحق بسم الله الرحمن الرحيم » وإذا بالمطر ينهمر بقدرة الله تعالى فامتلأت الوديان بالمياه الوفيرة كما امتلأ حوض نهر سيحون بالماء ، أما أهل نيرون فقد أغلقوا الحصن على أنفسهم وكان الراهب السمني الذي كان والياً على المدينة قد ذهب إلى داهر بن جج .

وفي هذه الأثناء نقصت المؤن الغذائية وأعلاف الحيوانات من الخيل والجمال في جيش محمد القاسم ، وعندما عاد السمني من زيارة داهر بن جج بعد ستة أيام ، بعث رسولين محملين بالغذاء والأعلاف إلى محمد القاسم ومعهما رسالة يقول فيها : أنا ومن معي من الخدم

---

(١) ولهار منطقة عشبية خضراء في منطقة بروري ، وكلمة ولهار كلمة سندية قديمة تشير إلى منطقة المراعي المنخفضة المليئة بالأشجار والأعشاب ، ومن الممكن تحديد موقع بروري ومطابقته مع بولاري التي هي الآن محطة لسكك الحديد وتلي كوتري باتجاه كراتشي ، فإلى الشرق منها هناك منطقة خضراء واسعة مليئة بالأشجار وتمتد حتى المجرى الحالي لنهر السند ــ الذي لم يكن آنذاك موجوداً ــ وإلى ما وراء نهر السند باتجاه الأعالي حيث حيدر أباد (نيرون) ويقدر أنه عندما وصل محمد بن القاسم إلى سوّاد نيرون لم تكن مياه فيضان نهر السند قد وصلت إلى هناك .

والحشم والرعية في خدمة دار الخلافة، ونحن نقيم هنا بفضل بركات الحجاج بن يوسف، ولما كنتُ غائباً عن البلد ترددت الرعية وأغلقت أبواب المدينة، ثم فتح السمني باب المدينة وأخذ يبيع ويشتري البضائع مع الجيش الإسلامي.

فلما رأى ذلك محمد القاسم، بعث برسالة إلى الحجاج يذكر فيها وداعة ووفاء وطاعة أهل نيرون، فأجابه الحجاج برسالته قائلاً: حاول جهدك أن ترفّه عن أهل المدينة، وأن يكون أملك من كرم الله تعالى بحيث أنك أينما وضعت قدمك المباركة وحللت في البلاد، منحك الله بفضله النصر والظفر والفتح المبين، وأعطِ الأمان لكل من طلبه، ومَن انضم إليك من علية القوم فأكرمه، واحترم مكانته ومنزلته، واجعل العقل دليلك في كل تصرف حتى يثق أمراء وكبار النواحي بقولك وفعلك، والسلام.

ثم أرسل محمد القاسم كبار حاشيته ورجالاته إلى حصن نيرون[1] قائلاً: لقد أثر فينا إغلاق أبواب حصن نيرون، ولكن بعد تقديم الاعتذار من قبل والي المدينة، فقد سَكَّنَ غضبنا، ونحن الآن نقدر لطف وإكرام ذلك السمني الوالي، وعلى هذا فإنه يجب على مقدّم الدولة (بهندركو) الراهب السمني لنيرون أن يتفضل إلى مقابلتنا ونحن لا نحمل له أية ضغينة أو حقد.

مجيء الراهب السمني إلى محمد بن القاسم حاملاً الهدايا والتحف

وفي اليوم التالي وعندما بزغت الشمس وجاء الصباح المفعم بالمحبة، توجه الراهب السمني مصحوباً بخدمه وحشمه وتحفه وهداياه الوافرة إلى محمد بن القاسم، وحظي بشرف

---

(١) إن هذه الإشارة بإرسال محمد بن القاسم مبعوثيه إلى مدينة نيرون المحصنة عندما كان معسكراً في بروري تعطي برهاناً أكثر إيجابية بخصوص مطابقة نيرون مع حيدر أباد، وكان حصن نيرون يقع في المكان نفسه الذي يقع فيه الحصن الحالي الذي بناه ميان غلام شاه عباسي حاكم السند في عام ١١٨٢ هـ/١٧٦٨ م.

وقد سجل مير علي شير قانع (تحفة الكرام ـ ط. دلهي ـ مطبعة الناصري: ١٧٧/٣) وهو مؤرخ كان معاصراً لما رواه، أن الحصن الحالي في حيدر أباد قد أسس على موقع نيرون هذا وأطلق على هذا المكان في تواريخ السند والمدونات الأخرى اسم «نيرون كوت».

رضاه، ثم فتح باب الحصن واستضاف محمد القاسم، ووزع الغلال على الجيش، ولما استقر محمد القاسم في المدينة، هدم معبد الأوثان وبنى مكانه مسجداً، وعيَّن إماماً للجامع، وبدأ الناس زرافات يؤمُّون المسجد للصلاة.

وبعد عدة أيام توجه محمد بن القاسم إلى حصن سيوستان الذي يقع على قمة جبلٍ إلى الغرب من مهران، وكان محمد بن القاسم يتوقع أن يتم فتح هذه المدينة بعون الله على يد الجيش الإسلامي.

خبر فتح سيوستان وأطرافها والاستيلاء على حصنها

بعد أن انتهى محمد بن القاسم من ترتيب القضايا والمهام في مدينة نيرون، توجه مع الراهب السمني إلى مدينة سيوستان وكان يتقدم منزلاً منزلاً حتى وصل إلى مكان يُدعى (موج)[1] يبعد ثلاثين فرسخاً عن مدينة نيرون، وكان في مدينة سيوستان راهب (سمني) له

ووفقاً لما ذكره مير علي شير قانع أطلق على نيرون اسم «كوت» بعد استيلاء المغول على السند عام ١٥٩٢م خلال فترة حكم الإمبراطور أكبر، عندما أعاد حيدر قالي إسكان المكان وإعماره بشرياً، فنال اسمه الجديد منه.

(١) في هذا إشارة إلى وجود قناة كانت مليئة بالمياه المتدفقة، فقد كانت الفترة فصل الرياح الموسمية والطوفان، وكلمة موج كلمة عربية الأصل، وهذا يعني أن المياه كانت تتدفق بسرعة وغزارة، ويحتمل أن المعني هنا سيل روني وكان يصب قرب مدينة سان ولربما كان هذا السيل يصرف مياه أمطار تلال بهاجو ثورو في فرع أرال من نهر السند، وكان يتفرع في العصور القديمة من قمة الدلتا الشمالية (شمال فرع روهري ــ سوكور الحالي) وكان السبب في الازدهار الزراعي لمنطقة موهنجو دارو، وقد تغير هذا المجرى فأدى إلى ملوحة وجفاف مصب الأرال الغربي.

وموج كما يستخلص من النص لم يكن موقعاً بعيداً جداً عن سيوستان وكان يقطن فيه الرهبان البوذيون، وفيه أبرموا الصلح مع محمد بن القاسم، ويرجح أن هذا المكان هو لَكيّ الحالية، فقد كان فيه أديرة بوذية ومكان حج بالنسبة للهندوس وصار مقراً للأولياء المسلمين.

وينساب أرال حالياً إلى ما وراء تلال لكيّ وعلى المرء أن يعبر منطقة اتصاله مع بحيرة منشار قبل الوصول إلى مدينة سيهوان (سهبان في فتوح البلدان: ٤٢٥) وتنضم مياه فيضان نهر السند في فصل الرياح الموسمية (تموز ــ آب) إلى أرال وتغمره، وكان نهر السند في القرن الهجري الأول/السابع م في مكان أبعد إلى الشرق.

وعندما كان محمد بن القاسم متوجهاً من نيرون إلى سهبان لم يكن قد عبره، وإنما عبر سيلاً في التلال أو قناة من أقنية نهر السند كانت تنساب بشكل مواز لعمود النهر وعلى جانبه الغربي (الأيمن) وعبر محمد بن القاسم هذا ←

أتباعه ورعاياه، أما المدينة نفسها فكان يحكمها (بجهرا بن جندر) وهو ابن عم داهر ابن جج.

فاجتمع الرهبان السمنيون وذهبوا إلى بجهرا وقالوا له: إننا جماعة من النساك وديننا دين السلامة والعافية ولا يجوز القتال والحرب في عقيدتنا، ونحن ضد إراقة الدماء، وإنك تجلس في أبراجك العالية، ونحن نخشى أن يظفر هؤلاء بنا فينهبوننا باعتبارنا أتباعك، ويقتلوننا ويسلبوننا أموالنا، ونحن نعلم بأوامر دار الخلافة، والأمير الحجاج القائل: من طلب الأمان أعطوه الأمان، وإذا وافقت ورأيت من المصلحة أن نكون واسطة خير بينكم، وتأخذ منهم المواثيق بالأمان؟ ونحن نعلم أن العرب أهل الوفاء، ويفعلون ما يقولونه بلسانهم.

لكن بجهرا بن جندر لم يستمع إلى أقوالهم ونصيحتهم واستعد لقتال محمد بن القاسم، أعلن التعبئة والاستعداد لذلك.

ثم أرسل محمد بن القاسم بعضاً من أصحابه لاستطلاع الأحوال ومعرفة إن كانوا موافقين على الصلح والطاعة أم منافقين متعنتين وحينما علم أن جماعة بجهرا يستعدون للحرب، استعد هو الآخر لقتالهم فنصب المجانيق وهيأ الفرسان والرماة وبدأ بحصار مدينة سيوستان.

معركة سيوستان

لما بدأ الرماة بضرب المدينة بالمنجنيق والسهام والرماح توجه الراهبان السمنيان إلى بجهرا[1] وقالا له: إن جيش محمد القاسم أقوى بكثير من جيشك ولا يمكنك مقاومته وينبغي عدم هدر النفس والنفيس في سبيل التعنت والاستبداد بالرأي، ولكنه لم يصغ لهما.

الفرع ليمضي إلى سهيان، ومن الواضح أنه عبره إلى الجانب الغربي، أي إلى تلال لكيّ حيث كانت المدينة البوذية قائمة، وكان اسمها في النص المطبوع من البلاذري (٤٢٥) سريدس، ويبدو أن تصحيفاً لحق هذا الاسم وأنه «سيويس» وهو كما يبدو اسم مستوطنة قديمة للسيثيانيين، الذين كانوا يحكمون هذه المقاطعات الواقعة غربي السند ومن ثم أصبحت تدعى «سيوستان» أي أرض السيثيانيين (انظر القانون المسعودي للبيروني ـــ ط. حيدر أباد الدكن ١٩٥٤ ـــ ١٩٥٦: ج ٢ ص ٦١).

(١) كان بجهرا ابن أخ لداهر، ووجه محمد بن القاسم رأس هجومه نحو باب الحصن الكائن إلى جانب الصحراء، وما يزال الجانب الجنوبي لسيهوان مليء بالكثبان الرملية المبعثرة حتى الآن، وقام بهذا لأن مياه الفيضانات من أمطار الرياح ←

فأرسل الراهبان رسولاً إلى محمد القاسم يحمل رسالة منهما يقولان فيها: إن الزراع والصناع والتجار لا يؤيدون بجهرا وأنه بجيشه وعدته لن يستطيع أن يقف أمام جيش المسلمين فأمر محمد بن القاسم بمواصلة القتال ليلاً ونهاراً، ولما تأكد بجهرا من الهزيمة وتضييق الحصار عليه وعلى جيشه، فر من الباب الشمالي في ظلام الليل، وعبر النهر متوجهاً إلى بودهيه التي كان يحكمها آنذاك كاكه بن كوتل وجاء الراهب السمني بهكو من حصن سيويس[1] وأهالي وأعيان بودهيه إلى استقباله بعد أن علموا بلجوئه إلى مدينتهم.

السيطرة على مدينة سيوستان

بعد هروب بجهرا وإعلان الرهبان الطاعة والولاء لجيش المسلمين، استقرت الأوضاع واستتب الأمن والأمان وبدأ العمال والنواب بأمر من محمد بن القاسم القيام بمهام الولاية والنواحي، ثم صادر الجيش الفاتح جميع الأموال والذهب والفضة والنقود والأملاك من المعاندين العصاة الذين وقفوا في وجه تقدم الجيش الإسلامي فيما عدا الرهبان الذين أعلنوا الولاء قبل وصول الجيش الفاتح، ثم وزعت الغنائم على الجيش بعد إخراج الخمس وإرساله إلى دار الخزانة للحجاج. كما أرسل محمد القاسم الهدايا والعبيد والسبايا إلى الحجاج واستقر في المدينة عدة أيام أخرى.

ثم توجه بعد ذلك إلى حصار سيويس ووقف ملك سيوستان وبودهيه في وجه محمد القاسم لقتاله ومحاربته.

وصل محمد القاسم في تقدمه إلى مدينة سيويس إلى موضع يقال له «بندهان» على ضفة «أبي ـــ كنبه» وعسكر هناك استعداداً للهجوم، وكان أهل المنطقة من الكفرة المتعنتين،

الموسمية قد ارتفعت بشكل كبير كما أن مياه فيضان نهر السند اندفعت إلى داخل قناة أرال من الجانب الشمالي للحصن.

(١) حصن سيويس هنا الآن عاصمة بلاد بودهيه، وكان يقع على شاطئ بحيرة «أبي ـــ كنبه» التي هي بحيرة «مانشهار» العظيمة إلى الشمال من سيهوان في مقاطعة دادو الحالية، وسيرد بعد قليل أن محمد بن القاسم توقف أثناء تقدمه إلى سيويس في بندهان على ضفة أبي كنبه، ومن المعتقد أن حصن سيويس كان على مقربة من شاه حسن الحالية على الضفة الغربية لبحيرة مانشهار.

ولما رأوا جيش الإسلام يتقدم في المنطقة ، تفرقوا في الأرياف والبوادي لتأليب الناس وحثهم على إراقة الدماء.

مجيء الأعيان إلى كاكه كوتك

جاء الأعيان وأشراف المدينة إلى كاكه كوتك الذي كان من عائلة من علية الناس يقال لها (أودندوهار) ليتدبروا الأمر وليطلبوا منه بأن يسمح للجيش أن يلقن المهاجمين المسلمين درساً لن ينسوه ويقلب نهارهم ليلاً بسفك دمائهم ، فقال كاكه : أرجو أن يكون ذلك ، بَيْدَ أن الرهبان والمنجمين أخبرونا بأن هذه المنطقة وأطرافها سيتم فتحها على يد الجيش الإسلامي وقد حباهم الله بالمكانة والمنزلة الرفيعة.

وبعد مناقشة طويلة قرروا مهاجمة جيش المسلمين على حين غرة ، فهيؤوا ألف فارس مقاتل شجاع مدججين بالسيوف والدروع والرماح ، ونصبوا على رأسهم قائداً اسمه (بهيمن) ، وتسللوا تحت جنح الظلام لمقاتلة جيش الإسلام ، ولكنهم وبسبب الظلام الدامس تاهوا في الطريق وانقسموا إلى أربعة ألوية ، ولم يتمكن لواء الميمنة من الاتصال بالميسرة ، ولا المقدمة بالمؤخرة.

وهكذا قضوا الليل في دوامة الضياع واللف والدوران حتى أشرق نور الصباح ، ووجدوا أنفسهم قرب حصن سيويس فرجعوا إلى المدينة خائبين ، وشرحوا الأمر إلى كاكه كوتك ، فقال لهم : ألم أقل لكم إن المنجمين والرهبان قد قالوا إن مصير هذه البلاد سيقع في يد المسلمين ، وإن الهند بكاملها سيتم فتحها من قبل جيش الإسلام ، وإنني سأقوم باستقبالهم.

ذهاب كاكه كوتك إلى محمد بن القاسم واستقباله من قبل نباتة بن حنظلة

وهكذا قرر كاكه كوتك أن يتوجه على رأس وفد من كبار الأشراف والمعتمدين إلى جيش المسلمين لمقابلة محمد بن القاسم.

كما أرسل محمد بن القاسم نباتة بن حنظلة لاستقباله في (طلاية) وجاء الاثنان معاً إلى محمد بن القاسم.

ولما تشرف كاكه كوتك بلقاء محمد بن القاسم، أكرم هذا الأخير وفادته وأجلسه إلى جانبه محترماً معززاً، ثم أخذ كاكه الجناني[1] يتحدث عن تلك الليلة التي أضاع جيشه طريقه إلى جيش المسلمين، ثم رجوعه خائباً إلى الحصن، ثم قال: لقد استخرج المنجمون من دراساتهم بأن هذه المنطقة سيتم فتحها على يد جيش المسلمين، ولما تحققت هذه المعجزة تيقنت أنه القضاء والقدر الإلهي وأنه ليس هناك من يتمكن من الغدر بكم ومقاومة جيش المسلمين، وعليك أن تكون قوي الجنان مطمئناً لأن الله تعالى قد حباك بالعز والظفر على أعدائك، وقد قبلت طاعتك راجياً أن أكون ناصحاً ومستشاراً لك في الأمور وسوف أعمل جهدي لمعاونتك وأن أكون شؤماً على أعدائك من المفسدين.

ولما استمع محمد بن القاسم إلى كاكه كوتك، قام فحمد الله وشكره على آلائه ونعمائه ونصره لجنده، ثم سجد لله خاشعاً، ثم تقدم من كاكه كوتك وأعطاه الأمان مع عشيرته وأتباعه وسأله: أيها الأمير الهندي، ما هي مراسم التشريف لديكم؟ فأجابه كاكه إنها لباس من الحرير والاستبرق وكرسي خاص برسم نائب الملك، وتقديم الأعيان ورؤساء رهبان السمنيين الولاء له[2]، ثم لبس كاكه ذلك الملبس وجلس على الكرسي، فأخذت الوفود من القبائل والأشراف والأعيان الهنود يأتون زرافات لإعلان الولاء والطاعة لأمير البلاد ممثل دار الخلافة وجيش الإسلام.

أما المجموعات التي أعلنت عصيانها فإن محمد بن القاسم أوكل أمرها إلى عبد الملك ابن قيس العبدي الذي خرج على رأس فيلق من المقاتلين المسلمين الأشداء لملاحقة العصاة والقضاء عليهم، وكان في صحبته كاكه كوتك الذي نال من الغنائم الشيء الكثير من النقود والأقمشة والعبيد والغلمان والغلات، وقد توفرت المواد الغذائية بصورة كاملة لجيش المسلمين.

---

(١) جنان سلالة عرقية انحدر منها كاكه وهي سلالة الشاناه التي كانت تقطن سيوستان وما زالت حتى الآن.

(٢) في الأصل «جامان سمني» وجامان جمع «جام» وهو لقب من أصل فارسي معناه زعيم أو رئيس، وما زال هذا اللقب الدال على سمو المكانة مستخدماً حتى الآن.

وبعد مكوث محمد بن القاسم هناك بعض الوقت، توجه نحو حصن (سيويس) وقاتل لمدة يومين حيث نصره الله تعالى على أعداء الله، وتم فتح المدينة وانهزم جيش المشركين شر هزيمة.

أما بجهر بن جندر بن سيلائج ابن عم داهر وأصحابه فقد أعمى الله قلوبهم، وازدادوا عصياناً وتعنتاً وكفراً، والتحق به المنهزمون من بودهيه، وذهب بعضهم إلى حصن (بهطلور) الواقع بين (سالوج) و(قندابيل)، ومن هناك قدموا طلباً للأمان من جيش المسلمين لأنهم كانوا مخالفين ومعارضين لداهر بن سيلائج، وأعلنوا ولاءهم وطاعتهم، كما أرسلوا ألف درهم من الفضة وبعض الرهائن إلى سيوستان.

وصول رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم يأمره فيها بعبور نهر مهران وقتال داهر

بعد أن استقرت الأوضاع وتم توزيع الأموال والغنائم والأرزاق، عمد محمد بن القاسم إلى تعيين ودّاع بن حميد البحري، وعبد الملك بن قيس بن الجارود ممثلين عن دار الخلافة على المنطقة لنشر الأمن والرفاهية بين الرعية، وبعدها وصلت رسالة من الحجاج يأمره فيها بترك المنطقة والرجوع إلى نيرون وعبور نهر مهران لمقاتلة داهر، طالباً من الله عز وجل النصر لجنده الميامين مذكراً إياه بأنه إذا تم ذلك الفتح والقضاء على داهر بإذن الله فإن جميع المناطق ستدين بالطاعة والولاء لدين الله وجنده.

وصول الجيش العربي مرة أخرى إلى نيرون

وبعد أن قرأ محمد بن القاسم رسالة الحجاج، توجه مباشرة بجيشه المؤمن برسالة محمد ﷺ إلى نيرون فقطع المنازل والمراحل حتى وصل إلى حصن يقع على جبل نيرون، فعسكر هناك، وكان بجوار الجبل شلال وجدول تجري فيه المياه العذبة الصافية التي هي أعذب من عيون العشاق وأحلى من رحيق اللقاء، فجلس هناك محمد بن القاسم وكتب الرسالة التالية:

رسالة محمد بن القاسم إلى الحجاج بن يوسف يعلمه فيها عن الأوضاع

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى المقام الرفيع والأمير الجليل العالم المنيع، تاج الدين، مغيث العجم والهنود الحجاج ابن يوسف، من خادمه محمد بن القاسم:

بعد تقديم فروض الطاعة والولاء والعبودية أعلمكم بأن المخلص لمقامكم مع جملة أمرائه وحشمه وخدمه وجموع جيوشه وجنود الإسلام كلهم في صحة وعافية بحمد الله، وإن الأمور مستقيمة والسرور والحبور مستديمان، وليصل لعلمكم بأن العبد لله، بعد طي الفيافي والقفار، وعبور السهول والجبال، والمنازل المهلكة، والصحارى في بلاد السند وصل إلى حافة نهر سيحون، الذي يدعونه (مهران)، وتم فتح الأراضي الواقعة في أطراف بودهيه مقابل الحصن وعلى حافة النهر، وقد تمت بيعة بعض الأهالي، وقتل وهزم المعاندون، ونهبت أموالهم.

ولما وصلت رسالة الأمير الحجاج التي ذكر فيها ضرورة الرجوع إلى نيرون، رجعنا فعلاً إلى حصن جبل نيرون، وهذا الحصن أقرب إلى دار الخلافة: ومن المنتظر بعون الله تعالى ورعاية الخلافة، وبحسن طالع الأمير المعظم فإن الحصون الحصينة سيتم فتحها إن شاء الله، وسيتم ضبط المدن والخزائن والسيطرة عليها بإذن الله.

كما أنه تم في الوقت الحاضر استسلام سيوستان وسيويس[1] وفرَّ ابن

---

(١) هذا أهم جزء في رسالة محمد بن القاسم التي أخذت شكل تقرير، حيث أشار إلى فتح سيوستان، فقد كان محمد بن القاسم قد فتح كاكاراج العاصمة الجنوبية لبودهيه، ومن ثم توجه شمالاً وأخضع البلاد الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من نهر السند (حالياً مقاطعات لاركنه وشكرابور، وكجي، وناصر أباد، وسكوّر) وذكر البلاذري (٤٢٣) من قبل أن مجاعة قد أخضع بعض قبائل قندابيل (جندافا) العاصمة الشمالية لبودهيه، وأكمل فتحها أخيراً من قبل محمد ابن القاسم.

وجرى إرسال هذه الرسالة بعدما أتم محمد بن القاسم بنجاح حملته الكبرى إلى أقصى الحدود الشمالية ثم عاد باتجاه الجنوب (إلى جانب يعقوب أباد وشكرابور، وسكور) إلى أن وصل إلى ضفاف نهر السند مقابل حصن بغرور (فتوح البلدان: ٤٢٦) وكان هذا الحصن قائماً على الجانب الآخر للنهر وتابعاً لداهر، وتحت السيطرة المباشرة للعاصمة أرور، واسم بغرور الآن بكهر، ويقع حالياً في جزيرة في منتصف النهر، ومعنى كلمة بعرور هبة النهر

عم[1] داهر وأعيانهما، وأسلم جميع الكفار والمعاندين وأقيمت المساجد مكان معابد الأصنام والكفر، وبُنيت المنابر لإلقاء الخطب وإقامة الأذان والصلاة في مواقيتها، وحتى يُذكر فيها اسم الله عز وجل مع التكبير والتذكير كما نص عليه القرآن المجيد:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[2].

وتم إزالة آثار تلك الأوثان والأصنام بعون الله ونصرته وثقته في قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[3] وخُذِلَ عبَّادُها وشياطينها وأحزابها وذهبوا إلى دار الجحيم وآلوا إلى عذاب شديد، وبئس المصير.

ونحن الآن نعسكر بجوار حصن يسمى بسد الأسكندر الرومي، الذي يفتخرون به مستمدين حولنا وقوتنا من الله العلي القدير.

وقد كتبتُ هذه الرسالة إلى مقامكم العالي الرفيع منتظراً أوامركم النافذة والمطلقة، وأنا على استعداد تام لتنفيذها ولا بد من السير بما يشاؤه الله تعالى.

ونحيطكم علماً يا سيدي الأمير بأن في الطرف الآخر من نهر مهران يوجد ملك من ملوك داهر، يحكم على جزيرة «بحر كشها» ويدعى «بسايه راسل» وهو أحد أبناء واحد من خواص داهر وأعيانه، وملوك الهند والسند قد بايعوه جميعاً وبينهم مواثيق موثّقة[4].

وقد علمنا من بعض أهل الديبل، أن ذلك الملك يميل إلينا وأن بقية الأمراء والأكابر

(بغ = هبة + رور = نهر) كما أن معنى كلمة «أرور» مدينة النهر، ففي الفارسية «رود» هو النهر، وهو في السندية «أرور أو ألور» ولم يكن نهر السند يفصل المدينتين التوأمين «أرور وبغرور» بل وقعتا إلى جانب بعضهما واحدة أعلى من الآخرى، وكان محمد بن القاسم معسكراً قبالتهما على الضفة الشمالية لنهر السند الذي فصله عنهما.

(١) الإشارة هنا إلى بجهرا ابن عم داهر.

(٢) سورة الإسراء — الآية: ٧٨.

(٣) سورة آل عمران — الآية: ١٦٠.

(٤) وردت هذه الفقرة بالأصل بشكل مضطرب وقد لحقها نقص جعل من الصعب فهمها ويمكن شرحها كما يلي:

آ — راسل هو ابن بسايه سربند، وكان بسايه سربند من المقربين والموثوقين من قبل الملك داهر، وهو المتولي لحصن بيت الواقع في شرقي مهران في جزيرة الدلتا المجاورة لبحر كشها.

ب — كان له ولدان اسم أولهما راسل والآخر موكه.

يريدون مرضاته وهم حريصون على رضاه، وإذا وفقنا الله تعالى في تدبير الأمور والطاعة له، فإنه تعالى سيسهل علينا عبور مياه مهران، وفتح الطرف الثاني بإذن الله.

وصول رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم.

وصلتنا رسالة ولدنا العزيز الكريم محمد بن القاسم أدام الله تمكينه، وهي تحمل لنا كل تقدير واحترام واعتبار، وقد اطلعنا على جميع الأمور التي شرحها في رسالته.

ولدي العزيز: ماذا جرى حتى لا تتخذ بنفسك الرأي والتدبير والعقل والتمييز والقرار؟ يا ليتك كنت قد قاتلت ملوك المشرق وقهرتهم ودمرتهم، لماذا عجزت عن ذلك؟ ألا يمكنك أن تكفينا شرهم؟ والأمل أنك ستدفع كيدهم، فأولئك الكفار، يرجون من جيش الإسلام أن يكون في موقع الدفاع لا الهجوم، فليكن قلبك قوياً، ومن أجل غايتك السامية، ابذلْ كل جهدك ومالك، أنعم على مواليك، ووزع عليهم الأموال والعطاء، وكل من اُلتَمَسَكَ في أمر لا تُخيِّب أمله وأجِبْهُ إلى طلبه.

واعلم أن الرئاسة تحتاج إلى أربعة أمور: الأول المداراة والمسامحة والمواساة، والثاني بذل المال والعطاء، والثالث الرأي الصواب في معارضة الخصوم، ومعرفة مزاج الأعداء، والرابع الرعب والمهابة والشهامة والقوة والشوكة، وبهذه المزايا يمكنك الهيمنة على قلوب الأحباب والأعداء وإذا طلب الملوك منك سماحاً فأعطهم ذلك مع كتابة المواثيق المطلوبة.

وإذا أردت أن تبعث أحداً برسالة فلا بد أن يكون ذا عقل ودين وكياسة، وأمانة وثقة حتى لا يلحق بالإسلام ضرر من كلامه وتصرفاته، وعليك أن تحمي الأنصار والأصحاب من غوائل الحيلة والغدر والمكر الذي يمارسه الأعداء، كما عليك الالتزام بشرائط الحزم واليقظة في تدبير الإمدادات، وأن تحترز من داهر كثيراً.

وإذا أرسلت أحد أتباعك، فانصحه أن لا يخالطه وأن لا يأتمن مجلسه، وانصحه مراراً وتكراراً وألزمه أن لا يقرأ الرسالة بمفرده مع داهر بل يجب أن يكون ذلك في حضور الأعيان

والأشراف وعلية القوم، وعليه أن يستمع إلى جوابه بكل دقة وصفاء ذهن، وأن لا يرغب في شيء أو يداهن أحداً.

كما عليك أن توصي الرسول بضبط المواعيد، وأن تعلمه بأن الخلافة والولاية والإمارة تعتمد على أداء أقواله بالصورة الحسنة اللازمة وأن يكون رسول المسلمين طاهر الدين والسريرة ليتكلم بكل مهارة وبدون تقصير، ولكي يجلب الآخرين إلى الإيمان.

وكل من آمن بوحدانية الله تعالى وجاء إلى الطاعة المحمدية، عليك أن تحافظ على ماله وبلاده وأرضه وضياعه، أما المعاندون المتكبرون الذين لا يأتون إلى طاعة الله ورسوله فعليك أن تقسو عليهم وأن تبطش بهم وتقطع دابرهم، مع إعلان الحرب عليهم.

أما بالنسبة لعبور مهران فلا تجبر أحداً على ذلك، وقل لهم بالحسنى: إننا قطعنا هذه المسافات من أجل الوصول إلى الأعداء ونشر راية الإسلام، وعلينا أن نعبر النهر مهما بذلنا من جهد وتضحيات، وعلينا أن نقاتل الأعداء على أرض ثابتة رجلاً لرجل وفارساً لفارس، وعلى هذه الطريقة توكل على الله تعالى في قتالك إياهم، وتمسك بيدك بالعروة الوثقى حتى ينكشف قضاء الله وقدره من خلف السُّتُر، ويتم تنفيذ الأمر الرباني.

أما إذا خيَّرك الأعداء بين أن يعبروا هُم النهر أو تكونوا أنتم العابرون فلا تعطهم الفرصة، وقل لهم بكل حزم: إننا سنكون نحن العابرون لتُلقي الرعب والخوف في قلوبهم وليعلموا أن الإسلام لو لم يكن بتلك القدرة الهائلة والإيمان العميق لما جاء إلى بلادهم يقاتلهم بها وعلى جيشك وأصحابك أن يتوكلوا على الله، وأن يثبتوا أقدامهم ويشدوا عزمهم في القتال لنيل رضا الله تعالى.

كما عليك أن تختار مكان العبور، حتى يكون ثابتاً تحت أقدامكم، وبعد العبور عليك تعيين الميمنة والميسرة والساقة والقلب بسرعة فائقة، وأرسل المشاة أولاً ثم ليلحقهم الآخرون. والله تعالى أعلم.

ولما وصلت هذه الرسالة إلى يد محمد بن القاسم، اتخذ قراره وصمم على عبور نهر مهران.

خبر وصول محمد بن القاسم إلى حصن نيرون إلى داهر(١)

جمع راي داهر الحكماء والمنجمين والفلاسفة وقال لهم: لقد وصل إلى سمعي نبأ وصول محمد بن القاسم إلى قرب حصن نيرون، وهو على رأس جيش جرار، ومستعد للحرب والقتال، وعليكم الآن أن تستخبروا من كتب التأريخ والتنجيم ومن طالع الأيام وسالف الزمان عن المستقبل واحتمال ما يمكن أن يحصل.

بعد المدح والثناء والوصف الجميل، قال المنجمون: أبقى الله الملك داهر، لقد وجدنا في كتب التأريخ والتنجيم وعن المنجم الكبير «جاماسب» الحكيم أنه في شهور عام اثنين وتسعين يقع حصن نيرون بيد جيش الإسلام، وفي عام ثلاثة وتسعين تقع جميع الهند والحصون وحتى سد الإسكندر تحت ملك المسلمين، وإن ذلك الفتح سيتم على يد محمد بن القاسم، وذلك هو الوعد المبين.

عند ذلك دعا الملك داهر الراهب السمني بهتدركو الذي كان من قبل عاملاً على إيالة نيرون، وقال له: عليك أن تذهب إلى حصن نيرون حتى تستعلم حالهم، وذهب الراهب السمني إلى حصن نيرون مستصحباً معه خمسة أفراد من أتباعه للقاء جيش المسلمين وقائده محمد بن القاسم، وكانت معه رسالة الحجاج التي يذكر فيها إعطاء الأمان لمن أراد الأمان، فلقيه نباتة بن حنظلة وأوصله إلى محمد بن القاسم فقال هذا الأخير له: إننا نطبق أوامر الحجاج ونواهيه، ولكن لما وصلنا إلى حصن نيرون كنت قد أقفلت الأبواب مما أثر علينا تأثيراً كبيراً، وإن إغلاق الحصن لم يكن عملاً حسناً حيث أن الغلة والأغذية نقصت عند الجيوش.

فاعتذر الراهب وقال: لقد كانت مصالحنا بيد الملك داهر، ولم أكن أنا في الحصن،

---

(١) في هذا ما يشير إلى وصول محمد بن القاسم للمرة الثانية إلى نيرون، فهو كان قبل ذلك في نيرون، وبعدما أبرم صلحاً مع رؤساء المدينة تابع سيره من هناك إلى سيوستان ثم عاد نيرون بعد فتحه لبودهية وسيوستان، بيْدَ أننا نجد المصنف يروي تحت هذا العنوان التالي أخبار وصوله للمرة الأولى إلى نيرون، لذلك ينبغي قراءتها مع ما سلف ومرد هذا إلى اضطراب لحق النص لسبب ما.

وكان الناس مترددين بشأن وصولكم، إنما لما أتيت أنا، فقد مهدت طريق الولاء والطاعة والإخلاص وإنني قائم بما تريده وترضاه.

تشريف وتقدير راهب نيرون السمني من قبل محمد بن القاسم

لما سمع محمد بن القاسم حديث الراهب السمني أعزه وأكرمه وقبل عذره. ثم توجه الراهب عائداً إلى الحصن، وفتح أبوابه وجلب الهدايا والتحف إلى محمد بن القاسم وأخذ أفراد الجيش بالدخول فرادى إلى الحصن للبيع والشراء.

وفي اليوم الثاني ركب محمد بن القاسم راحلته يحف به قواد جيشه وأصحابه المقربون، ودخل حصن نيرون، وهدم معبد الأصنام وأقام مكانه مسجداً يذكر فيه اسم الله، وصلى ركعتين حمداً لله على نصره لجنده المسلمين.

ثم جعل شخصاً من قبائل ذُهَل وكان من أهل البصرة والياً وممثلاً للمسلمين في المدينة، ثم أخذ معه ذلك الراهب ليعبر النهر معه، وفي هذه الأثناء جاء الرهبان السمنيون الكبار و«راسل بن سايه» وبعض رجالات حصن بيت وطلبوا الأمان فأجابهم محمد بن القاسم إلى ذلك.

ثم[1] توجه محمد بن القاسم إلى حصن (أشبهار)[2] وكان ذلك في شهر محرم الحرام في

---

(١) كان على المصنف أن يضع هنا عنواناً جديداً حول توجه محمد بن القاسم إلى حصن أشبهار.

(٢) سار محمد بن القاسم من نيرون (حيدر أباد) باتجاه الجنوب نحو حصن أشبهار، وكان واقعاً في المنطقة الغربية لضفاف نهر السند، وتدل تركيبة هذا الاسم بإضافة «بهار» إلى آخره على أنه كان فيه «وهار» أو دير بوذي، ويرجح أن الموقع البوذي هو «سود هيران ـ جا ـ ثول» أو «سود هيران ـ جو ـ دارو»، والأثر البوذي الوحيد المتبقي إلى الجنوب من حيدر أباد هو «بوده ـ جو ـ دارو» مع بقايا معبدين بوذيين صغيرين، بيد أن حجم هذين المعبدين وما حولهما لا يتوافق مع ما جاء حول حجم أشبهار.

هذا وتقع «سودهيران ـ جو ـ دارو» على مسافة ثمانية عشر ميلاً إلى الجنوب من حيدر أباد (نيرون) بالقرب من قرية «سعيد بور» إلى الغرب من بلدة «تاندو ـ محمد خان» عند ملتقى القناتين القديمتين العائدتين لنهر السند وهما: «جووني، وبهوليل»، ومن هنا اعتادت قناة الغمر «جاحاه واه» أن تتفرع عن جووني، وعلى هذا قيل إن أطلال

سنة ثلاث وتسعين للهجرة المحمدية[١]، ولما وصل إلى جوار الحصن، عسكر هناك ووجده حصناً حصيناً، وقد صمم أهله على الحرب والقتال، وحفروا خندقاً حوله وجاؤوا بالفلاحين والقرويين والزط من أطراف الحصن وأدخلوهم فيه ليزداد عدد مقاتليهم.

وواصل محمد بن القاسم حصاره، وضرب المدينة بالمنجنيقات واشتدت الحرب مدة أسبوع شعر أهل الحصن بعدها بالضعف والوهن، وبقوة الجيش الإسلامي، فأعلنوا الاستسلام وطلبوا الأمان، وطبقاً لرسالة الحجاج فقد أعطاهم محمد بن القاسم الأمان فأعلنوا الطاعة والولاء والعبودية.

أما الباقون الذين كانوا يساعدون المعاندين والمقاتلين من الكفار فقد جاؤوا بالأموال والتحف وفتحوا أبواب الحصن، فدخل جيش الإسلام المنتصر المظفر، وأخذ محمد بن القاسم مفاتيح المدينة ووضعها بيد أتباعه المخلصين وعين شحنة للمدينة، ثم بقي مدة في الحصن وبعدها توجه إلى شواطئ مهران حتى وصل (راور) على الجانب الغربي وعسكر هناك.

معركة محمد بن القاسم على شط مهران

لما نزل محمد بن القاسم بشط مهران، قاتله (جاهين) ملك منطقة بيت[٢] ولما وصل خبر وصول محمد بن القاسم إلى حدود (أرور) و(جيور) إلى داهر، سأل: أين وصل

أشبهار واقعة على مرتفعات جاجاه، وبالتحديد عند نهاية سفوح مرتفعات «جانجو ــ تكر» وتتحدث التقاليد المحلية عن ماضٍ عريق تمتعت به «سود هيران» وتربط هذا الماضي بملك نيرون، هذا وأطلال هذا الموقع واسعة، وفيها برجان بوذيان يبعد كل منهما عن الآخر مسافة ميلين.

(١) لا شك أن هذا التاريخ غير صحيح فمن غير المعقول أن يقطع محمد بن القاسم مسافات بعيدة ذهاباً وإياباً ويفتتح عدة مدن في أشهر قليلة، ومن غير المعقول أن نراه في الديبل ثم في أشبهار في شهر محرم نفسه من عام ثلاثة وتسعين.

(٢) تعني كلمة «بيت» بالسندية «جزيرة»، وسبقت الإشارة إلى حصن جزيرة بيت، وكانت ولاية بيت تابعة لداهر وكان عليها بساية سربند، وكان حاكماً وراثياً لها، ويبدو أن داهر عين جاهين الموثوق من قبله حاكماً فوق بسايه سربند بغية التصدي لمحمد بن القاسم أثناء عبوره لنهر السند، ومنح محمد بن القاسم حكم «بيت» إلى «موكه بن بسايه» الذي صار حليفه ضد داهر، وعندما سمع داهر بمحالفة موكه لمحمد بن القاسم قام بتعيين ابنه جيسيه بن داهر للسيطرة على قلعة بيت الاستراتيجية، وأمره بعدم الثقة بالحاكم القديم «بسايه»، ثم توسل «راسل بن بسايه» وأخو «موكه» الأكبر إلى داهر ليمنحه ملك حصن بيت، فاستجاب بعد لأي.

العرب ؟ فقيل له : إلى حدود جيور ، فقال : يبدو أن غلبة العرب هي استيلاء موفق وناجح .

وكان موكه بن بسايه قد بعث برسالة إلى محمد بن القاسم يقول فيها : إن ولاية قصبة وجورته[1] هي تحت إمرتك ، وجميع الأراضي والنواحي هي ملكك .

معرفة داهر ببيعة موكه بن بساية

ثم جاء شخص إلى داهر وأخبره بأن الملك موكه بن بسايه قد بعث برسول إلى محمد ابن القاسم وبايعه على الولاء والطاعة ، وأنه بعث بالرسالة التالية إلى محمد بن القاسم :

إن ما تفضلت به وسمعناه هو الحق وسنبذل قصارى جهدنا للقيام بالواجب ولنا رغبة صادقة في الخدمة والولاء حيث نعتبر رضاك من أهم آمالنا ، والطاعة واجبنا أما الملوك الآخرون فقد عقدوا المواثيق المغلظة ، ولكنهم نكثوا العهد ، وإن بلاد السند مأوانا ومسكننا ، وهي موروثة عن الآباء والأجداد ، وراي داهر من أقربائنا ، إنه ملك ملوك الهند ، وإنه كلما وصل إلى درجة أعلى ، أعطانا نصيباً أكبر ، ثم أجزل العطاء ، ونحن في السراء والضراء متساوون ولكننا إذا احتكمنا إلى العقل فسنجد أن هذه الدولة آيلة إلى الزوال ، وأنها ستكون لغيرنا .

---

(١) جاءت هذه الكلمة في بعض المخطوطات « قصة » وهذا ما ورد في رواية البلاذري (٤٢٦) وفي هذه الحالة إن « قصة » هي « كشها » المذكورة من قبل ، هذا ومعنى « قصبة » المركز الرئيسي للمدينة أو حاضرة ولاية أو مقاطعة ، وسيشار إلى قصبة مراراً ، كما سيأتي ذكر صحراء قصبة الكبيرة التي أشير على داهر أن يعتصم بها حتى يتمكن من الدفاع عن نفسه .

وضم محمد بن القاسم صحراء قصبة وحصن بيت إلى موكه ، وعلى هذا وقعت هذه الصحراء وراء دلتا بيت إلى الشرق منها ، وهي بهذا تتطابق مع المناطق الغربية لمقاطعة ثربركار Tharparkar التي تغطيها سهوب ميثي Mithi وديبلو Diplo حالياً .

إن وجورته هي قرية وجوترد (السندية) في سهوب ميثي في منتصف الطريق الرئيسي الذي يصل فيما بين محطة السكك الحديدية في ناوتوت وميثي في الصحراء ، ونظراً لموقعها الاستراتيجي ولتوفر المياه من الآبار المحلية من المحتمل أنها كانت مدينة هامة في الماضي ، ولربما كانت المقبرة القديمة إلى جنوب محطة الباص الحالية على الطريق الرئيسي هي الموقع الأصلي لوجورته القديمة وهناك قرية أخرى اسمها « كسبو » إلى الجنوب في سهوب ناجار باركر Nagar parkar ، ولعل هذا الاسم هو بقايا اسم « قصبة » .

عهد موكه بن بساية

استخرج المؤرخون وفلاسفة الهند الذين عاشوا في هذه المنطقة منذ زمن بعيد بأن جيش الإسلام سيفتح هذه الديار ، وكل من وافاه السعد والحظ ولم يفوت فرصته فإن التوفيق والنجاح سيكون من نصيبه ، ومن فوت تلك الفرصة من يديه ، سيرى مكروهاً وسوءاً .

وقد رأينا بعد المشورة والاحتكام إلى العقل أنه إذا انضممت إليك بلا حرب ولا قتال سأكون موضع الملامة من قبل الخصوم والأعداء وسيلحق العار بعائلتي ، لذا فإنني سأغادر حصن بيت بحجة الزواج من ابنة (رانه ساكرا) وسأتوجه إلى هنالك مع مائة رجل من أصحابي وأتباعي .

وعلى الأمير محمد بن القاسم دام علوّه أن يتلطف ويرسل ألف مقاتل وسياف في أعقابي ليأخذوني عنوة إليه ليبدو الأمر وكأنه عمل حربي فيعذرني الناس ولا يلحق بي العار من أفواه الخلق باعتبار أنه قد غدر بي ، وكذلك حتى لا يظن الملك داهر بي الظنون السيئة .

إرسال نباتة بن حنظلة لتدبير الخطة حسب قول موكه بن بساية

لما وصل الأمر إلى محمد بن القاسم ، صدق ما قاله موكه بن بسايه ، وأرسل نباتة بن حنظلة مع ألف فارس شاكي السلاح ، حسب الميعاد المضروب بينه وبين موكه بن بسايه الذي نزل موضعاً في المنطقة .

ذهاب نباتة بن حنظلة واعتقال موكه مع رجاله

وصل بناتة بن حنظلة وفرسانه الألف إلى المنطقة ، وحاصروا موكه بن بسايه مع رجاله المائة ، واقتادوهم إلى محمد بن القاسم ، فاحتفى به الأمير وأكرم وفادته وأعزه مع أصحابه ، ثم ولاه مقاطعة (بيت) وأعطاه مائة ألف درهم كميزانية لإمارته ، وأنعم على أتباعه بالملابس

والخيام والهدايا، كما ملّك قصبة وجميع الأراضي إلى موكه وأبنائه من بعده، وأصبحت جميع المقاطعة من مضافات ومزارع وحقول ملكاً لهم وأبرم معه العقود الوثيقة، ثم توجه محمد بن القاسم نحو فتح البلاد.

إرسال محمد بن القاسم رجلين من أتباعه إلى داهر

بعد أن عسكر محمد بن القاسم بجيشه الجرار على ضفاف نهر مهران، انتخب أحد كبار الرجال الشاميين مع (مولانا ديبلي) الذي تشرف بالإسلام على يد محمد بن القاسم، ليحملا رسالته إلى داهر، وقال لهما: كل قول يقوله ديبلي وكل جواب يجيبه داهر بن جج، يكتب في محضر أمام الجميع وبحضور حفل الأعيان، وذلك تمشياً مع التوصيات الصادرة عن الحجاج.

ذهاب الرسول الشامي إلى داهر

وصل الشامي وصاحبه مولاي إسلام ديبلي إلى داهر فتقدم ديبلي إلى داهر ولم يحن رأسه، ولم يقدم فروض الطاعة والاستكانة التي كانت سائدة أيام ملوك الهند، حيث كان داهر يعرفه، ثم قال له داهر: لماذا لم تقم بما تفرضه أعرافنا وقوانيننا من إبداء فروض الطاعة والانحناء وتقبيل الأرض وغير ذلك، هل أرغموك على هذا؟.

وأجابه مولاي ديبلي قائلاً: لقد كنت سابقاً عبداً من عبيدك، وكان عليَّ أن أقدم كل الطاعة والخضوع، ولكنني الآن قد تشرفت بالإسلام ديناً، وأنا الآن أحب ملك الإسلام، وليس علي أن أحني هامتي لديك لأنك كافر.

تهديد داهر

فقال له داهر: لو لم تكن رسولاً إلي لعاقبتك شر عقوبة، وقطعت رأسك.

فقال مولاي ديبلي : إذا كان هدفك قتلي فإن العرب سيأخذون بثأري ، وإنهم حتماً سيطالبون بدمي وسيطلبون رأسك دية له .

تقديم الرسالة من قبل الشامي

ثم تقدم الشامي وقال : نحن رُسُل الأمير ، وقد أُمِرْنا أن نقدم هذه الرسالة أمام الملوك والأمراء والأعيان .

فقال داهر : قل ما لديك فإن الرسول هو حامل رسالة أميره وأوامر مولاه ، وعليه أن يؤدي واجبه فقال الشامي :

إن الأمير محمد بن القاسم يقول : إذا استجبت فإن طريقك واسع ولن يصيبك أي ضرر ، أما إذا امتنعت فإن جيش الإسلام سيشق طريقه ويعبر النهر ويأتي إليك مقاتلاً مدمراً هادراً .

تشاور داهر مع وزيره سياكر

اجتمع داهر بوزيره سياكر واستشاره قائلاً : ما رأيك في الأمر يا وزيري ؟ فأجابه الوزير : إنني قد نصحت سيدي الملك مرات ومرات وأشرت عليه بما لزمني أن أشير به ، ولكن كل ذلك لم يُؤخذ به ، وكم من مرة نصحتك فيما يخص القتال والحرب ، ولم تلق نصيحتي آذاناً صاغية ، والآن وبما أنك قد وقعت في الضائقة ، وبالحرب ابتليت فأنصحك أن تترك جيش الإسلام يعبر النهر حتى يتقابل الجيشان .

إنك تملك الأرض والخزائن والسلاح والغلال والهيبة والأُبهة ، بينما العدو قليل العدد والعدة ، وبانقضاء الأيام ستنقص مؤونته شيئاً فشيئاً ، وإذا خلَّفَ مياه مهران وراءه فلن تصله الإمدادات وسيقع إن عاجلاً أو آجلاً في الأسر بين يديك وستغنم السلاح والعدة والخدم والحشم وكل ما لدى العدو ، وهذا هو رأيي يا سيدي الملك .

وكان هناك رجل من العلافيين العرب كان قد فرَّ من جيش العرب والتحق بخدمة

الملك راي داهر، وأصبح من المقربين إليه، فاستدعاه داهر واستشاره في الأمر، وقال له: يا محمد لقد استشرت وزيري (سياكر) فقال كذا وكذا فما رأيك أنت في الأمر؟.

فقال محمد العلافي: إن هذا الرأي ليس صواباً ويجب أن لا يعبر جيش المسلمين إلى هذه الضفة، ذلك أنه جيش جرار، ويتكون من المقاتلين الأشداء المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله ومرضاته، فيضحون بالنفس والنفيس لنيل الشهادة، حيث أنهم يعتقدون بأن هذه الشهادة ستقودهم إلى حياة الخلد في الآخرة، وإنني أعتقد بأنهم سوف لن يقتلوا حتى يقتلوا جمعاً كبيراً منا وإذا عبروا إلينا ووضعوا يدهم على البلاد، وشاركوا في الحكم والسلطان ستحصل فتنة كبرى تقوى فيها شوكتهم يوماً بعد يوم مما سينجم عنه التجاء العديد من رجالك خوفاً على حياتهم إلى الجانب الإسلامي.

وإنني أرى من الصواب أن تتركهم على الضفة الغربية ويكون نهر مهران حاجزاً طبيعياً بين الجيشين وعلينا أن نحاصرهم اقتصادياً فنبعث بالسفن لمصادرة ما يأتيهم من المؤن وكذلك بالنسبة للطرق البرية وبهذه الطريقة يموت قسم كبير منهم من الجوع ويهرب بعضهم الآخر، ويتفرق ويتشرذم الباقون، وبهذا ستنجو مملكتك من شرهم، والرأي لك أولاً وآخراً.

راي داهر لا يأخذ بنصيحة العلافي

وينقل أحد الرواة بأنه كان جالساً لما تحدث العلافي العربي وأعطى رأيه في الأمر، لكن الملك داهر قال بعد أن استمع إليه: إنك لا شك تريد النصيحة والخير، لكن رأيي يقتضي بأن أترك الخيار بأيديهم حتى لا يتصوروا بأننا عاجزون.

رسالة الملك راي داهر

عند ذلك استدعى الملك داهر، الرسول الشامي وقال له: ارجع إلى أميرك وقل له إنني قد خيرته في العبور، وإننا على استعداد لقتالكم فإذا أراد فليعبر، وإلا فإننا نحن العابرون.

رجوع رسولَيْ محمد بن القاسم من عند الملك داهر

رجع الرسولان اللذان أرسلهما محمد بن القاسم إلى داهر، رجعا وأخبراه، بما أجاب به داهر على رسالته، فقال محمد بن القاسم:

إنني بعون الله تعالى سأعبر نهر مهران، ثم ذكر الله عز وجل واستعان به واقترب من الضفة الغربية في مقابل حصن راؤر، ثم استدعى موكه بن بسايه وبعض المقربين من أهل البلاد ليعينوا أفضل مكان لعبور النهر وليهيئوا السفن لذلك.

ثم كتب رسالة إلى الحجاج يشرح فيها الوضع، ويطلب منه الاستشارة وبقي منتظراً حتى يأتي جواب الرسالة من الحجاج.

وصول رسالة الحجاج بن يوسف إلى محمد القاسم الثقفي

من الحجاج بن يوسف إلى الأمير المبجل المحترم عماد الدين محمد بن القاسم: بعد مطالعة رسالتك، فهمت أنك عازم على عبور نهر مهران ومقاتلة راي داهر بن جج، وإنني موقن بنصر الله تعالى، وأنه ناصرك على عدو الله وعدوك داهر بن جج، وأنه سوف تكون نهايته على يديك إن شاء الله.

وإنني واثق بعون الله وكرمه، ذلك أنني في صلواتي الخمس اليومية وفي خطبي على المنابر في جموع المصلين لا أترك يوماً الدعاء لنصرتك وظفرك إن شاء الله على أعداء الله.

كما إنني أتضرع إلى الله تعالى دائماً وأقول: إلهي، إنك الله الملك الذي لا مليك غيره ولا إله إلا أنت، مكّن جيوش الإسلام في حروبهم، وانصرهم على القوم الظالمين، وإنه من المنتظر من الكرم الإلهي أن تمد يد العون إلينا يا ربنا، وتيسر له عبور النهر في جميع الأحوال لذا أدعوك يا محمد بن القاسم أن تعبر النهر، وعندما يلتقي الجيشان، كُنْ واثقاً من رحمة الله تعالى

ونصرته وابذل ما عندك من الشجاعة والشهامة، واعلم أن الفتح والنصر والحول والقوة هي قرائنك، وأن سيوف المسلمين مسلطة على رقاب الكفار.

وإن الله سبحانه وتعالى سيجعل نهاية المعاندين على يديك بسيوف ورماح الملائكة والمسلمين سوية، وثق بالمدد الإلهي لجنده الميامين واعلم أن غضب الله عليهم لشديد حيث سيلاقون الانتقام الرباني العظيم.

وإذا أردت عبور النهر، فعليك التأكد من منطقة العبور والمجاري والمعابر، كما عليك أن تقدم العون والنصح الصادق لأولئك الذين يقودون المراكب من أهل البلاد، كما عليك أن تعرفهم حق المعرفة حتى لا يخونوك لا سمح الله، واعلم بأنك إذا عبرت النهر فإنك ستكون آمناً من ناحية الأعداء الذين سيدب الخوف في قلوبهم، واعلم بأنك إذا دخلت الحصون والبلاد والأمصار فإنه لن يقاومك أحد بعد معركة النهر، وأن الله تعالى سيفتح الأمصار والحصون والقلاع على يديك، واعلم بأن الله سيلقي الرعب والهلع في قلوبهم، ولن يستطيعوا حتى استخدام ما لديهم من الأسلحة، وإنه ناصرك على أعدائه لا محالة، وبعد فرارهم عليك أن تضبط القلاع والحصون والمناطق لتحفظ نفسك وجيشك من الغدر والعدوان وينبغي ألا يأخذك العجب والغرور بنفسك لأن الله ناصر جنده على الكافرين، وعليك بدعوة الناس إلى الإسلام ومن تشرف بالإسلام عامله المعاملة الحسنة، وعلمه أركان الإسلام كما أن دماء جميع أعداء الإسلام مباحة لك حتى يثبت دين الله الإسلام في جميع المنطقة، وعليك بقراءة الدعاء التالي في كل ساعة من ساعات الليل والنهار:

بسم الله الرحمن الرحيم.

اللهم إنا نسألك، ذلك بأنك أنت الله الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، لك ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك، تعلم ما بين أيدينا وما خلفنا، ولا نحيط بشيء من علمك إلا بما شئت، وسع كرسيك السموات والأرض، ولا يؤودك حفظهما وأنت العلي العظيم[1]، وبأنك أنت الأحد الصمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وبوجهك الكريم رب الوجوه، وخالق الوجوه، وقاهر الوجوه، والقادر على الوجوه، لك

(١) تصرف واضح بآية الكرسي ــ انظر سورة البقرة ــ الآية: ٢٥٥.

الخير والكرم والكلمات التامات، فارزقنا مع ذلك شكراً لنعمتك ومعرفة لحقك وعملاً برضوانك.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب حمران[1] في سنة ثلاث وتسعين.

قراءة محمد بن القاسم رسالة الحجاج وخطبته في أصحابه وكبار قواده

بعد أن قرأ محمد بن القاسم رسالة الحجاج، حمد الله وشكره وألقى خطبة في أصحابه وكبار قواده وأتباعه المقربين وتهيأ لتعيين المواقع للعبور ومحاربة داهر بن جج.

ثم وصلت رسالة أخرى من الحجاج يذكره فيها بضرورة رسم مواقع العبور على مسافة أربعة فراسخ.

مجيء الملك داهر إلى الضفة المقابلة لنهر مهران

يقول حكماء الهند ومؤرخوها، لما وصلت رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم يأمره فيها بالعبور، كان هناك برهمي ذكر عن مرداس بن هُدبة التميمي أنه قال: كنت في هذا الوقت مع جيش داهر بن جج في (راور)، ولما وصل خبر وصول محمد بن القاسم إلى داهر بأنه قد جهز جيشاً عظيماً في مقابلة (جيور)، أمر داهر أن يجهزوا فيله وتقدم مع وزيره وعدد من أتباعه حتى أصبح قبالة جيوش محمد بن القاسم

(١) حمران بن أبان مولى عثمان بن عفان، ولي عدة ولايات، كان مقرباً من عبد الملك بن مروان. انظر بعض أخباره في أنساب الأشراف: ٤/١٦٠ ــ ١٦٤، ٥/٥٧ ــ ٥٨، ٦٦، ١٨٦. الأمالي للقالي: ١٨٢. العقد الفريد: ٢/٩٢، ٢٠٨، ٢٦٥. المحبر لابن حبيب: ٤٨. الإصابة لابن حجر: رقم ١٨٩٨. يقال أنه توفي سنة ٧٠هـ أو بعدها بقليل، وتفيد رسالة كتابنا هذا أنه كان حياً سنة ٩٣، وحمران كان من الغلمان الذين أسرهم خالد بن الوليد سنة ١٣هـ أثناء فتوح عين التمر، وأن يكون عمر حتى التسعين فليس بالأمر المستغرب.

استشهاد الشامي

كان هناك رجل من الشاميين قوي الشكيمة، ماهراً في رمي السهام والرماح، أراد أن يدخل الماء ويرمي السهام لكن حصانه أحجم عن دخول الماء وخاف وأحجم عن الدخول.

ولما رأى داهر ذلك، أخذ قوسه ــ وكان مشهوراً بعظيم قوسه وسهمه ــ فصوب سهمه مباشرة نحو الفارس الشامي فأصابه في سرته وقتله ووقع من على ظهر فرسه في الماء، ثم عاد داهر وقال لوزيره جاهين:

إبق على ساحل الشط مقابل حصن بيت، ودقق النظر في مياه النهر وكن يقظاً حتى لا يعبر العرب واحداً واحداً، كما أنه يجب عليك تهيئة المراكب والسفن حتى إذا عبروا تصدينا لهم بالرماح والسهام.

وفي هذه الأثناء جاء خبر من سيوستان بأن عدداً من المقاتلين الهنود الذين كانوا في جيش ملك سيوستان قد هاجموا المدينة وانضم إليهم الأهالي وأخرجوا العسكريين العرب منها، واتصل الخبر بمحمد بن القاسم.

ذهاب محمد بن مصعب بن عبد الرحمن إلى سيوستان

لما وصل الخبر إلى محمد بن القاسم، جهز جيشاً قوامه ألف فارس وألفان من المقاتلين الرجالة وعين محمد بن مصعب بن عبد الرحمن قائداً على ذلك الجيش، وأرسله إلى سيوستان.

ولما وصل مصعب بجيشه إلى سيوستان، تصدت له شرذمة من بقايا جيوش ملك سيوستان فانتصر عليهم، وفروا إلى الحصن وسدوا أبوابه، ثم فروا من هناك إلى منطقة (جهم)[1]، ولما دخل مصعب المدينة، تقدم وجهاء المدينة من التجار والأعيان والضياع

(١) ما زال هذا الموقع يحمل هذا الاسم نفسه، فهناك محطة قطار بين كوثري وجواب شاهي في مقاطعة شانا اسمها «جهم بير» ومعنى كلمة بير «ولي» وكانت منطقة جهم تغطي النصف الشمالي لسهوب ثاتا وبينما محمد بن القاسم لم يكن ←

يرافقهم الراهب السمني وطلبوا الرحمة والمعذرة وقالوا إنه لم يكن ذنبهم، وإن العصاة قد فروا، فقبل مصعب عذرهم ورضي بصلحهم وأعطوه مفاتيح الحصن، ولما وصل خبر ذلك إلى محمد بن القاسم، فرح واستبشر خيراً، وكتب إلى مصعب رسالة يقول فيها: عليك الآن أن تحافظ على الحصن وتضع رجالاً تثق بهم ليحرسوا المدينة ليل نهار، وعليك أن تأخذ من الرهبان والتجار المعروفين رهائن تبقيهم لديك.

كما عليك أن تجهز أربعة آلاف رجل مقاتل من سيوستان وتصحبهم معك إليّ.

قام مصعب بن عبد الرحمن بما أشار به عليه محمد بن القاسم وانضم إلى الأمير مع أربعة آلاف مقاتل مدجج بالسلاح، وفي هذه الآونة جاء موكه بن بسايه بجيشه ورجاله المسلحين وانضموا إلى الأمير محمد بن القاسم مقابل حصن (بيت).

خبر وصول جيسيه بن داهر إلى حصن بيت في قبالة محمد بن القاسم

لما علم داهر بأن موكة بن بساية قد انضم إلى محمد بن القاسم، أرسل ابنه جيسيه على رأس جيش من المقاتلين الأشداء إلى حصن (بيت) حتى يقف بوجه المسلمين، ويمنعهم من عبور نهر مهران. فجاء جيسيه بكل مقاتليه وعدته وسلاحه على متن السفن الحربية عن طريق جدول يدعى (كونك)[1] يصب في نهر مهران.

أما محمد بن القاسم فقد نزل في بلاد على الساحل تدعى (جهيم) و(كرهل)[2] وبقي هناك خمسين يوماً حتى نفدت أرزاق ومؤن المقاتلين وكذلك أعلاف

قد أخضع منطقة جهم حتى ذلك الحين فقد هرب شندرام متبعاً الطريق التلي القديم الذي ما يزال مستخدماً من سيهوان (سيوستان) إلى جنوب غربي السند باتجاه منطقة جهم وثاتا.

(١) سيأتي تعريفه فيما بعد.

(٢) جهيم هي جهم وكانت مقاطعة كرهل مجاورة لها من ناحية الجنوب، وكرهل هي اللفظة المعربة لكلمة «جرهر أو جرهار» التي تعني بالسندية مجرى سيلي قوي غير مستقر، وظلت هذه تحمل هذا الاسم حتى القرن التاسع عشر، وهي الآن في منطقة ثاتا بين جهيم في الشمال وسكرا في الجنوب.

الخيل والدواب الأخرى التي كان يستخدمها جيشه، كما أصيب العديد من الخيل بمرض الجذام ومات، فاضطرب جيشه من قلة الغذاء، واضطر جنده إلى أكل لحوم الخيل المريضة.

هذا وكان الأعداء يكيدون لجيش الإسلام بكل الطرق التي يجدونها، ولما وصل خبر أوضاع جيش المسلمين إلى داهر، فرح فرحاً شديداً وأرسل مبعوثاً إلى محمد بن القاسم يسخر منه ويدعوه إلى الرجوع إلى بلاده.

رسالة داهر الكافر إلى محمد القاسم

اعلمْ يا محمد أن مراميك ومقاصدك في فتح بلادنا قد جلبت عليك الشؤم واللوم والقهر والعناء فأصبحت في ضائقة وعوز إلى الماء والغذاء والدواب، وإن ترجع إلى صوابك وتقبل بالصلح نرسل إليك أعلاف الحيوانات حتى لا يموت جيشك من الفتك والفاقة، وانظر إلى مالك ورجالك من منهم يستطيع أن يقابلنا وأنتم في هذه الحالة التي يرثى لها.

وأجابه محمد بن القاسم بهذه الرسالة.

إنا لسنا من الأمراء الذين يرجعون عن عزمهم وتصميمهم، وإذا أردت الصلح والسلام بيننا، عليك بإرسال الأموال ـــ التي نهبتها، بتعنتك طيلة السنوات الماضية ـــ إلى دار الخلافة وإلا فإني سأرسل برأسك بعون الله تعالى إلى العراق.

ثم كتب محمد بن القاسم رسالة إلى الحجاج يشرح فيها أوضاع جيشه والضائقة المادية والغذائية التي حلت بجيشه وموت الخيل وقلة الأعلاف.

وكان هناك شخص اسمه الطيار قد بعثه الحجاج خِلسة إلى جيش محمد بن القاسم ليستطلع الأمور بصورة مخفيّة ويُعلم الحجاج عن حقيقة أوضاع جيش الإسلام.

وصل الطيار إلى مدينة مكران فرأى شخصاً قادماً نحوه، فسأله: من أين أتيت يا أخي؟ فأجابه: جئت من معسكر محمد بن القاسم فسأله الطيار قائلاً: صف لي أحواله، فقال: إن الحالة يرثى لها فقد نفد الغذاء وانعدمت الأعلاف والجيش يعاني من المرارة والضنك

والقحط، كما أن الخيل أغلبها قد مات، وما بقي منها بعد الشفاء من مرض الجذام معوق ومشلول ولهذا فإن جيش العرب متردد إزاء هذه الشدة.

رجوع الطيار إلى الحجاج

رجع الطيار إلى الحجاج وشرح له أوضاع الجيش الإسلامي، فانقبضت نفس الحجاج وتأسف كثيراً لحال الأمير محمد بن القاسم، فرجع إلى مجلسه ودعا العلماء والأعيان وكبار رجالاته وطلب منهم أن يدعوا الله في صلواتهم لينصر جيش المسلمين وليرفع عنه تلك الشدة، ثم اختلى بالطيار وقال له: ابعث لي بذلك الجندي الذي أوضح لك الأمور، حتى استجليها بنفسي منه.

فجاء الطيار بذلك الرجل إلى الحجاج، فسأله الحجاج: من أين أتيت يا رجل؟ قال: من بلاد السند، فقال الحجاج: ما هي أخبارك عن محمد بن القاسم؟ قال الرجل: كلهم في صحة وعافية لكن الخيل أصابها مرض الجذام، ولهذا فإن ما بقي منها أصبح ناقصاً معوقاً، وقد خرجت بعد تلك الحادثة وأعتقد أن الغلال توفرت لديهم الآن، وقد جاء تجار المنطقة لبيع الأعلاف والغلال لجيش المسلمين، وأن الملك موكه بن بسايه ملك (بيت) يقوم بدعم الجيش الإسلامي من هذه الناحية.

فقال الحجاج: لقد قال لي مبعوثي الشيء نفسه، فقال الرجل: أنا تحدثت إليه عن تلك الأوضاع، ولكنك لم تستمع لي إلى النهاية! فقال الحجاج: هل لديك شيء آخر تقوله؟ فقال الرجل: نعم يجب عليك وعلي وكل من علم بالأمر أن يُفشيه بين الناس حتى لا يلوكه الجهلاء وينتقص من مكانة المسلمين.

ولما سمع الحجاج كلام الرجل، أكرمه وأكبره وأرسله إلى دار الخلافة ليطلع الخليفة على الأمر.

إرسال الحجاج ألفي فرس إلى محمد بن القاسم

ما إن سمع الحجاج بهذه التفاصيل عن الضيق والضنك الذي يعانيه محمد بن القاسم حتى أرسل له ألفي حصان، وكتب له الرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم.

من الحجاج بن يوسف الثقفي إلى محمد بن القاسم:

اطلعت على أحوالكم من الرسالة، ومن المبعوثين الذين بعثتهم، وعلمت بالمرض الذي أصاب جيادكم والذي أدى إلى هزالها وضعفها، لذا فإنني مرسل إليك بألفي فرس أصيل ليركبها الأتباع والمقربون والذين يستحقونها من الفرسان المظفرين الميامين، وعليهم أن يعلموا بأنها ملكهم وليست على سبيل الإعارة، أما بالنسبة لدفع الكفار والنصر عليهم فلن يتأتى ذلك بالتمني لقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾[1] وإنني ما أرسلتك لفتح السند لولا أنني أعلم بأن دولتهم إلى زوال، مؤمن بأن الله سبحانه وتعالى معيننا على ذلك، من أجل إظهار الشريعة والحقيقة والطريقة وليرتفع لواء الإسلام عالياً، وعليك تهيئة المراكب والسفن بكل طريقة ممكنة لتصنع منها جسراً متراصاً يسهّل عليكم عبور النهر وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء الكفرة. والسلام.

وصول رسالة الحجاج لمحمد بن القاسم

بعد أن وصلت رسالة الحجاج السابقة إلى محمد بن القاسم، وكذلك الجياد، هيأ نفسه للعمل الذي أشار عليه الحجاج به، وكتب رسالة أخرى إلى الحجاج يشرح فيها أحواله وأوضاع جيشه وطلب منه الخل والمخللات بسبب اختلاف الجو والطباع في المنطقة ورطوبتها وذكر له بأن الجيش في حاجة ماسة إلى ذلك.

(١) سورة النجم ــ الآيتان: ٢٤ ــ ٢٥.

إرسال الحجاج بالخل الحاذق[1]

لما اطلع الحجاج على رسالة محمد بن القاسم وحاجته إلى الخل، أمر أتباعه أن يأتوه بالقطن المحلوج ويغمسوه في الخل حتى يتشبع، ثم يتركوه فترة من الزمن حتى يجف، ثم أمر بجمعه وربطه مع الأحمال وإرساله إلى محمد بن القاسم، وهو يذكر قول الرسول ﷺ «نعم الإدام الخل»[2].

فقد ذكر له بأن القطن المشبع بالخل المجفف يمكن الاستفادة منه عن طريق غمسه في الماء وعصره.

وصول رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم وهو على الضفة الغربية لنهر مهران

يذكر الخواجة الإمام إبراهيم[3] بأنه لما عسكر محمد بن القاسم على الضفة الغربية من نهر مهران، كتب الحجاج رسالة له أعطاه فيها النيابة العامة والأوامر المطلقة، وكتب له يقول:

لقد بدأت أكرهك يا محمد، وأعجب منك كيف استصوبت إعطاء الأمان للأعداء، يجب ألا تعطي الأمان لكل وضيع ورفيع وعدو ومعارض ومطيع على حد سواء، وإن فعل ذلك ليس من رجاحة العقل بل من قلة التدبير وسيعتبر العدو ذلك ضعفاً منك وإنه والله قد أصابني العجب العجاب من قول الصديق والعدو: إن محمد القاسم قد أعطاهم الأمان ووقف فترة طويلة أمام العدو، وإذا وصل خبر ركاكتك وعجزك إلى داهر سيستغرب ويعجب، ولسوف يعتقد الناس بأنك تسعى للصلح والسلم.

---

(١) يستفاد مما ذكره البلاذري (٤٢٤) أن محمد بن القاسم أخذ معه حين توجه نحو السند كمية من القطن المنقوع بالخل، ثم إنه «لما صار إلى الثغر كتب يشكو ضيق الخل عليهم، فبعث إليه بالقطن المنقوع بالخل».

(٢) انظره في كنز العمال: ٤٢٠١١/١٥.

(٣) ربما هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أخو محمد النفس الزكية، وقد ثار على أبي جعفر المنصور بالبصرة وهناك قتل، وكان إبراهيم قد زار السند فراراً من السلطات العباسية أو حتى قبل ذلك. انظر تاريخ الطبري: ٣٨٢/٣.

عليك أن لا تخفض رأسك للرئاسة والسياسة بل عليك الحفاظ على الفهم والسهم إلى أن يطلبوا الأمان ، وعليك أن تصمم وتقرر بحيث يبقى أتباعك في ظل الشهامة والعزة والكرامة ، وأن تكون صادقاً مع الجميع ، وقوي الرأي وسديده ، ولا تغفل أية شاردة أو واردة ، وأن يكون قلبك ولسانك وروحك وكل ما فيك يلهج بذكر الله تعالى .

والآن وبعد أن وصلت إلى الضفة فعليك أن تعبر النهر من مكان يدعى (بيت) حيث يضيق مهران عنده ، كما أن وجود الجزيرة في وسطه ، يسهل أمر العبور لجيشك .

كما عليك أن تصنع جسراً من السفن وأن تستعين في حربك ضد الكفار بالله القوي العزيز .

خبر استعداد محمد بن القاسم لعبور نهر مهران

يذكر المؤرخون أنه لما وصلت رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم ، استجاب لأوامره فنزل في المكان والزمن المحدد ووصل أرض (ساكره) من مقاطعة (جهم) وبدأ في توزيع الأوامر لإحضار السفن وصنع المعابر والجسور .

أما داهر بن جج فقد كان لاهياً باللعب والطرب والصيد لا يعير التفاتاً لما يقوم به محمد بن القاسم .

وفي أحد الأيام جاءه وزيره الراهب السمني (بهندوير) وقال له : أيها المليك المفدى : إنني أراك كل يوم وأنت مشغول باللهو واللعب والصيد والقنص والشطرنج والنرد ، وقد جاء جيش العرب وعسكر في بوابة بيتك .

فقال له داهر : وما الحيلة يا وزيري؟ ما رأيك أنت بالموضوع؟ فقال الراهب السمني : إنني أرى ثلاثة طرق يمكن أن تسلكها وعليك الأخذ بواحد منها أولها إذا تمكنت أن تعقد اتفاقاً بينك وبين الملوك الآخرين في الهند ، وذلك بإرسال أولادك إليهم ليشرحوا لهم خطورة مجيء الجيش العربي ، وأن عليهم أن يعبئوا قواهم بكل ما لديهم من الفيلة والعتاد والسلاح ، حتى تتمكنوا جميعاً من صد جيش الإسلام فافعل ذلك ، كما عليك في هذا التدبير

أن ترسل الجيوش والأتباع إلى جميع الجهات ليسدوا الطريق على إمدادات العرب من التجار والرعية وغيرهم.

أما التدبير الثاني: فإنني أرى أن تنتقل من هنا إلى منطقة (قصبة) حيث الرجال تحميك من مجيء الجيش الإسلامي كما أن أهالي المنطقة يمدون لك يد المساعدة وقل لهم بأنني سأكون حائلاً بينكم وبين جيش العرب.

أما التدبير الثالث فأرى أن تذهب أنت وجيشك وأتباعك إلى أرض (جسوم راي) لأن الملك جسوم يعرف مكانتك وقدرك ولسوف يقدم لك جميع الإمدادات وأنواع العون والعتاد وبذلك يمكنك أن تأخذ العون وتعود لتنتقم من أعدائك العرب، وتأكد بأنك إذا لم تدفع خطر جيش العرب، فإنه لن يتمكن ملك غيرك من ذلك ولسوف يسيطر محمد بن القاسم على جميع البلاد.

فأجابه داهر بن جج: أيها الوزير الذكي إن ما تراه هو الصواب وعين المصلحة للبلاد، بيد أن إرسال الأتباع والخواص إلى الهند في هذه الظروف الصعبة لا شك سيجعل الرعية في حالة تردد وخوف ووجل، مما سيؤدي إلى عجزهم وهزيمتهم في أي قتال يحصل بين الطرفين، كما أنه سيعود عليَّ بالعار في أن ألتجئ إلى شخص آخر وأطرق بابه، وكيف لي في هذه الحالة أن أزيح هذا العار من قلبي ومكانتي؟!.

فقال له الوزير: ما هو التدبير يا سيدي، نوّرني به، فإن المشورة والمناصحة مع الخدم مثلي تفيد الأمة؟.

تدبير الملك راي داهر مع الوزير

فقال الملك راي داهر: إن رأيي أن نقابله ونتقاتل معه بكل جد واجتهاد، فإذا انتصرت عليه فإنني سأنتصر على الجميع وتقوى مملكتي، وإذا ما هزمت وقُتلتُ فإن هذا الخبر سيُذكر في كتب التأريخ عند العرب والهنود وسيخلد ذكري وستخلد عزتي وكرامتي باعتبار أن راي (ملك) السند ضحى بحياته في سبيل الوطن والولاية، فقال الوزير السمنى الراهب: إن

جل ما أريد قوله وأبتغيه هو بقاء عزة ومكانة الدولة واستقامتها، فما نحن سوى بشر نستطيع العيش على قطعة من الخبز وقليل من الماء.

إن رأيك هو الصواب يا سيدي.

خبر ذهاب محمد بن القاسم إلى الطرف الشرقي من النهر

لما صمم محمد بن القاسم وعزم على العبور إلى الطرف الشرقي من نهر مهران، أخذ يفكر: إن الملك داهر يجب أن لا يأتي إلى ساحل مهران ويستعلم عن عبورنا، لذا فإن الواجب يستدعينا أن نتفقد أحواله ونتفحصها.

ذهاب سليمان إلى مدينة بغرور

استدعى محمد بن القاسم قائده سليمان بن نبهان القشيري وقال له: يجب عليك أن تذهب بجيشك إلى (بغرور) المقابلة لحصن (أرور)، حتى لا يتمكن (قوفي)[١] بن داهر من مساعدة أبيه والتوجه إلى الساحل المقابل لنا.

واستجاب سليمان لأمر محمد بن القاسم فأخذ معه ستة آلاف[٢] مقاتل فارس، واتجه إلى مدينة بغرور. كما عين الأمير محمد بن القاسم عطية بن ثعلبية[٣] على رأس جيش قوامه خمسمائة رجل مقاتل وأرسله إلى مدينة (أكهم)[٤] حتى يراقب الطريق البري ويلاحظ تحركات جيش الأعداء.

---

(١) ورد هذا الاسم بالأصل بأشكال متعددة، والرسم المعتمد أقربها إلى الصحة على افتراض أن أصل هذا الاسم كان «جوبي».

(٢) كان قوفي بن داهر مع كامل قواته متمركزاً في العاصمة أرور، وأرسل محمد بن القاسم أوامره إلى سليمان للحيلولة دون وصول المساعدات إلى داهر، ووجب على سليمان التوجه مع فرقته المكونة من /٦٠٠٠/ رجل عن طريق سيوستان، والتمركز على الضفة اليمنى لنهر مهران مقابل حصن بغرور، حتى يشغل قوفي بالدفاع عنه، ويمنعه من مغادرة العاصمة ويحول بينه وبين إرسال أي تعزيزات إلى داهر الذي كان في الجنوب الأقصى في راؤر.

(٣) من الشخصيات العسكرية المرموقة في العصر الأموي، شغل أكثر من دور. انظر العيون والحدائق: ٢/١٦٤.

(٤) كان أكهم الزعيم القوي لإقليم حمل اسمه، وقد حارب ضد جج في برهمناباد، ويعتقد أن مدينة أكهم هي أكهم كوت

وأرسل في طلب الراهب السمني (مقدتية)[1] الذي كان أميراً على نيرون كي يؤمن للجيش الإسلامي الغذاء والأعلاف للخيل.

وعين محمد بن مصعب بن عبد الرحمن على مقدمة جيشه ليتفقد الطريق وليمهد لتقدم جيش محمد بن القاسم.

كما نصَّب محمد بن القاسم، نباتة بن حنظلة الكلابي مع ألف فارس للقلب، وعين ذكوان بن علوان البكري مع خمسمائة فارس وموكه بن بسايه ملك (بيت) و(تكران بهتي) وجتان الغربي الذي بايع محمد بن القاسم مع أتباعه وأعيانه من مدينة (ساكره)، عيَّنهم ليقفوا في جزيرة (بيت) والدفاع عن المقاتلين المسلمين أثناء عبورهم.

تعيين محمد بن القاسم منطقة العبور

لما تأكد محمد بن القاسم أن مقدمة جيشه قد وصلت إلى معبر (جهم)، وجهم بن زحر الجعفي قد تمركز في (يزك)، تجول محمد بن القاسم على ضفة نهر مهران ليرى أفضل وأضيق مكان للعبور في منطقة جزيرة بيت. ثم أمر بإحضار السفن وربطها مع بعضها بعضاً ليصنع منها جسراً للعبور.

الملك داهر يعلم بتهيئة السفن والمراكب من قبل موكه بن بساية

لما علم الملك داهر بأن موكه بن بسايه قد جلب السفن والمعابر الخشبية إلى محمد بن

التي ذكرها المؤرخ مير علي شير قانع (تحفة الكرام: ١٦٢/٣) وأشار هذا المؤرخ أيضاً إلى ضريح مخدوم اسماعيل سومارا في أكهم كوت، ويعرف هذا الموقع الآن باسم أكهماني، ومعظمه عبارة عن أطلال تقع على بعد قرابة /٢٥/ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من حيدر أباد، على الضفة الغربية لمجرى قديم لنهر السند، وما زال القسم الأعلى منه يحمل اسم دهورو لوهانو (قناة لوهانو) وذلك أثناء مروره بمدينة شهداد بور (ضاحية سنجهار) ثم يستمر باتجاه الجنوب وينعطف نحو الجنوب الشرقي بين شهداد بور وتاندو آدم، ويدل موضع أكهم على قناة لوهانو على أن مقاطعة لوهانه كانت تمتد باتجاه الجنوب حتى أكهم.

(١) يرد هذا الاسم أحياناً «مقدنية».

القاسم، أرسل يطلب ابنه جيسيه وقال له: لا تضع ثقتك في بسايه سربند حتى لو كان قد بايعك في الحكم، ثم توجه جيسيه إلى حصن (بيت) ودخله.

وكان راسل بن بسايه معارضاً لأخيه موكه، فذهب إلى داهر وقال له: عاش الملك المفدى داهر، والنصر له على جميع المعارضين، وإذا رأيت يا سيدي أن من الصلاح أن ألتحق بالملك جيسيه للحفاظ على حصن بيت كي أحول دون دخول جيش العرب إليه أو المرور منه.

إعطاء الولاية إلى راسل

ولما اطمأن داهر إلى نوايا راسل بن بسايه، فوّض إليه ولاية (بيت)، واستدعى الأعيان والأكابر لمبايعته، ثم غادر جيسيه بن داهر مدينة بيت راجعاً إلى ولايته، وعلم أهل المنطقة أن جيش الإسلام قد وصل إلى المناطق المجاورة واستولى عليها.

إعلان العصيان بدون علم داهر

رُويَ عن أبي الحسن المدائني أن بسايه وولده راسل اتحدا معاً ضد موكه بن بسايه وكانت خلافاتهما ومعارضتهما واضحة للجميع وأن موكه بن بسايه كان مخالفاً ومعارضاً لداهر، وأنه قد بايع محمد بن القاسم والتحق به، وأن راسل بسبب معارضته لموكه ولجيش محمد بن القاسم جاء ليتقاتل معهما.

ومنذ ذلك الوقت لم يحن موكه رأسه لداهر وأعلن عصيانه، وكان ناصحاً للإسلام مخلصاً في كشف تحركات داهر، ساعياً لإلحاق الهزيمة به.

وذكرت جماعة كانت هناك أثناء هذه الأحداث أنه لما جمع محمد بن القاسم السفن والمراكب وضمها إلى بعضها بعضاً ليعمل منها جسراً، جمع راسل جيشه ومعارفه من القادة الآخرين وحملوا على جيش محمد بن القاسم حتى يمنعوه من ربط أجزاء الجسر وعبور النهر، فأمر محمد بن القاسم بسحب جميع السفن إلى الضفة الغربية من نهر مهران حتى يتم ربطها

على قياس عرض النهر تماماً ثم تحركت السفن مرة واحدة على شكل قوس لربط الضفتين ووصول المقاتلين المسلمين إلى الضفة الشرقية.

ولما وصلت طلائع السفن على مقربة من الساحل الشرقي، بدأ المقاتلون المسلمون برمي السهام والرماح بكثافة غزيرة مما أدى إلى تعثر جيوش الكفار في الجانب الشرقي وإصابتهم بالذعر ثم فروا مدبرين لا يلوون على شيء، مما سهل عبور الجيش الإسلامي وجوازه إلى البر الثاني، ولحقت بالكفار هزيمة شنعاء، وتشجع المسلمون فلاحقوهم حتى أبواب مدينة (جهم)، وبقيت فلول الكفار تتعثر في أذيال الليل في هزيمتها حتى وصلت إلى جيش داهر وانضمت إليه[1].

وكان داهر بن جج في هذه اللحظات نائماً في فراشه فذهب بعض حجابه فأيقظوه وأخبروه بهزيمة المشركين والكفار وبنصر المسلمين وملاحقتهم حتى أبواب جهم.

---

(١) من الصعب تحديد المكان الذي عبر منه محمد بن القاسم مع جيشه بدقة، إنما من الممكن التوصل إلى عدد من المحصلات بناء على معطيات رواية كتابنا هذا مع ما أورده البلاذري في فتوح البلدان واعتماداً على الدراسات التي تناولت مجاري نهر السند القديمة وقامت على المسح الأرضي والجوي:

١ ــ عبر محمد بن القاسم عبر دلتا بيت، ومعنى كلمة بيت بالسندية جزيرة، وهكذا أشير إليها بالعربية، ومكان هذه الجزيرة في المنطقة السفلية من نهر السند ويحدها فرعا الدلتا على الجانبين مع البحرين وجاء اختيار هذا المكان لأنه كان من الممكن عبور القنوات المتفرعة عن الدلتا بسهولة.

٢ ــ اتجه محمد بن القاسم بعد عبوره نحو الأعلى نحو جهم وكرهل حتى وصل إلى مكان كان جزءاً من مقاطعة ساكرا غير أنه كان تحت سيطرة جهم، واحتلت طليعة جيشه طريق مخرج جهم وقامت بمطاردة قوات داهر، وقام موكه بعبور النهر إلى الجانب الغربي، والتقى وهو في طريقه إلى ساكرا مع قوات محمد بن القاسم، وعسكر رحالات ساكر ــ وكانوا يؤيدون محمد بن القاسم ــ في بيت قبل عبور الجسم الأعظم من الجيش الإسلامي.

٣ ــ كان نهر مهران ينساب من الشمال إلى الجنوب، وربطت السفن على الضفة الغربية وتم العبور إلى الضفة الشرقية، وكانت مقاطعات مناطق جهم وكرهل وساكرا تمتد على الجانب الغربي حتى النهر الرئيسي، ومازالت هذه الأسماء حية، لكنها تمثل الآن مناطق أصغر بكثير داخل مقاطعة ثاتا الحالية إلى الغرب من المجرى الحالي لنهر السند، وكانت جهم في الشمال وكرهل في الوسط وساكرا في الجنوب، وقد امتدت في القرن الثامن للميلاد باتجاه الشرق إلى داخل حيدر أباد وثاتا الحاليتين.

٤ ــ عبر محمد بن القاسم عدداً من القنوات الفرعية بعد عبوره لمهران وقبل مواجهته لجيش داهر للمرة الأولى.

استيقاظ داهر من النوم وتهديده للحاجب الذي حمل إليه أخبار هزيمة الكفار وانتصار المسلمين

لما استيقظ داهر من النوم وسمع أقوال الحاجب عن هزيمة جيش الكفار، قال له: لقد أتيت بفأل رديء، وضربه على قفاه وكانت ضربة داهر قاضية فأردته قتيلاً.

ويذكر المؤرخون بأن محمد بن القاسم لما عبر نهر مهران نادى المنادي في جيشه: أيها المقاتلون المسلمون إن مياه نهر مهران من خلفكم والأعداء من أمامكم ومن ضَعُفَ قلبه وخَوَتْ عزيمته، فالطريق مفتوحة أمامه للرجوع، ذلك لأن عدونا سيأتي للقائنا ويقاتلنا، وإذا تخاذل أحدكم عن مجيء جيش الأعداء فإن ذلك سيكون سبباً لهزيمتنا، لقد عبأ العدو كل قواته ضدنا، وإنه لمن العار علينا أن نتهاون بعد أن وصلنا إلى عقر داره، ولسوف يسومنا سوء العذاب في الآخرة.

ويقال إنّ أحداً لم يتراجع إلا ثلاثة أنفار.

أحدهم تذرع بأن لديه ابنة لا معيل لها غيره، والثاني بأن لديه أماً ليس لها قريب، وقال الثالث بأنه مطلوب منه قرض لايمكن لغيره سداده، فسمح لهم الأمير محمد ابن القاسم.

ويقال بأنه عند ربط الجسر وعبور الجيش لم تحصل أية حادثة سوى غرق نفر واحد من بني حنظلة.

تقدم الجيش العربي

بعد أن عبر الجيش العربي إلى الجانب الشرقي لنهر مهران، وألحق الهزيمة بجيش الكفرة ولاحقهم حتى حصن بيت قام محمد بن القاسم بحفر خندق لحماية جيش المسلمين من شراذمة الأعداء، ثم توجه إلى مدينة راور حتى وصل إلى موضع يقال له (جيور) وكان هناك خليج بين جيور وراور.

هذا وقد بعث داهر بعض أصحابه ومقاتليه إلى مدينة طلاية ليشاهدوا الأحداث عن قرب، ويروا مدى تقدم الجيش العربي هناك، وكانت مدينة طلاية قريبة من بيت.

ولما علم محمد بن القاسم بذلك أرسل محرز بن ثابت القيسي على رأس فيلق قوامه ألفا فارس، ومحمد بن زياد العبدي على رأس كتيبة قوامها ألف فارس ليتقابلا مع جيش داهر ويكونا له بالمرصاد.

استدعاء داهر لمحمد العلافي

استدعى الملك داهر أحد أتباعه وأرسله إلى محمد بن الحارث العلافي ليمثل بين يديه. فجاء العلافي وقال له داهر: إننا قد أنجدناك وادخرناك لهذا اليوم.

وإن مدينة طلاية التي جعلناك جابياً لأموال الدولة فيها، اليوم أوليك عليها خاصة وأنك أدرى بالجيش العربي من غيرك.

فأجاب العلافي: أيها الملك العزيز: إن نصيحتي لك اليوم واجبة عليَّ، ولك على ذلك ذمة النعمة التي أوليتني إياها، ولكننا نحن المسلمين لا يجوز لنا أن نرفع سيفاً على بعضنا بعضاً ولا يحق قتال المسلم لأخيه المسلم، فإذا قتلنا على أيدي المسلمين سنكون نسياً منسياً وإذا قتلناهم فإن دماءهم في أعناقنا ومصيرنا النار وجهنم وبئس المصير، ولكن لك في رقبتي نعمة العيش والملح وأنا لا أستطيع أن أقدم لك غير النصيحة، فإن قبلت فأنا باقٍ على العهد وإلا فإنني أستسمحك عذراً في رحيلي وأنشد يقول:

لا تقيمــنَّ بدار لا انتفــاع بها   فالأرض واسعــة والــرزق مبسوط

جواب الملك داهر للعلافي

ويقول المؤرخون إنه لما سمع داهر حديث العلافي قال له:

يا علافي، لقد احتفظنا بك ذخيرة لهذا اليوم، وبما أنني لم أستطع أن أستفيد منك الآن وأمرنا إليك لم تقابله بغير الاعتذار فإنني أسمح لك بالمغادرة.

انفصال محمد العلافي

ثم انفصل محمد العلافي عن الملك داهر ، وذهب بعيداً مع أصحابه حتى وصل إلى مملكة (البيلمان) التي كان يحكمها (طاطوس بن بجر) وبقي هناك حتى مقتل داهر ابن جج[1] .

محمد بن القاسم يعطي الأمان لمحمد العلافي

وبعد ذلك أعطى محمد بن القاسم الأمان لمحمد العلافي ، وأسند إليه الحجابة والولاية ليذهب إلى ملوك الهند لينشر دين الإسلام عن طريق الترهيب والترغيب بالمال ، وليؤملهم بالجنة وحسن المآب ، فكانت الممالك والولايات تبايعه وتدخل دين الإسلام تباعاً حتى دانت له كل الممالك وأعلنت الولاء للإسلام[2] ولما وصل إلى البيلمان أسلم على يديه طاطاس بن بجر ملك البيلمان ، وكذلك سربند ملك كيرج وكهوكه بن موكه والي كنبه ، وقيان بن طاهر وغيرهم ، وكلهم تشرفوا بعز الإسلام .

ولما وصل محمد بن القاسم إلى أطراف ملتان ، قضى محمد العلافي نحبه فيها[3] .

---

(١) يوجد بعض الخلل في هذه الرواية ، ومن حيث المبدأ ليس من المستبعد زيارة العلافي للبيلمان (بهيلامالا) وبقاؤه هناك بعض الوقت ، لكن ليس الآن ، ذلك أن العلافي بقي مع داهر وقاتل إلى جانبه في المعركة الحاسمة ففي اليوم الرابع من القتال الذي امتد خمسة أيام ، ولى داهر ابنه جيسيه قيادة إحدى فرق الجيش وألحق به العلافي ، وبعد مقتل داهر نصح العلافي جيسيه بإخلاء حصن راؤر والتوجه إلى برهمناباد ، ولازم العلافي جيسيه ولم يتخل عنه مطلقاً .

(٢) ظل العلافي مرافقاً لجيسيه لفترة من الزمن ، ثم توجه إلى كشمير حيث استقبل استقبالاً حسناً ، ويبدو أنه نال فيما بعد العفو من محمد بن القاسم فعاد إلى الالتحاق بالمسلمين ، وهنا كلفه ابن القاسم بالمهمة المذكورة هاهنا ، وقد أحسن القيام بها ونجح في نشر الإسلام وصنع التحالفات ، ولا شك أن الذين دخلوا بالإسلام من الهنود حملوا معهم ثقافاتهم ، الأمر الذي ظهرت آثاره في بداية العصر العباسي .

(٣) سيذكر المصنف فيما بعد وفاته في كشمير ، وهو أمر أكثر قبولاً لأن محمد بن القاسم ذهب إلى ملتان بعد بضعة أشهر من مقتل داهر ، وربما لم يكن قد عفا عن العلافي بعد ، ولم يكلف بالمهمة التي عمل بها سنوات .

تدبير الملك داهر مع محمد العلافي

يُروى عن محمد حسن[1] أنه قال: لما استعفى محمد العلافي من مقاتلة المسلمين وطلب إعفاءه من الاشتراك في الحرب، قال له الملك داهر:

إذا أردت الاستعفاء من الحرب فعليك التعاون معنا على الأقل حتى تعلمنا بكيدهم ومؤامراتهم.

ورضي العلافي بذلك، وذهب مع داهر إلى طلايه حتى يتجسس عن أحوال المسلمين، ولما وصل قريباً من الجيش العربي أخذ العرب في شتمه ومقاتلته فرجع يائساً محسوراً.

رسالة محمد بن القاسم إلى الحجاج بن يوسف

لما أتم محمد بن القاسم عبور نهر مهران وتقدم في الأمصار والولايات السندية، بعث برسالة إلى الحجاج بن يوسف وصف فيها عبوره النهر ومجابهته لجيش الكفار بقيادة داهر وهزيمته.

رسالة الحجاج إلى محمد بن القاسم

ولدي العزيز: عماد الدين محمد بن القاسم: إن ما كتبته صار في علمي ولقد اطلعت على مجريات الأمور. وما ذكرته هو الكيد عينه وإن ما قمت به هو من القضاء الإلهي والتوفيق الرحماني.

عليك إقامة الصلاة في أوقاتها الخمسة وتقديمها على كل واجب واعتبار آخر، وعليك بالتضرع والاستغاثة بالله العلي القدير في تكبيرك وقيامك وركوعك وسجودك وقعودك، ورطِّبْ وطيِّبْ فاك بذكر الله دائماً حتى تتنظم أعمالك، ذلك لأنه لا يتوفق ويتمكن، وتقوى شوكة

(١) كذا بالأصل ويبدو أن الجملة قد لحقها بعض السقوط وأن الصحيح [يروى عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني].

أحد إلا بالعناية الإلهية، وبما أن اعتمادك وتوكلك على فضل الله وكرمه وحده تعالى، فإن آمالك ستتحقق بإذن الله، وسيكون الفتح والنصر قرينين لك إن شاء الله. بخط حمران.

داهر يرسل ولده جيسيه للقتال في طلايه

ذكر المؤرخون أنه لما رجع محمد العلافي من طلايه، أرسل داهر ابنه جيسيه على رأس جيش من المقاتلين الأشداء على الأفيال إلى طلايه وتقابل مع جيش المسلمين حيث قتل العديد من الكفار، وفرَّ عدد آخر وتمت محاصرة جيسيه مع بعض من فرسانه وحراسه، وكانت أفواج المقاتلين المسلمين تحمل على عساكر كوكبة جيسيه وتعمل فيهم تقتيلاً وذبحاً.

ولما رأى سائس الفيل بأن أتباع وفرسان جيسيه قد قتلوا تباعاً، فكَّر في الهرب، ولكنه لم يجرؤ على مصارحة جيسيه بذلك، فخاطب الفيل قائلاً: أيها الفيل: هل تريد النجاة أم الموت؟ إن داهر يريد حياة ابنه جيسيه، ماذا تقول يا فيل؟ فأجابه جيسيه: كيف يمكنك إنقاذنا وقد أحاط بنا المقاتلون المسلمون من كل حدب وصوب، والمنافذ مسدودة وليس أمامنا طريق للنجاة.

وعلم سائس الفيل بأن جيسيه يرغب في الهرب أكثر منه في القتال وأنه قد ندم على الاشتراك في هذه الحرب الضروس، فلكز الفيل بقوة، وحمل على المقاتلين العرب من المشاة والفرسان حيث لم يستطيعوا مقاومة الفيل الهائج فتفرقوا وفتحت الطريق أمام هرب جيسيه من ساحة الوغى، ففر جيسيه هارباً من المعركة حتى وصل إلى أبيه داهر، بعد أن قتل جميع أتباعه ومقاتليه، ولما رأى داهر ابنه قد رجع سالماً، حمد وشكر معبوده وسجد له لسلامة ولده جيسيه.

وفي اليوم ذاته وصلت رسالة من الحجاج إلى محمد بن القاسم يقول فيها: أين يكون داهر، لاحقه وحاصره واقتل جيشه حيث أن قتله سيكون فتحاً للمسلمين وخذلاناً للكفار والمشركين إن شاء الله تعالى.

اليوم الأول من الحرب مع جيش داهر تحت قيادة راسل

يروى عن [علي بن][1] محمد أبي الحسن المدائني أنه لما هُزِم جيسيه بن داهر وتشرذم جيشه شذر مذر، بعث راسل رسالة إلى محمد بن القاسم يطلب فيها البيعة ويعلن ولاءه، لكن وزيره قال له: إن اعتماد داهر عليك بالدرجة الأولى وإذا عارضته في هذه اللحظات الحرجة فإنه عار عليك، ولسوف يعاقبني ويعاقب أولادي، وأنه ليس من الواضح أن الأمر سينتهي بانتصار العرب وأخوك موكه كان قد عارض داهر، ولهذا السبب فقد التحق بجيش المسلمين، ولكن هذا لن يكون سبباً وذريعة لك بأن تبايع محمد بن القاسم.

بيعة راسل لمحمد بن القاسم

استمع راسل إلى أقوال وزيره، ولكنه لم يقتنع بها فأرسل مبعوثه الخاص إلى محمد بن القاسم وقال له: إن اسمي على الألسن وذكري سيئ عند محمد بن القاسم، لذا فإنني قد اتخذت خطة تمسح العار عن جبيني أمام الناس، حيث أنني سوف أتظاهر بالذهاب إلى راي داهر، وعليك أن تخبر محمد بن القاسم بذلك ليرسل فوجاً من جيشه لمحاصرتنا وتسليمنا، حيث يمكنني بهذه الطريقة أنْ أتقدم بالولاء والبيعة دون الظهور بمظهر الخائن أو المعارض.

وهكذا خرج راسل من المدينة وأوكل إلى بسايه ذلك العمل، وقال له: إذا تقابلت مع جيش العرب فلا تقاتله، وعليك أن تعلن الولاء والطاعة، وأن تحظى بقدر ماتستطيع على رضاهم، ذلك أنني رأيت عن طريق العقل أن هذه الولاية سيتم فتحها على أيدي العرب.

ثم توجه راسل إلى المكان الذي تم تعيينه مسبقاً، فأرسل محمد بن القاسم إليه جيشاً قوامه خمسمائة مقاتل فالتقى الجيشان في مكان يدعى (نيطري) في حصن (كنبه)، وكان راسل يشعر بالعار من الفرار، كما كان محترزاً من القتال.

وكان محمد بن القاسم قد أوصى جنده أن لا يقتلوا راسل ولا يجرحوه، فكان أن

(١) أضيف مابين الحاصرتين حتى يستقيم السياق.

حاصروه وأسروه بعد مقتل عدد من أتباعه، ثم أخذوه إلى محمد بن القاسم الذي قال له: يا راسل أتريد أن أعفو عنك من أجل أخيك موكه؟ لقد سبق أن دعوناك إلى الطاعة فلم تستجب، فعليك أن تبايعنا الآن حتى نرعى حقك ونعطيك ما تريد، فتقدم راسل وأعلن ولاءه وطاعته فشملته رعاية محمد بن القاسم.

بيعة راسل لمحمد بن القاسم

لما جاء راسل إلى الطاعة، وأعلن ولاءه، وأعطى العهد الوثيق له قال: إن الله سبحانه وتعالى إذا قضى شيئاً فلا مرد لقضائه وحكمه، وقد مَنَّ تعالى علي برضاه، فإنني أضع نفسي رهن خدمتك، ولن أخرج بعد اليوم عن طاعتك، ولسوف أنقاد لأوامرك ونواهيك، واستمر راسل في خدمته مع أخيه موكه حتى توفي وآلت الولاية إلى أخيه موكه.

وكان راسل وموكه قد اتفقا مع محمد بن القاسم أن يدلّاه على موضع يقال له (نارائي) ليعسكر فيه بينما كان داهر في مكان يدعى قاجيجاق، وعندما وصلوا هناك كانت هناك بحيرة تفصل بين الجيشين يصعب عبورها، فقال راسل: أبقى الله الأمير العادل عماد الدين، لابد من عبور هذا الممر المائي، ثم ذهب ليحضر سفينة عائدة لشخص يدعى (سيككان)، حتى يأخذ الأتباع والمقاتلين إلى خليج يقع إلى جانب البحيرة ويستقروا هناك، ثم قال راسل: لا بد لك أن تتقدم إلى مكان أبعد من ذلك حتى تكون على مقربة من داهر، ويقع ذلك المكان على مجرى مائي يسمى (ددهاواه) بالقرب من قرية راؤر ويدعى جيور.

وهكذا اعتمد محمد بن القاسم على مشورة راسل ونزل بجيشه على نهر (ددهاواه) عند منطقة جيور.

نزول محمد بن القاسم في منطقة جيور

لما وصل الخبر إلى راي داهر بأن محمد القاسم قد نزل بجيشه في منطقة جيور استدعى وزيره الذي قال له: ويل لي لقد نزل في منطقته التي معناها موضع الظفر والانتصار، ولسوف يكون النصر حليفه.

ولما سمع راي داهر قول الوزير، اربدّ وجهه وظهر الغيظ على محياه، وقال غاضباً: لقد وصل إلى هنباري أيضاً التي هي موضع تتبعثر فيه الأشلاء، ثم قام داهر من مكانه وأصدر أوامره بالذهاب إلى راؤر والبقاء في القلعة هناك، وجلس هو في مكان يبعد عن الجيش العربي مسافة فرسخ واحد.

ثم استدعى داهر كبير منجميه وسأله: احسب لي عن طريق التنجيم هل هذا اليوم هو من أيام النحس أم من أيام السعد، وهل ينفع للحرب وأكون مظفراً فيه وأين هو كوكب الزهرة واستخرج لي كذلك مَنْ مِنَ الجيشين هو الغالب ومن هو المغلوب؟.

فكر المنجم وحسب وضرب وجمع ثم قال: بعد حساباتي في التنجيم ظهر لي بأن جيش العرب هو المنتصر ذلك أن كوكب الزهرة واقف خلفه، وفي الوقت نفسه واقف أمامك.

فامتعض داهر من كلامه واشتد غضبه، فقال المنجم: يجب أن لا يغضب سيدي الملك من حساب النجم، ويمكنك تدبير المسألة بأن تأمر أن يصنعوا لك نجمة كالزهرة من الذهب حتى تكون الزهرة أمامك وخلفك فيحالفك الحظ في الحرب والنصر.

وامتثل راي داهر وأصدر أوامره فصنعوا له نجمة كالزهرة من الذهب وفي هذه الأثناء تقدم محمد بن القاسم بجيشه مسافة أقرب إلى داهر وأصبح على بعد نصف فرسخ من جيش داهر وعسكر هناك.

حرب اليوم الثاني

ولما علم داهر باقتراب جيش العرب إلى مسافة نصف فرسخ، أمر أحد ملوكه المدعو (دير الأعور) بالتوجه لقتال محمد بن القاسم.

فتقدم جيشه من جيش المسلمين والتحم الجمعان من بداية الصباح حتى انصرام الرواح، وقُتل الشجعان والفرسان الأبطال من الجانبين ثم انسحب كلٌ إلى موضعه.

قتال داهر لليوم الثالث مع العرب

أخذ قتال اليوم الثالث شكل المبارزة بين فارس وآخر فأرسل داهر أحد فرسانه الشجعان المدعو (نكرجهيور) إلى الساحة وصاح: هل من مبارز؟ فبرز له أحد فرسان العرب فقُتل، ثم تلاه آخر فقُتل أيضاً، واستمر الحال حتى قُتل نكرجهيور، وانعكست الآية فكلما خرج فارس من جيش داهر قتله فرسان الإسلام، ثم تقدم الوزير سياكر إلى داهر وقال له: سيدي الملك: إنك تحارب بشكل خاطئ وإذا استمر الحال على هذا المنوال فإن جيشك وشجعانه القلائل سيقضى عليهم أجمعين ويبدو أنك لم تأخذ العبرة من قتال اليومين السابقين.

إنك لم تقابلهم أثناء عبورهم النهر والآن وبعد أن تجمعوا واحتشدوا أمامك، تقاتلهم فرداً فرداً، وهذا خطأ كبير وأرى من الصواب أن تجمع جيشك فرساناً ومشاة وعلى الفيلة وتهجم على جيش المسلمين هجمة رجل واحد فإذا انتصرت، بلغت مُرادَك وإذا انتصروا عليك فإن عار الهزيمة لن يقع على عاتقك لأنك جاهدت حق جهادك وسيعذرك الملوك، ولن يصيب العار والشنار أبناءك من بعدك.

ولما سمع داهر كلام وزيره، اقتنع بذلك وارتضى رأيه.

حرب اليوم الرابع

وهكذا جمع داهر في اليوم التالي أتباعه من أبناء الملوك وجيوشهم فكان عددهم خمسة آلاف مقاتل شجاع من الخواص، وستين سلسلة من الفيلة وقيل مائة سلسلة، وعشرين ألف مقاتل من المشاة مدججين بالدروع والمغافر والسلاح التام والرماح والسيوف، وجلس داهر على أكبر الفيلة وقد لبس سابغة القتال من الزرد وخوذة من الحديد ودرعاً من الفولاذ، وبجانبه اثنان من عبيده أحدهما يحضر الرماح والسهام والثاني يقدمها إلى جلالته.

داهر يبعث محمد العلافي مع ابنه جيسيه للقتال

لما جمع داهر جيشه وأعطى الأوامر للتقدم والقتال، أرسل محمد العلافي إلى ابنه جيسيه ومعه رسالة يقول فيها: لقد أرسلت إليك محمد العلافي وهو أعرف بقتال العرب، فلا تتقدم خطوة أو تتأخر خطوة حتى تأخذ رأيه ومشورته.

وكان ذلك اليوم هو اليوم التاسع من شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين مضين على هجرة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام.

وفي هذه الأثناء لما رأى محمد بن القاسم استعداد الكفار للحرب وتقدم داهر بجيشه صوب جيش المسلمين، أخذ محمد بن القاسم، يشجع أتباعه ويحضهم على القتال والوقوف بوجه الكفار، قائلاً: ياأبناء العرب اليوم يوم الجهاد، جاهدوا في سبيل الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اعتمدوا عليه سبحانه وتعالى حتى تتغلبوا على المشركين، حيث سيؤول الملك والحكم إليكم وتنتصر إرادة الله تعالى، أما إذا تخاذلتم وأصابكم الخوف والوهن والتردد فستكون الغلبة للأعداء، وسيقتلونكم جميعاً وأنتم في الحالتين إما قاتل أو مقتول وسوف لن يتركوا واحداً منكم حياً، إذا أحجمتم عن قتال المشركين فإن نصيبكم النار في الحياة الأخرى والعار في الحياة الدنيا.

ثم عين محمد بن القاسم، محرز بن ثابت الدمشقي[1] وأويس بن قيس على رأس ستة آلاف مقاتل على المقدمة على أن يعبروا ذلك المضيق المائي، وفعلاً عبروا ذلك المجرى المائي بين جيش الإسلام وجيش داهر. كما أجاز عطاء بن مالك القيسي وذكوان بن علوان البكري في أن يلتحقا ويعاونا مقدمة الجيش الإسلامي فعبرا أيضاً.

وهنا جاء محمد العلافي إلى الملك راي داهر وقال له: يا ملك الهند والسند إن الجماعة التي تقدمت إليك من الجيش العربي، هم من خيرة شجعان العرب وصناديدهم فإذا تمكنت من صدها فلك الغلبة والنصر وإذا لم تتمكن من صدها فإنك مهزوم لا محالة. ولتعش مليكنا المعظم!.

(١) جاء في بعض النسخ الخطية «محرز بن ثابت القيسي» ولا خلل في هذا فهو «قيسي ودمشقي» في آن واحد.

قتال داهر لليوم الرابع مع جيش العرب

وهكذا تقدم داهر بكل جيشه وقواته فوضع الفيلة في المقدمة وجمع في القلب القوات على شكل دوائر حوله وجعل المسلحين من المشاة حاملي الرماح والسهام في الميْسرة والمسلحين بالسيوف في الميمنة .

وفي هذا اليوم هرب عبيد بن عتاب من جيش محمد العلافي والتحق بمحمد بن القاسم وقال له : إن العلافي قال لداهر : إن هذه العصبة من مقاتلي الجيش العربي هي خيرة الفرسان والشجعان ، وإنهم سيعبرون الممر وقد قال داهر لأصحابه : اعبروا المجرى قبلهم وقد تهيأ المسلحون من جنوده لعبور النهر .

عند ذلك أمر محمد بن القاسم أتباعه بعبور المضيق ، فتقدم جميع الفرسان والشجعان المبارزين للعبور إلا القلب والخواص بقوا مع محمد بن القاسم . كما جعل موكه بن بسايه مع فوجه ، وكان محمد بن القاسم ومحرز بن ثابت في القلب وجهم بن زحر الجعفي في الميمنة وذكوان بن علوان البكري في الميسرة وعطاء بن مالك القيسي في المقدمة ونباتة بن حنظلة الكلابي في الساقة ، وعند ذلك تقدم محمد بن القاسم وخاطب الجيش قائلاً :

ياأبناء العرب ، إذا فزتُ بالشهادة فإن أميركم محرز بن ثابت وإذا فاز هو الآخر بالشهادة فإن أميركم سعيد .

قتال اليوم الخامس

تقدم محرز بن ثابت إلى المعركة وقاتل بجيشه حتى قتل فتقدم سعيد بجيشه ودعم القوات السابقة والتحق بالمعركة ، وفي هذه الأثناء أصيب حسن بن محبة البكري بجراح شديدة ، لكن جيش المسلمين بقي صامداً في ساحة الوغى ، وفي هذه الأثناء تحركت الفيلة وصنعت من نفسها تسع حلقات ، فحمل جيش الإسلام عليها فتشتت الكفار ، وتبعثر شملهم وارتدت الفيلة إلى مواقعها الأولى ، وانتهى النهار ورجع كلٌ إلى موقفه .

تاريخ العاشر من شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين

ذكر المؤرخون أن اليوم التالي لتلك المعارك الضارية، كان يوماً مشرقاً صافياً، وصادف يوم الخميس من الأسبوع.

فخرج داهر إلى المعركة وجعل ابنه جيسيه في القلب على رأس جيش قوامه عشرة آلاف فارس غارق في الحديد، بعضهم أسدل جدائله على كتفيه وقد استل سيفه، وبعضهم الآخر قد عقد شعره فوق رأسه مشهراً سيفه محتمياً بدرعه.

وتقدم جيش داهر حتى أصبح قبالة جيش المسلمين، وكان داهر قد جلس على فيله تحيط به الفيلة وعليها المسلحون على شكل دوائر وهو في القلب وعلى يمينه ابنه جيسيه وأبيّ بن أرجن وكوار الأكبر جد كوار الأصغر وجيبن ابن عم داهر وبشن بن هول وقيه بن بشن وعلى الميسرة دهرسيه بن داهر وبيل[1]ابن صاحب كنبه، ونائلة وجونه ومشيبد، كما جعل كبار وأعيان السند وبجهارى واستيراهل وسنج واسيار ولقيا آمار، وجملة الزط الشرقيين في مؤخرته، كما جعل السيّافين في القلب معه، واستخدم من الفيلة سلسلتين في الميمنة وسلسلتين في الميسرة، كما وضع الفرسان الآخرين وراكبي الفيلة تحت إمرة جاهين.

تعبئة جيش الإسلام على شكل ميمنة وميسرة وقلب

لما رأى محمد بن القاسم، داهر وجيشه وتنظيماته، خرج إلى الساحة وعين نباتة بن حنظلة الكلابي على ميمنة الجيش، وذكوان بن علوان البكري على الميسرة وأبا صابر الهمداني، وحاملي الألوية أمام الفيلة، وجعل هُذيل بن سليمان الأزدي وزياد بن خليد الأزدي والفرسان من نُميلة، ومسعود بن الشعري الكلبي، وكعب بن مخارق الراسبي في القلب.

ثم أنشبت المقدمة القتال، وقد تولى القتال محمد بن زيادة العبدي وبشر بن عطية مع مقاتليهما في طرف ومحمد بن مصعب بن عبد الرحمن الثقفي وخُريم بن عمرو المري في طرف آخر في قبالة داهر.

---

(١) هو في بعض النسخ الخطية الأخرى «بيان» و«بيل بن حاجب كنابه».

ولما انتظمت العساكر وتجمعت الجموع من المقاتلين والفرسان، وزع محمد بن القاسم، الفرسان إلى ثلاثة أقسام جعل كل ثلث منها في الميمنة والميسرة والقلب وما بقي منهم في المؤخرة لحماية الجيش، ثم نودي على حاملي المشاعل المشبعة بالنفط حتى يتهيأوا بعدتهم وعتادهم ونيرانهم، وتم توزيع تسعمائة رجل من حاملي المشاعل إلى ثلاثة أقسام أيضاً، فوضع ثلاثمائة رجل في القلب ومثلها في الميسرة وثلاثمائة أخرى في الميمنة واستعد جميع رماة السهام مع أقواسهم.

ولما انتهت صلاة الصبح اصطف المقاتلون من العشائر العربية براياتهم وأعلامهم على خمسة صفوف فشكل أهل العالية[1] الصف الأول وبنو تميم الصف الثاني وبنو بكر بن وائل الصف الثالث وبنو عبد القيس الصف الرابع والأزديون الصف الخامس، ثم التفتوا إلى محمد ابن القاسم طالبين الأوامر بالقتال والهجوم.

خطبة محمد بن القاسم الثقفي

ثم وقف محمد بن القاسم خطيباً في الجموع قائلاً: يا أبناء العرب، إن طائفة من الكفار وقفت في وجهنا للقتال، إنكم بعون الله تعالى أنتم الغالبون وبحوله وقوته ستذيقونهم سوء العذاب وتنتصرون عليهم، وسنستولي بعون الله على عيالهم وأموالهم وأولادهم، ونحصل منهم على غنائم كثيرة، عليكم أن تكونوا مطمئنين هادئين غير مترددين، ولا تتركوا مواضعكم وتقدموا بكل قوة واقتدار إلى الأمام ولا تنشغلوا بالتعاون مع بعضكم من الميمنة إلى الميسرة وغيرها، وليصمد كل مقاتل في موقعه لأن الله تعالى يجعل عاقبة المتقين الخير العميم، وطيبوا أفواهكم بذكر الله وبآيات القرآن الكريم، والهجوا دائماً بذكره وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم نادى على السقائين ليوزعوا الماء على العطاشى، ووقفوا في كل صف من صفوف المقاتلين ليوزعوا الماء عند الحاجة عليهم حتى لا يتحرك أي مقاتل من مكانه ولا يتركه.

(١) من أهل البصرة، ووقعت محلة أهل العالية فيما بين المربد والجامع، وأغلبية أهل العالية من المضريين من قريش. انظر خطط البصرة وبغداد لما سنيون ـ ترجمة عربية ـ ط. بيروت ١٩٨١: ١٦.

ثم جاءت جماعة من عشيرتي بكر بن وائل وبني تميم إلى محمد بن القاسم وقالوا له : إن معسكر الأعداء الكفرة قد استعد تماماً وهيأ العدة والعتاد وهو على أهبة الهجوم ونحن ننتظر أوامرك .

محمد القاسم يثير الحماسة في قلوب المقاتلين

عند ذلك التفت محمد بن القاسم إلى المقاتلين الأشداء وقال : يا بني تميم يا بني عُزير إن العدو قد جاء إليكم لمقاتلتكم وهو على أتم الاستعداد للحرب والمعارك فكونوا عليه أشداء أقوياء وانتظموا في صفوفكم ولا تفرطوا بمواقعكم .

واستثارت كلمات محمد بن القاسم صفوف المقاتلين والمجاهدين في سبيل الله ، وارتفعت أصواتهم بالنشيد والحماسة وخرجوا للحرب .

خطبة محمد بن القاسم في جموع المقاتلين

يروي المؤرخون والمصنفون عن فرقد بن المغيرة أنه قال : وقف محمد بن القاسم خطيباً في جموع المقاتلين في ذلك اليوم قائلاً :

أيها المسلمون ، استغفروا ربكم أكثر فأكثر واعلموا بأن الله سبحانه وتعالى قد حبا المسلمين من أمة محمد ﷺ بالكرامة في شيئين : الأول الصلاة على محمد المصطفى عليه السلام والثاني الاستغفار من الذنوب ، وتذكروا أن تكونوا أقوياء العزيمة حتى ينصركم الله تعالى على المشركين ويسلطكم عليهم .

وورد في الأحاديث والتواريخ أنه لما جاء محمد بن القاسم إلى ساحة القتال ، جعل سليمان بن نبهان وأبا فضة القشيري مولى الكندي مع مائتين من المقاتلين الأشداء، في المقدمة حتى يكونوا في قبالة القتال مع داهر وتكران وأتباعه ، حيث التحموا مع الفوج الكافر الذي برز للقتال وأمضوا فيهم السلاح تقتيلاً وتقطيعاً ، فقتل منهم من قتل وفرَّ الآخرون والتحقوا بجيش داهر بن جج ، فأرسل داهر فوجاً آخر لمقاتلة المسلمين في المقدمة ، فكبر أبو

فضة وهجم مع أتباعه هجمة رجل واحد وقضى على الفوج بين قتيل وجريح وطريح على الأرض، ثم أرسل داهر الفوج الثالث من تكران، فكبر أبو فضة ثانية، وأثار الحماسة في قلوب المقاتلين المسلمين فعمدوا إلى تقتيلهم وذبحهم وهم يتقدمون إلى الأمام حتى وصلوا إلى مقر داهر.

لجوء بعض الكفار إلى محمد بن القاسم وطلبهم الأمان

يذكر رواة التأريخ أن محمد بن القاسم قد توغل في صفوف الكفار وهزمهم. فجاء إليه بعض المقاتلين من المشركين وقالوا له: أعطنا الأمان أيها الأمير العادل، فأعطاهم الأمان فقالوا: لقد رجعنا عن غيِّنا وكفرنا، ودخلنا عز الإسلام، فاسمح لنا يا سيدنا بفوج من فرسانك حتى نذهب من خلف الكفار فيتردد جيشهم في القتال في جهتين، فيقع في كماشة الجيش الإسلامي، ويتم القضاء عليهم، وإن قلوبنا تحدثنا بأنهم سيذبحون بسيوف المسلمين.

اختيار محمد بن القاسم بعض أتباعه

ثم اختار محمد بن القاسم فوجاً من المقاتلين الفرسان الجلدين ونصب عليهم مروان بن أشحم اليمني وتميم بن زيد القيني أميرين كل واحد منهما يحمل علمه، وأمرهما بمهاجمة المشركين من المؤخرة.

ولما حمل هذا الفوج على الكفار، وتكبير المسلمين يشق عنان السماء، ذهل المشركون وانقسموا إلى شطرين يواجهان المسلمين من المقدمة والمؤخرة، ودبَّ فيهم الخوف والذعر.

هجوم الجيش العربي

في هذه الأثناء صاح محمد بن القاسم: يا جند العرب، اهجموا فقد انقسم الكفار إلى شطرين، فأطبق جيش الإسلام على المشركين من كل صوب وكان محمد بن القاسم يشجعهم قائلاً: اليوم هو يوم جهادكم.

والتحم الجيشان في هذا اليوم التحاماً شديداً وقتل العديد من الطرفين ، وكان داهر بن جج قد ركب فيله الأبيض وحواليه أربعمائة مقاتل مدجج بالسلاح الحديدي ، بأيديهم السيوف والدروع والرماح ، ومجموعة من السهام الحديدية تدعى باللغة الهندية (سيل) ، وقاتل هؤلاء الكفار بأسلحتهم الثقيلة حتى تشققت أيديهم .

وكان في يد داهر قوس عظيم من الحديد الدقيق يشبه السيف الحاد الدائري ، كلما تقدم منه أحد من المشاة أو الفرسان المسلمين ، ألقى بذلك السيف البتَّار الدقيق حول عنقه وفصل رأسه عن جسده ، وكان في خدمته عبدان أحدهما لتهيئة السهام والرماح والآخر يقدمها لسيده داهر .

وهكذا استمرت الحرب ضروساً في ذلك اليوم حتى صلاة العشاء حيث قتل الكثير من المشركين .

استشهاد شجاع الحبشي

يقول رواة الأحاديث عن (رام سيه) البرهمي أنه ذكر : كان بين المسلمين رجل يدعى شجاع الحبشي قد تجاوز حد الشجاعة وضرب به المثل ، وكانت له اليد البيضاء في الهيجاء ، وجاء إلى محمد بن القاسم وأقسم الأيمان المغلظة قائلاً : إنني لن أذوق أي طعام أو شراب حتى أصل إلى داهر وأجرح فيله ما بقيت روحي في جسدي وإلا فالشهادة مطلبي .

قتال داهر مع الجيش

وفي اليوم العاشر من شهر رمضان عام ثلاثة وتسعين ، خرج داهر إلى ساحة الوغى راكباً فيله الأبيض متحدياً الجميع ، وكان الحبشي راكباً فرساً أسود ، فتقدم لقتال داهر ، فأخبروا داهر بأن الحبشي قد جاء لقتاله ، فحمل داهر على الحبشي بفيله الجبار ، وتقدم الحبشي راكضاً بفرسه نحو داهر ، لكن فرسه احترز من الفيل ، وخاف من التقدم نحوه فعمد الحبشي إلى تغطية عيني الفرس بيديه ، وهجم على فيل داهر وجرحه في خرطومه .

وفي هذه الأثناء أخذ داهر سهماً ذا رأسين ووضعه في قوسه وصوبه بعناية ودقة فائقة إلى عنق الحبشي ففصل رأسه عن جسده وبقي الجسد خالياً من الرأس على قربوس الفرس، وصوب أتباعه السهام والرماح حتى لم يبق من ذلك الجسد غير أشلاء مبعثرة.

ثم هجم جيش الكفار بكل قدرة وقوة على المسلمين الذين أصابتهم الدهشة والحيرة، وتفرقت صفوفهم وظن الكفار بأن جيش الإسلام قد انهزم، كما أن محمد بن القاسم نفسه أصابته الحيرة، فنادى على غلامه أن أعطني شربة ماء، فشرب حتى ارتوى واشتد عزمه ونادى بكل صوته: يا أبناء العرب، أنا هو ذلك الأمير محمد بن القاسم، لماذا وأين تفرون، احملوا دروعكم واصبروا فإن الله مع الصابرين والهزيمة والعار للمشركين وإن الغلبة لنا بعون الله، وأثرت كلمات محمد بن القاسم في جيشه فتقدم موكه بن بسايه مع فوجه إلى ساحة المعركة، وترجلوا تاركين خيلهم.

محمد بن القاسم ينظم صفوف المسلمين

ثم تقدم محمد بن القاسم وصاح في القوم: أين أنت يا خريم بن عمرو المري؟ وأين أنتم يا كحلي الذهلي ومحمد بن مصعب بن عبد الرحمن ونباتة بن حنظلة الكلابي؟ وأين أنت يا دارس بن أيوب؟ وأين هم أبو فضة القشيري ومحمد بن زياد العبدي وتميم بن زيد القيني؟.

أيها الأنصار والأصحاب والأقرباء، أيها المسلحون والمضحون والحراس ورماة الرماح والسهام، كونوا خلف جيش الإسلام.

عليكم جميعاً بالصمود والوقوف في أماكنكم ولا تترددوا ولا تتخاذلوا واحفظوا صفوفكم وقوُّوا عزيمتكم وجلدكم.

هجوم محمد بن القاسم

بعد أن سمع جيش المسلمين نداء محمد القاسم، هجم هجمة واحدة على جيش الكفار بعد أن كبر محمد بن القاسم وذكر الله وحمده، لكن جيش الكفار بقي صامداً

متماسكاً مقاتلاً بكل ضراوة، واختلط الحابل بالنابل وحمي الوطيس واصطدمت السيوف بالسيوف وتطايرت الحراب والسهام والرماح وارتقت المشاعل في الفضاء وتكسرت البيض بعضها ببعض والتحم الجمعان بكل ضراوة وشراسة من شروق الصبح حتى انصرام العشاء، وقتل في هذه المعركة الضارية أكثر المشركين والكفار، لكن داهر بن جج ظل متماسكاً مقاتلاً هو وألف من أتباعه من أبناء الملوك حتى اصفرار الشمس وإلى ما بعد مغيبها.

خبر مقتل داهر

يروي المصنفون ومؤرخو الأخبار أن داهر بن جج في يوم الخميس العاشر من شهر رمضان المبارك لسنة ثلاث وتسعين مضين من الهجرة النبوية الشريفة، قُتل في حصن راؤر عند غروب الشمس.

ويروي أبو الحسن المدائني عن أبي الليث الهندي نقلاً عن أبيه أنه قال: لما حمل المسلمون على الكفار وقُتل أغلب المشركين، ظهرت في الأفق من ناحية الغرب مشاعل حمراء فعلم داهر أنه فوج من جيشه فصاح وصرخ (نسي من نسي من) أي أنا هنا، أنا هنا.

ظهور مجموعة النساء

عند ذلك ارتفعت صيحة النساء: أيها الملك نحن نساؤكم وقعنا في أيدي المسلمين فصاح داهر: كلا فأنا ما زلت حياً. وحمل بفيله على جيش المسلمين.

في هذه الأثناء صاح محمد بن القاسم: يا حملة المشاعل النفطية هذا هو وقتكم وموعدكم وتساقطت السهام المشتعلة على هودج داهر ورمى أحد الرماة المهرة بسهمه المشتعل فأصاب قلب الهودج وأشعل فيه النار.

رجوع الملك داهر

صاح داهر بسائس فيله، ارجع إلى الوراء فإن الفيل عطشان وقد اشتعل الهودج

بالنيران ، لكن سائس الفيل لم يتمكن من السيطرة على الفيل ووقع الفيل بصاحبيه في الماء وكاد داهر وسائسه أن يغرقا في الماء ، وكان بعض الكفرة من جيش داهر في الماء وبعضهم الآخر على الساحل ، وحينها وصل الفرسان العرب وتشرذم جيش الكفار وحلت به شر هزيمة .

وفي هذه الأثناء شرب الفيل ما يكفيه من الماء وحاول الخروج إلا أن رماة السهام أمطروه بوابل من السهام والرماح ، وصوب أحد الرماة المهرة من العرب سهمه إلى داهر وأصابه في قلبه فوقع من الهودج إلى الماء ، وتمكن الفيل من الخروج من الماء وهجم على الموجودين على الضفة وسحق في هياجه عشرات الجنود المقاتلين من الكفار وتفرق الباقون شذر مذر ، وتمكن داهر من الظهور في هذه اللحظة من الماء ، وتقابل وهو يسير على قدميه مع أحد المقاتلين العرب فرفع العربي الشجاع سيفه وضرب به رأس داهر فشقه نصفين حتى الرقبة .

واستمر القتال بين المسلمين والكفار المهزومين ، فلاحقهم الجيش العربي حتى حصن راؤر .

ثم خرج البراهمة الذين كانوا قد وقعوا في الماء أثناء هذه المعارك وكان المكان خالياً من المقاتلين ، فأخذوا جسد داهر وأخفوه في طيات التراب والأعشاب على الساحل .

ويروى عن هذه الوقعة التاريخية الحاسمة أن قايل بن هاشم كان قد أصابه ستة عشر جرحاً في يوم مقتل داهر ، لكنه كان يحمل بكل ضراوة على الكفار وهو ينشد الأبيات التالية :

إلا فاصبحاني قبل وقعة داهر ... وقبل منايا قد غدون بواكر
وقبل غد يالهف نفسي على غد ... إذا ما غدا صبحي ولست بباكر

ويقال إنه لما استشهد في المعركة ، حاول الكفار نزع سلاحه من بين يديه وعن جسده ، فلم يستطيعوا ذلك فدفن هناك في الخليج .

نداء محمد بن القاسم

نظر محمد بن القاسم وهو يجول في المعارك فرأى جيش ابن أخي عامر بن عبد القيس الذي كان قريباً منه فناداه قائلاً : يا بن أخي عامر بن عبد القيس ، ناد العامريين وقل لهم بأن داهر ما زال غائباً ولم يظهر له أثر ، وأخشى أن يكون بالأمر مكيدة ، كونوا يقظين فأجابه جيش قائلاً: أيها الأمير إن قلبي يحدثني بأن داهر قد قتل في المعركة.

لكن محمد بن القاسم استمر يسأل كل من رآه : إن داهر ليس في ساحة المعركة فهل تعرف ما حصل له ؟ حتى جاءه أحد البراهمة وطلب منه الأمان وقال : أيها الأمير العادل ، أعطنا الأمان والأوامر لي ولأتباعي حتى نثبت لك بأن داهر قد قُتل ، فلما أعطاه محمد بن القاسم الأمان ، قال ذلك البرهمي : إن داهر قد قتل وأخفيت جثته فيما بين أعشاب الخليج ، ثم ذهب بعض خاصته إلى هناك وأخرجوا جثته التي كانت ما تزال تفوح منها رائحة المسك والعنبر ، فقطعوا رأسه وخلعوا سلاحه وأتوا به إلى محمد بن القاسم ، فقال محمد بن القاسم : هل هناك من يعرف هذا الرأس ؟ ثم نودي على الغلامين اللذين كانا يصاحبان داهر في المعركة ولما حضرا تعرفا على رأس داهر.

وعند ذلك حزر محمد بن القاسم ثلاثمائة أسير من أسلاف وأتباع ذلك البرهمي ، وحمد محمد بن القاسم الله سبحانه وتعالى عندما رأى رأس داهر بن جج بين يديه وشكره ، وجمع أصحابه وأتباعه الذين أخذتهم الحرب بويلاتها ، وخطب فيهم فحمد الله الذي أعلى كلمته وأعز دينه بنصره لجند الإسلام ، كما أنه أعطى الأمان للصناع والتجار وأعادهم إلى مناطق سكنهم .

وقد نقل عن عمرو بن المغيرة الكلابي أنه قال : لما كنا عند الحجاج أثناء تعبئة المقاتلين وإرسالهم إلى محمد بن القاسم ، تقدم الحجاج نحو صفوف المقاتلين وشجعهم فرداً فرداً ، حتى وصل إلى عمرو بن خالد فقال له : يا عمرو إنني أرسلت محمد بن القاسم وبقية المقاتلين الأشداء ضد الكفار فما أنت صانع ، وهل سيكون منك عمل صالح ؟ ويذكر الراوي

بأنه في ذلك اليوم من المعركة، تقابل عمرو مع داهر وجرح فيله وضرب رأسه فجعله نصفين[١].

وعندما وصل عمرو إلى العراق وقدم رأس داهر إلى الحجاج قال: أعز الله الأمير، هذا عملي الصالح مع محمد بن القاسم، وأنشد الأبيات التالية:

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
أني فرجت الجمع غير مُعرَّد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجندلاً	متعفر الخدين غير موسد

ويروون عن محمد الهندي أنه سمع عن أبي مسهر عبد الأعلى أنه روى عن أهل الهند أنه لما أسرت (لادي) زوجة داهر بعد مقتله في تلك الواقعة المشهودة، أراد محمد بن القاسم أن يشتريها ليتسرى بها، فبعث برسالة إلى الحجاج يطلب فيها السماح له بشراء لادي، فنقل الحجاج رسالته إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك متوقعاً أن يأمر الخليفة بذلك، ثم وصلت رسالة من الوليد بن عبد الملك أصدر فيها أمراً مطلقاً ونافذ المفعول بشراء لادي من قبل محمد ابن القاسم، فاشتراها محمد بن القاسم واحتفظ بها كزوجة[٢].

خبر كيفية أسر لادي زوجة داهر

يذكر المحدثون نقلاً عن عقيل بن عمرو أنه قال: لما ولدت لادي ولداً من محمد بن القاسم، سألها كيف انفصلت عن داهر وكيف وقعت في الأسر؟ فقالت لادي: لما تقابل جيش المسلمين مع داهر، أوكل داهر نساءه إلى بعض حراسه الأشداء وقال لهم: إذا انتصر المسلمون وهزم الكفار، اقتلوا نسائي حتى لا يقعن في أيدي المسلمين، لكن حارسي كان

---

(١) لم يذكر المصنف اسم الذي تولى قتل داهر، وبما أن هذه الرواية قد رويت عن عمرو بن المغيرة الكلابي، وحيث أن البلاذري قد ذكر (ص ٤٢٦) نقلاً عن المدائني أن الذي قتل داهر كان من بني كلاب، وأورد الأبيات نفسها فلا يبعد أن «عمرو بن خالد» كان من قبيلة كلاب.

(٢) انفرد كتابنا هذا بذكر هذا الخبر.

دائماً ينظر إليّ ويقول هناك أرى بشارة دائماً على وجهك تحدثني بأنك تميلين إلى ملك العرب، ولسوف تكونين مليكته.

ولما هجم جيش العرب وانهزم المشركون، عمد جميع الحراس إلى قتل زوجات داهر واحدة بعد الأخرى، أما أنا فقد قفزت من محملي وتقدمت للقتال، ولم يقتلني حارسي بل فر هارباً، حتى وقعت في أسر المسلمين ثم اشتراني الأمير محمد بن القاسم وأهداني ولداً.

خبر الفتح السماوي وقهر الكفار

جاء في أحاديث مروية عن مشايخ السند وشيوخها بأنه لما جاءت الإمدادات السماوية الغيبية، ومنَّ الله بالنصر على العرب وهزم الكفار والمشركون، كتب محمد بن القاسم رسالة مفصلة حول كيفية الفتح المبين، وأرسلها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي.

رسالة محمد بن القاسم إلى الحجاج حول فتح السند ومقتل داهر وضبط البلاد

من محمد بن القاسم إلى أمير العراق والهند الحجاج بن يوسف:

بعد التحيات الوافرة والخدمات المتواترة فإن الله سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه منَّ بفضله العميم ولطفه الكريم، بعد قتال عنيف بين المقاتلين الشجعان من الجانبين والتضحيات الجمة، منَّ تعالى على جند الإسلام بالفتح المبين والنصر العميم، وتمَّ قهر داهر وانهزام جيشه وفرسانه وراكبي الفيلة المدججين بالسلاح، كما تم الاستيلاء على جميع الفيلة والخيل والمتاع والأقمشة والعبيد والمواشي، وقد بعثنا خمس تلك الغنائم إلى دار الخلافة، وإني أنتظر من كرم الله ولطفه أن تدين ممالك الهند والسند لنا بعد هذه المعركة الفاصلة التي قتل فيها داهر وجيش الكفار، وستكون تحت اقتدارنا وتمكيننا، وتدخل الإسلام إن شاء الله العزيز.

إرسال رأس داهر إلى العراق

ثم عهد محمد بن القاسم برأس داهر إلى صارم بن أبي صارم الهمداني على أن يرافقه في السفر إلى العراق كل من أبي قيس من بني قيس، وذكوان بن علوان البكري ويزيد بن مجالد الهمداني والحواري بن زياد العتكي، كما بعث إلى العراق أسماء ورؤوس زعماء الهند الذين اشتركوا في تلك الحرب الضروس وأبلوا فيها بلاء حسناً، وكتب رسالة أشار فيها إلى أن هذا الفتح قد تم بقوة وشوكة ومعونة ومظاهرة سادة العرب الذين رافقوا صارم بن أبي صارم.

مقالة الأمير الحجاج وسؤاله كعب

لما وصل رأس داهر ورؤوس بقية أتباعه وقادته وأعلام وأسماء الملوك التي كتبها محمد بن القاسم في رسالته إلى الحجاج، سأل الحجاج: من كان في الميمنة؟ فأجاب كعب بن مخارق الراسبي: أنا كنت في الميمنة فقال الحجاج: لقد ذكر محمد بن القاسم أسماء جميع أصحابه وجميع مهماتهم وأعمالهم وتضحياتهم ولكنه لم يكتب أي شيء عنك ولم يذكر اسمك، ما كان جهادك أثناء القتال؟ فقال كعب: لما دبَّ الرعب والخوف من الكفار في القلوب، كنت بجانب محمد بن القاسم وأخذت بزمام فرسه وكان هو متكئاً عليّ وقد لفَّ ساعده حول رقبتي واستشارني، ثم ذهبت أمامه أقاتل الأعداء وأذود عنه حتى قتل داهر بن جج.

ثم سأل الحجاج: هل كان محمد بن القاسم أثناء قتال الخصم العنيد، متردداً متغير الحال أم لا؟ وهل فرح بعد الفتح والانتصار؟ فقال كعب: عندما هجم الكفار والتحم الفارس بالفارس والراجل بالراجل واشتد صليل السيوف واشتباك الأعنة، وارتفعت نيران المشاعل في السماء، واشتبكت السهام والرماح، قال محمد بن القاسم: أطعمني الماء[1].

فقال الحجاج: لم يكن هذا خطأ، والله إن ما قاله ابن عمي ليس خطأ، ذلك أن البارئ عز وجل قد ذكر في قرآنه الكريم:

(١) أراد كعب هنا أن يعرض بابن القاسم، فدافع عنه الحجاج بالاستشهاد بالآية الكريمة وأنه يمكن للإنسان أن يقول أطعمني مثلما يقول اسقني أو أشربني.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾[1].

ولما وضع رأس داهر ورؤوس أتباعه وأعلام الملوك وملابسهم أمام الحجاج واصطف العبيد، برز رجل من بني ثقيف خلسة وأنشد هذه الأبيات حول فتح راؤر ومقتل داهر:

فتحت بلاد السند بعد صعوبة	ومهابة لمحمد بن القاسم
ساس الأمور سياسة ثقفية	بشهامة منه ورأي حازم
أذن الأمير له غداة وداعه	كان الأمير مؤدباً في العالم
ما غاب عنه من الأمور رزانة	فيه اليقين له عيان العالم
فبرمحه نصر الإله محمد	وبسيفه قامت نساء مآتم
وبكيده سارت بهامة داهر	دهم البغال إلى أغر قماقم
المال يسبقهم وكل خريدة	بيضاء آنسةٍ كظبي ناعم
لا رأس إلا رأس داهر فوقه	عند الملوك بخطبه المتفاقم
ونساؤه يبدين نوحة حُرَّةٍ	وخيوله تبكي بدمع ساجم[2]

وكان الحجاج يحب محمد بن القاسم كثيراً، ولما سمع تلك الأبيات فرح قلبه، وانبسطت أساريره وأنشد هذا البيت:

إن المنايا لا يُبالى حيفُها	ما لم ينلن محمد بن القاسم

ثم قال: أصبح واجباً علينا أن نكتب كل يوم رسالة إلى محمد بن القاسم ليبقى قوي العزيمة ويسير على ذلك المنوال نفسه.

وكان الحجاج يكتب الرسائل إلى محمد بن القاسم بصورة متواترة وابن القاسم يعمل على هديها وإرشادات الحجاج.

---

(١) سورة البقرة ــ الآية: ٢٤٩.

(٢) لم أقف لهذه الأبيات على ذكر في مصدر آخر.

حكاية تزويج الحجاج ابنته لمحمد بن القاسم

روى رجل من بني تميم عن يزيد بن كنانة أنه قال: سمعت عن أبي أنه قال: كنت يوماً عند الحجاج وكان عنده محمد بن القاسم فقال الحجاج له: يا بن عمي إنني أريد أن أوصلك للعزة والرفعة والعظمة، اطلب مني حاجتك، فقال محمد بن القاسم: أريد أن تجعلني أميراً وتزوجني ابنتك، وكانت بيد الحجاج في ذلك الوقت عصا صغيرة فضرب بها رأس محمد بن القاسم. ثم سأله ثانية، سل ما حاجتك؟.

فأجاب محمد بن القاسم بالجواب ذاته، فرفع الحجاج العصا مرة ثانية وأهوى بها على رأس ابن عمه ثم سأله للمرة الثالثة: اطلب حاجتك؟ وقل ما في قلبك فقال ابن القاسم: أريد ابنتك.

فقال الحجاج: أزوجك إياها شريطة أن تكون أميراً وتذهب بجيشك إلى بلاد فارس والهند فتفتحها، وتحصل على خزائنها وأموالها.

خطبة الحجاج بن يوسف في المسجد الجامع بالكوفة

يذكر مفسرو هذا السفر أنه لما وصلت بشائر فتح السند تتقدمها الرايات ورأس داهر بن جج إلى الكوفة، أمر الحجاج أن ينادي المنادي فيها للخطبة، ثم صعد المنبر وحمد الله وشكره وأثنى عليه لنصره عباده وجنده وصلى على الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، ثم أثنى على أولياء الأمور في الدولة المحمدية، وقال: هنيئاً لأهل الشام والعرب في فتح السند والهند وهنيئاً لهم ما حصلوا عليه من الأموال والمياه العذبة لشط مهران والنعم الوافرة التي أنعمها الله تعالى وأظهرها عليهم.

ثم قرأ رسالة فتح السند، وأعلن الفرح والابتهاج بين الناس وأنعم على جميع الطائفة التي كان لها اليد البيضاء في تلك الهيجاء بالمنزلة الرفيعة والإنعام الوافر، والملابس الملونة والمرصعة بالجواهر وحمل الهدايا والتحف والجواهر إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك مع جملة الذين ساعدوا جيش المسلمين في النصر.

جواب رسالة فتح السند التي كتبها محمد بن القاسم

ثم أجاب الحجاج على رسالة فتح السند التي كتبها محمد بن القاسم وقال فيها : لقد أثنيت مراراً على مصعب مولى ثقيف فكيف يجوز الثناء على الفاسق؟ إن لديك في الجيش رجالاً عظاماً ذوي بأس وشكيمة من بني تميم وبني سليم وأملك حبيبة العظمى ، وأخوك صُلبُ ابن القاسم وأبوك وعمك كانا من كبار القوم وعليتهم ، وليس فيك أي نقص أو فتور ، ولن أبدلك بهم ، فهل كان من الواجب أن تحمد في فتح داهر ، منافقاً؟ هل كان له مكان بين طائفة المجاهدين من الشاميين والعراقيين أمثال خريم بن عمرو ودارس بن أيوب ، ونباتة بن حنظلة ، وهذيل بن سليمان ومحمد بن مصعب بن عبد الرحمن ، وجهم بن زحر الجعفي ، وذكوان بن علوان البكري وكعب بن مخارق ؟.

وعليك أن تثني على أولئك الأبطال الميامين وأن تبتعد عن هوى النفس والمداهنة والأباطيل . والسلام .

خبر أسرى راؤر الذين كان بعضهم من أقرباء داهر

روى أبو أيوب الهاشمي أن رجلاً من أبناء جعفر بن سليمان مولى علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه وأرضاه كان جالساً عند الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وكان كعب بن مخارق الراسبي هناك أيضاً ، فقال الرجل : لما أتوا برأس داهر والأسرى من بنات الملوك وقفوا ووقف الأسرى الآخرون صفاً واحداً أمام الخليفة الوليد وكان كعب يعرفهم فرداً فرداً ، ولما أتوا بابنة أخت داهر ، استلطفها الخليفة وتعجب من حالتها وهيئتها ، ثم التفت إلى كعب وقال : إن هذه ابنة للملوك ونضرة المحيا ، خذها وتزوجها .

[قال كعب :] وكنت شاباً آنذاك فأخذت المرأة إلى داري وتزوجتها ، ثم جاءت أكثر النساء إلى جوارها وطلبن موعظتها وحكاياتها وسمعن منها وانتصحن بها ، لكنها لم تلد لي مولوداً واحداً .

جلوس جيسيه بن داهر ملكاً في حصن راؤر

يروي المؤرخون أنه لما قتل داهر وهزم جيشه، هرب ابنه جيسيه وزوجته راني بائي التي تزوجها، وهي أخته، مع جميع أبناء الملوك والأمراء إلى مدينة راؤر واعتصموا في داخل الحصن وكان جيسيه مغروراً بنفسه مفتوناً بشبابه وقوته وشوكته فوقف للقتال والحرب مرة أخرى ضد العرب، وقد انضم إليه محمد العلافي، وحينما سمع جيسيه بمقتل داهر قال لأتباعه وقادة جيشه: لابد من الوقوف بوجه الأعداء وألا نستسلم للعار والهزيمة، فإذا قتلنا فلنا الشرف الرفيع.

فقال الوزير سياكر: إن رأي الأمير ليس صواباً، لقد قتل ملكنا داهر، وهزم جيشنا وتفرق شملنا ونفرت قلوبنا من الرعب من قتال العدو، لماذا تريد الحرب، طالما أن الولاية مستقرة والمدن والدساكر الباقية والحصون والمقاتلون في المناطق الأخرى ما انفكت تدين لك بالملكية والولاء؟.

إنني أرى أن من الصواب أن نتوجه إلى حصن برهمناباد وهو ميراث الآباء والأجداد وهو مسقط رأس داهر، وفيه خزائنه وأتباعه وأمواله وسكان المنطقة موالون لعائلة داهر جج، ولسوف يكونون جميعاً في صفك إذا نشب القتال.

ثم سأل جيسيه محمد العلافي عن رأيه فيما قاله الوزير سياكر، فقال العلافي: إن الرأي الصواب هو ما قاله الوزير. وهكذا وافق جيسيه على هذا الرأي وكذلك بقية الأعيان والأمراء وانتقلوا إلى برهمناباد، وبقيت بائي زوجة داهر في حصن راؤر لمقاتلة العرب ومعها جيش تعداده خمسة عشر ألف مقاتل، وقفوا جميعاً حتى الموت، ولما سمع محمد بن القاسم بمقاومة بائي مع جيشها في حصن راؤر، تقدم بجيشه وحاصر الحصن وبدأت المنجنيقات ترمي الأحجار الضخمة وكذلك رماة السهام والرماح.

فتح حصن راؤر وبائي أخت داهر تحرق نفسها

ثم عبأ محمد بن القاسم جيشه وجعله فوجين والكل يرمي الحجارة والسهام والرماح

والمشاعل النفطية، فاندلعت الحرائق من كل حدب وصوب، وبدا للعيان الهزيمة المرتقبة لجيش الكفار.

جمعت بائي جميع نساء الحصن وقالت لهن: لقد انفصل وذهب عنا جيسيه وداهمنا محمد بن القاسم وليس لنا مفر من هؤلاء الغزاة، ولقد تبدل عزنا بالذل والهوان والفرصة قليلة أمامنا، ليس لنا أمل في النجاة وما بقي لنا إلا أن نحرق أنفسنا ونلتحق بأزواجنا، ثم جمعت النسوة الأخشاب والقطن والحطب وأضرمن النار فيها وألقين بأنفسهن في لهيب النار المشتعلة[1]، وبعدهن فتحت أبواب الحصن ودخل محمد بن القاسم مظفراً منتصراً وبقي هناك لمدة ثلاثة أيام، وقتل ستة آلاف مقاتل من أهالي راؤر، ثم أسر الباقين من الرجال والنساء والأطفال من المدنيين.

ذكر أعداد السبايا والنقود والأقمشة

ذُكر في الأحاديث أنه لما تم فتح راؤر، استولى جيش المسلمين على جميع الخزائن والأموال والسلاح وجاؤوا بها إلى محمد بن القاسم عدا تلك التي أخذها معه جيسيه إلى برهمناباد، ولما أحصوا عدد العبيد من الأسرى، ظهر أن عددهم ثلاثون ألف عبد أسير منهم ثلاثون امرأة من بنات الملوك بينهن ابنة أخت داهر المسماة (حسنة) حيث أرسلوهم جميعاً إلى الحجاج في العراق. كما أرسلوا رأس داهر وخمس العبيد من الأسرى بصحبة كعب بن مخارق الراسبي إلى العراق.

ولما وصل رأس داهر والسبايا العبيد من النساء والأموال إلى الحجاج بن يوسف، خرّ ساجداً لله الواحد القهار شاكراً إياه على ما منّ به عليهم من النصر المبين، ثم قال: بهذا وصلت إلي جميع خزائن وأموال وملك الدنيا.

الحجاج يرسل رأس داهر وأعلامه إلى دار الخلافة

أرسل الحجاج رأس داهر وما حصل عليه من الأموال والسبايا والأسرى إلى الخليفة

(١) ذكر ذلك البلاذري في فتوح البلدان: ٤٢٦.

الوليد بن عبد الملك، وعندما وصلت إلى الوليد حمد الله وشكره على نعمائه ثم أخذ ببيع العبيد والجواري ويهدي بعضها الآخر.

ولما رأى حسنة ابنة أخت داهر تعجب من ثبات جأشها وجمالها وحسنها ورشاقة قدها، وكان علي بن عبد الله بن العباس في مجلس الخليفة آنذاك فطلبها من الوليد لنفسه قائلاً: يا بن العم إنني أرى هذه الجارية كاملة الحسن والتكوين والمحتد، وقد فتنت بها وأريد منك أن تهديني إياها لأبقيها عندي، وتكون أماً لولدي، فأهداها الوليد إلى ابن العباس، وبقيت تحت ذمته مدة طويلة ولكنها لم تلد له ولداً[1].

رسالة الحجاج بعد فتح راؤر

يذكر الرواة أنه لما تم فتح راؤر وجاءت رسالة فتحها إلى الحجاج، أرسل الحجاج كتاباً جاء فيه:

يا بن العم وصلتنا رسالتك، وكانت سبباً في سرورنا وفرحتنا وأغدقت الجمال والكمال على مباهاتنا، وعلمنا بأن كل ما كان من الأسس والقواعد المطبقة كانت وفق ما ورد في الشرع إلا إعطاءك الأمان للخاص والعام بدون تمييز، وكذلك عدم تفريقك وتمييزك للعدو من الصديق، عليك التقيد بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[2]﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾[3].

وعليك أن تعلم بأن أمر الله عظيم، وعليك أن لا تكون حريصاً على إعطاء الأمان، ومن الآن عليك أن لا تعطي الأمان للأعداء حيث سيعتبر العوام ذلك ضعفاً، وفتوراً منك ومن المسلمين والسلام.

---

(١) سبق للمصنف أن أورد حكاية عن مصير الأسرى وقريبة الملك داهر، وتعدد الروايات حول القضية الواحدة مسألة معروفة كثيرة الورود في المصادر العربية.

(٢) سورة آل عمران ــ الآية: ١١٨.

(٣) سورة محمد ــ الآية: ٤.

كتبه نافع[1] سنة ثلاث وتسعين.

جيسيه يبعث بالرسائل من برهمناباد إلى أرور وباتيه وبقية المقاطعات

ينقل رواة الأحاديث من مشايخ البراهمة أنه بعد مقتل داهر اللعين، وتوجه جيسيه إلى حصن برهمناباد كان فتح راؤر وإثر ذلك عمد جيسيه إلى كتابة الرسائل إلى الملوك والأمراء والأتباع يحضهم على القتال والوقوف بوجه المسلمين، فبعث برسائل إلى أخيه (قوفي بن داهر) وكان في دار الملك من حصن أرور وأخرى إلى جج بن دهرسيه ابن أخيه، ملك باتيه وثالثة إلى دهول بن جندر ابن عمه ملك بُدهيه وكيكان.

خبر معارك بهرور ودهليله وفتحهما

لما سمع محمد بن القاسم نبأ استعداد جيسيه للقتال والحرب، صمم على فتح برهمناباد فتوجه بجيشه إليها، وكان في الطريق إليها حصنان هما بهرور ودهليله، فوصل أولاً إلى بهرور، وكان في هذا الحصن حوالي ستة عشر ألف مقاتل، ولما وصل محمد بن القاسم إلى هناك حاصره حوالي الشهرين أبقاه فيهما تحت رحمة المنجنيق والمشاعل النفطية المحترقة والمبارزات الفردية للفرسان، حتى إذا تم قتل جميع جنود المدينة جرى فتحها فقتل من بقي من المسلحين المقاتلين وأخذ الأسرى والسبايا والعبيد والأموال، وأرسل خمسها إلى دار الخلافة.

ولما وصل خبر فتح راؤر وبهرور إلى دهليله، علم أهلها بأن محمد بن القاسم مصمم على قتالهم وفتح مدينتهم، ولا أمان لهم فيها ففر التجار إلى الهند، ولكن الرجال المقاتلين بقوا في المدينة للدفاع عنها، ثم وصل إليها محمد بن القاسم وبقي محاصراً إياها مدة شهرين[2] حتى ضاقت السبل بأهل الحصن وقل الغذاء والمؤن. ولما علم المحاصرون بأن العون والمدد لن يأتيهم

---

(١) هو مولى الحجاج وكاتب رسائله. انظر تاريخ خليفة بن خياط: ٤١٢/١.

(٢) من المحتمل أن بهرور ودهليلة اسمان لموقع واحد وأن المصنف دمج بدون شعور بين روايتين، ومن المعتقد أن دهليله اسم مصحف صوابه دمليلة البلدة التي عرفت فيما بعد باسم دمريله ثم أصبح الآن نوهاتو في سهوب أوماركوت الحالية.

بأية حال، لبسوا جلباب الموت وتعطروا بالطيب، وأرسلوا أطفالهم ونساءهم إلى مدينة رمل وعبروا نهر منجهل والمسلمون غافلون عن كل ذلك.

هرب ملك دهليله

ولما أصبح الصباح ولاح الفجر الصادق لذلك اليوم، علم محمد بن القاسم بهرب تلك الطائفة من القوم، فأرسل بعضاً من جنده في أعقابهم، فلحقوا ببعضهم أثناء عبور أحد الأنهار وعمدوا فيهم ذبحاً وتقتيلاً إلا من اجتاز ذلك النهر حيث وصلوا إلى رسل وريكستان بهندوستان ومن هناك إلى بلاد الهند وسيؤر[1] وكان ملكهم (ديوراج) ابن عم داهر بن جج.

فتح دهليله وإرسال خمس الغنائم إلى دار الخلافة

لما أتم محمد بن القاسم قتال دهليله وفتحها أرسل خمس الغنائم إلى دار الخلافة ثم بعث بكتاب فتح شرح فيه بالتفصيل فتح (بهروز) ودهليله، إلى الحجاج.

حضور الوزير سياكر عند محمد بن القاسم وطلبه الأمان

لما تم فتح دهليله، بعث محمد بن القاسم بالرسائل إلى ملوك الهند وأمرائها طالباً منهم الطاعة والولاء والدخول في الإسلام، ولما وصل هذا النداء إلى الوزير سياكر، بعث بأتباعه إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان فأعطاه إياه، فتوجه سياكر ومعه النساء المسلمات الرهائن[2] إلى محمد بن القاسم وقال: هؤلاء هن النساء اللائي استغثن بالحجاج وصحن واحجاجاه.

---

(١) هي سيروهي في الهند.

(٢) المراد هنا ما تبقى من هؤلاء النسوة فقد سبق أن حكى خبر إطلاق سراح بعضهن بعد فتح الديبل.

سياكر يصبح وزيراً لمحمد بن القاسم

لما وصل سياكر مع النساء الرهائن وأتباعه وكبار رجالات الدولة إلى محمد بن القاسم، أحسن ابن القاسم استقباله وأكرمه وعززه هو وأتباعه، وفوض له وزارة البلاد باعتباره مستشاراً للمسلمين، وكان محمد بن القاسم يستشيره في أي أمر يخص البلاد ومناطقها وشعوبها، وتشاور معه في جميع أمور ومصالح السلطنة وكان سياكر يقول لمحمد القاسم دائماً: إن هذا الرأي الحصيف الذي يتحلى به أميرنا العادل، هو الذي أدى إلى الضبط والسيطرة على ممالك الهند جميعاً.

وكان محمد القاسم يراعي آداب وقواعد البلاد فدانت له الممالك جميعاً وقهر الأعداء واستمال الرعية وهذّب أخلاق العامة ولم يتعرض لأصحاب المصالح والعمال.

تعيين نوبة بن هارون والياً على دهليله

يُروى أنه لما تم فتح دهليله، أرسل محمد بن القاسم في طلب نوبة بن هارون، وأخذ العهد عليه وعينه والياً على منطقة دهليلة الممتدة إلى دهاتيه وحتى الساحل الشرقي والغربي من (بي كا) إلى (جزوي) وعهد له كذلك بإدارة السفن في النهر، حيث كانت المنطقة تبعد مسافة إحدى [وأربعين] فرسخاً عن برهمناباد وقد وصل الخبر إلى جيسيه بأن جيش الإسلام يواصل تقدمه إلى برهمناباد.

نزول الجيش العربي عند نهر جلوالي
ودعوة المشركين إلى الإسلام

ترك محمد بن القاسم مدينة دهليله وتوجه بجيشه إلى برهمناباد حتى وصل إلى نهر جلوالي[1] شرقي مدينة برهمناباد، وعسكر بجنده هناك وبعث برسوله إلى المدينة طالباً من

(١) لعل نهر جلوالي كان مجرد قناة كبيرة عسكر محمد بن القاسم على ضفتها الغربية، ومن المحتمل أن ابن القاسم عبر هذه ←

أهلها الدخول في الإسلام أو دفع الجزية وإذا لم يستجيبوا إلى أحد الأمرين فليتهيأوا للقتال .

وكان جيسيه بن داهر ملك برهمناباد قد استعد للحرب قبل وصول رسول محمد بن القاسم، ودخل حصن مدينة جنيسر واختار ستة عشر رجلاً من رؤساء المدينة وأعيانها وجعلهم على أبواب المدينة الأربعة ، وجعل على كل باب من تلك الأبواب أربعة من قادته على فوج من جيشه .

وكان أهم تلك الأبواب باب (جريطري) الذي عهد به إلى أربعة من رجاله الشجعان وهم (بهارتد) و(سانيا) و(هاليه) والرابع (ساله) .

نزول محمد بن القاسم في أول شهر رجب[(١)]

لما وصل محمد بن القاسم إلى أطراف المدينة، أمر بحفر خندق عظيم حولها ثم بدأ القتال في أول يوم من أيام شهر رجب الفرد، وكان المشركون يخرجون يومياً للقتال والمبارزة قارعين الطبول وعددهم أكثر من أربعين ألف مقاتل، مواصلين الحرب من الصباح حتى المساء ثم يعودون إلى حصنهم والمسلمون إلى خندقهم وكانت الحرب تحصد العديد من الطرفين .

وهكذا استمر الحال لمدة ستة أشهر ، وكان جيسيه قد ذهب إلى ولاية الملك راسل التي يقال لها باتيه ، واتفق معه على ضرب المسلمين من الخلف وإيذاء جيش الإسلام .

القناة بعد فتحه لبرهمناباد وقصده الشمال ، وما تزال آثار هذه القناة قائمة حتى الآن فيما بين قناة جراو (إلى الغرب) ومدينة جهول (إلى الشرق) في سنجهورو الحالية في مقاطعة سنجهار ، وعلى ضفة أحد المجاري المهجورة قرية اسمها جراري ، ويُذكرنا هذا الاسم باسم النهر القديم ، وكانت قناة جلوالي تتفرع عن نهر مهران عند كالري على بعد عشرة أميال شرقي سكرند ثم تجري فتتجاوز مدينة المنصورة العربية من الشرق ، ثم تعود باتجاه الغرب الجنوبي لتنضم ثانية إلى المجرى الرئيسي للنهر على بعد حوالي عشرة أميال أسفل المنصورة ، وتقع كالري الآن في مقاطعة سنجهار على بعد ثلاثة أميال إلى الشرق من مدينة نواب شاه .

(١) لا يمكن الوثوق تماماً بالتواريخ المذكورة بالأصل.

إرسال مبعوث إلى موكه

عندما يئس محمد بن القاسم من السيطرة على الحصن ، بعث برسوله إلى موكه بن بسايه يقول له : إننا نلاقي الأمرّين من أذى جيسيه ، وهو يضيّق الخناق على جيشنا فما الحيلة في ذلك؟ فأجابه موكه : إن مكان جيسيه قريب من جيش المسلمين وليس هناك أي حل سوى إجلائه من المنطقة ، ولهذا عليك أن تجند جيشاً كبيراً وتهجم عليه حتى يفر من المنطقة .

ذهاب جيسيه إلى جترور

استمع محمد بن القاسم إلى مقولة (موكه بن بسايه) فبعث جيشه إلى جيسيه وعلى رأسه نباتة بن حنظلة الكلابي وعطية بن ثعلبية وصارم بن أبي صارم الهمداني وعبد الملك المدني ومعهم موكه بن بسايه ، ولما سمع جيسيه بقدوم جيش العرب ، جمع ماله وعياله وأتباعه وذهب عن طريق صحراوي إلى منطقة تدعى (جنكن وعورا أوكايا)[1] وهي من بلاد جترور ، كما انفصل عنه محمد العلافي قاصداً بلاد (طاكيه) ليكون في خدمة ملك كشمير حيث وصل إلى روستان وهي علي الحدود ، وكانت راجيئري[2] دار الملك في منطقة جبلية ولما وصل إليها بعث إلى ملكها يقول : باختياري ورغبتي من كل قلبي جئت لخدمتكم .

ذهاب العلافي إلى ملك كشمير

لما قرأ ملك كشمير رسائل العلافي وعلم بخبره ومجيئه إليه ، أعطاه مقاطعة في أطراف كشمير يقال لها (شالكهار) ليكون أميراً عليها .

استقبال ملك كشمير للعلافي وإكرامه له

لما وصل العلافي ذلك اليوم إلى ملك كشمير ، أكرم وفادته واستقبله وأهداه خمسين

(١) لم يرد هذا الاسم برسم واحد في الأصول المخطوطة ولذلك تعذر ضبطه وتحديد موقعه .

(٢) هي كما هو مرجح «راجوْري» العاصمة التاريخية لكشمير .

فرساً وهدايا كثيرة أخرى إلى أصحابه، ثم بعث جهم بن سامه الشامي إلى مقاطعة شالكهار، وبقي العلافي مكرماً معززاً في المنطقة حتى وافاه الأجل فجلس مكانه في الولاية جهم بن سامة، وما زال أحفاده ليومنا هذا[1] يعيشون في المنطقة، بعد أن تم بناء المساجد وعلت منزلته لدى ملك كشمير.

ذهاب جيسيه إلى جترور

لما ذهب جيسيه إلى بلاد جترور وأقام هناك، بعث برسائل إلى أخيه قوفي بن داهر الموجود في أرور، وشرح له سبب انتقاله إلى بلاد جترور وأوصاه بالمحافظة على حصن أرور.

لما قرأ قوفي بن داهر رسالة أخيه، اشتد عزمه وقوي قلبه بسبب ذهاب جيسيه إلى بلاد جترور.

لما طالت حرب مدينة برهمناباد واستمر حصار محمد بن القاسم لهذه المدينة أكثر من ستة أشهر ذهب جيسيه إلى جترور ووصل مدينة جنيسر، وبقيت المدينة (برهمناباد) بدون ملك، اجتمع أربعة من كبار تجار المدينة في باب جريطوري وتشاوروا في الأمر وقالوا: إن جيش العرب منتصر لا محالة على جميع البلاد، وقد قتل راي داهر، واستمر حصار مدينتنا أكثر من ستة أشهر، ونحن لا نملك القوة والاقتدار على مواصلة القتال، ولا نحن في سبيل الصلح والسلام، وإذا استمر الحال على هذا الشكل، فإنه سيتم فتح المدينة بعد أيام معدودة خاصة وليس هناك من يغيثنا ولا احتمال لوصول المعونة والمؤن إلينا، كما ليس هناك ملك نلتجئ إليه.

والآن علينا أن نتفق على أمر واحد، وهو أن نتعاضد ونتماسك ونخرج جميعاً كرجل واحد ونقاتل المسلمين خارج المدينة حتى نقتل، وربما بعد ذلك يتم الصلح ويحصل الزراع والصناع على الأمان من بعدنا، أو أن نذهب إليهم ونأخذ منهم العهد الوثيق بالأمان ونسلم الحصن ونعلن ولاءنا وطاعتنا. واتفق التجار أخيراً على هذا الرأي وبعثوا برسول إلى محمد بن القاسم ليعطيهم الأمان لهم ولعيالهم وأطفالهم.

---

(١) أي أيام علي الكوفي مترجم الكتاب، ومن المفيد أن الحديث عن التجاء العلافي إلى كشمير فيه أول إشارة إلى دخول الإسلام إلى هذه البلاد.

إعطاء الأمان والعهد الوثيق

وهكذا تم الاتفاق وأعطاهم محمد بن القاسم الأمان بيد أنه دخل المدينة في قتال ضار ضد المسلمين فقتلوهم جميعاً وأسروا جميع أتباعهم وأهلهم حتى وصل عدد الأسرى إلى ثلاثين ألف أسير.

ويذكر الرواة عن فتح هذه المدينة العظيمة أن محمد بن القاسم استدعى موكه بن بسايه وقال له: إن رُسُل برهمناباد قد أتوا إلينا فاستمع إلى عرضهم وأعطني رأيك وهم يطلبون الأمان.

فقال موكه: أطال الله عمر الأمير: إن هذا الحصن هو دار الملك بالنسبة للهند والسند ومن فتح هذا الموضع فإن جميع بلاد السند ستكون تحت سيطرته وسوف يمكنه السيطرة أيضاً على جميع الحصون الأخرى وستبتعد قلوب الناس عن آل داهر فبعضهم سيهرب وبعضهم الآخر سيطأطئ رأسه طاعة وولاء.

وبعد ذلك نقل محمد بن القاسم هذا الرأي إلى الحجاج وكتب له رسالة حول ذلك بالتفصيل فأجازه الحجاج بذلك.

ثم أرسل محمد بن القاسم مبعوثاً إليهم طالباً منهم تعيين اليوم والمكان لإنجاز المهمة، فجاءه الرد بأنه في اليوم الفلاني سوف نخرج من باب جريطري فتوجهوا أنتم إليها، ونتظاهر بالقتال مع بعضنا بعضاً وعندما يحمل علينا جيش العرب نتظاهر بالهزيمة ونرجع إلى الحصن تاركين الباب مفتوحاً حتى يتمكن جيش العرب من ملاحقتنا ودخول الحصن، ونقل محمد ابن القاسم نص الخطة إلى الحجاج فكتب له الحجاج قائلاً: أعطوهم الأمان والعهود الموثقة.

وفعلاً تمت الخطة ووصل جيش العرب إلى باب جريطري واستمر القتال بين الطرفين لفترة قصيرة، ولما حمل الجيش العربي بجموعه الغفيرة، انهزم البرهمناباديون ودخلوا الحصن وتركوا الباب مفتوحاً فدخله العرب وكبر المسلمون.

ولما رأى أهل الحصن دخول المسلمين من باب جريطري بأعداد هائلة وأن النصر

لا محال حليفهم فتحوا البوابة الشرقية وعمدوا إلى الفرار، عند ذلك وقف محمد بن القاسم وكبر وقال: لا تقتلوا أحداً غير المسلح المحارب، ومن كان بيده السلاح وهو هارب فخذوه أسيراً، ومن أراد الأمان وأعلن الطاعة اتركوه ولا تدخلوا البيوت الآمنة، وهكذا تم فتح مدينة برهمناباد وقتل الكثير من الكفار، وتمّ أسر الآلاف وجاؤوا بهم مع عيالهم وأتباعهم وأطفالهم وأقمشتهم وأموالهم إلى محمد بن القاسم.

خبر وقوف امرأة داهر وابنه في القتال

تذكر الأحاديث الشعبية[1] نقلاً عن أعيان مدينة برهمناباد أن زوجة داهر وقفت بعد مقتله في حصن برهمناباد وقالت: كيف يمكننا أن نترك أرض الأجداد والآباء ونسلم هذا الحصن؟ إننا يجب أن نبقى هنا مدافعين عن أموالنا وحياضنا وعيالنا، ثم فتحت أبواب الخزائن ووزعت الأموال والجواهر والحلي على المناضلين المقاتلين الشجعان لتحضهم على القتال، وقالت لهم: إنه لو تم فتح هذا الحصن فإنني سأحرق نفسي وأتباعي وعيالي وأطفالي.

وبعد قتال مرير تم فعلاً فتح الحصن واستسلم الجميع، وجاء الأمناء إلى بوابة دار داهر وأخرجوا أتباع ومقاتلي داهر حتى لا يهلكوا جميعاً وأخذوا لادي زوجة داهر أسيرة.

أسر لادي زوجة داهر واثنتين من بناته

لما تم فتح حصن برهمناباد القوي، وقُتل وأُسر من أُسر، وجيء بالغنائم والعبيد من الأسرى إلى محمد بن القاسم وسئل كل منهم عن اسمه اتضح أن لادي زوجة داهر واثنتين من بناته من بين الأسرى الجواري، فألبسوهن الخمر وأجلسوهن في مكان منعزل عن الآخرين.

إحصاء الخمس والعبيد

بعد ذلك تم إحصاء الغنائم، واستُخرج خمسها، وكذلك تم إحصاء العبيد من

(١) هذه حكاية جديدة حول مصير زوجة داهر تتناقض بتفاصيلها مع ما ورد من قبل.

الأسرى، فظهر أنهم عشرون ألف أسير من الرجال والأطفال والنساء، فاستخرجوا خمسهم وأُعطي الباقون إلى الأتباع والحشم.

إعطاء الأمان إلى الصناع والتجار

ثم أُعطي الأمان للصناع والتجار وعوام الناس وتركوا بعضاً من أسراهم وتشكلت محكمة لرد المظالم ومحاكمة الذين حملوا السلاح وقاتلوا ضد المسلمين، ويروى أن ستة آلاف من رجال الحرب تمت محاكمتهم وقتلهم وأُفرج عن الباقين.

استطلاع أخبار أتباع داهر من البراهمة

ذكر المؤرخون لما تم فتح برهمناباد وأُخذ العبيد الأسرى إلى محمد بن القاسم لم يشاهد أحد بين الأسرى من أتباع داهر فسُئِل عنهم فلم يعرف أحد مكانهم أو مصيرهم.

ثم كان اليوم الثاني فجاء ألف رجل دين برهمي حليقي الرؤوس واللحى إلى مقر محمد ابن القاسم.

مجيء البراهمة إلى محمد بن القاسم

لما رأى محمد بن القاسم هؤلاء البراهمة سأل: من أي طائفة هؤلاء؟ وكيف وصلوا هكذا إلينا؟ فأجاب البراهمة: أيها الأمير إن مليكنا كان من البراهمة ولما وصلنا خبر قتله وانتقال الملك منه إلى العرب، قتل بعض البراهمة أنفسهم وفاء له وبعضهم حلق لحيته وشعر رأسه ولبسوا الملابس الصفراء واعتكفوا في معابدهم، وبما أن الله تعالى قد منَّ عليك بملك هذه البلاد فإننا جئنا إليك أيها الأمير العادل حتى تحكم بما تشاء على الأحياء الباقين منا.

فقال محمد بن القاسم: قسماً برأسي ونفسي! إنهم أوفياء لمليكهم وإنني أعطيهم الأمان شريطة أن يجلبوا لي كل من يقع في أيديهم من أتباع داهر.

عهد محمد بن القاسم للبراهمة وإعطاؤهم الأمان

وهكذا وفى البراهمة بعهدهم لمحمد بن القاسم فأحضروا أولاً لادي زوجة داهر إلى محمد ابن القاسم، ثم جلبوا بقية الرعايا والأتباع. فكان محمد بن القاسم يعاملهم على سنة الرسول محمد ﷺ فمن تشرف بعز الإسلام ترك ليمضي في سبيل حاله وله ماله وعياله وضياعه، أما الذين لم يؤمنوا بالإسلام ديناً فقد فرضت عليهم الجزية، وكانوا ثلاثة أفواج حسب مستوياتهم المالية والاجتماعية، فكان الفرد من الفوج الأول الرفيع المستوى يدفع أربعين درهماً والفوج الثاني أربعة وعشرين درهماً والثالث اثني عشر درهماً، وقيل لهم اذهبوا الآن ومن يُسلم منكم بعد اليوم فلا جزية عليه ومن أراد البقاء على دين آبائه وأجداده فعليه أن يستمر في دفع الجزية فبقي بعضهم على دينهم وأسلم بعضهم الآخر فلم تؤخذ منهم الجزية، ولم تؤخذ منهم ضياعهم وخيلهم وأموالهم.

تعيين البراهمة والأمناء على البلاد

بعد ذلك عمد محمد بن القاسم إلى تعيين البراهمة الذين ساعدوه على إيجاد أتباع داهر، كلٌ حسب اختصاصه واستحقاقه في المناصب، وخصص لهم المال باعتبار كل فوج أمناء على واحد من منافذ الحصن الأربعة وأعطى كلاً منهم الثياب الأميرية الهندية اللائقة بهم، وأجلسهم في المحافل على العروش التي كانت مخصصة لأمراء وملوك الهند.

توزيع الأموال على العوام المتضررين

ثم نودي على العوام المتضررين بالحرب، والذين نُهبت أموالهم أثناء القتال من عوام الناس والصناع والتجار والكسبة الصغار وتقرر إعطاء كل منهم اثني عشر درهماً.

تنصيب الجباة لأموال الدولة

ثم تمَّ تعيين الدهاقنة ورؤساء المنطقة جباة لأموال الدولة ليضبطوا الأموال في المدن والقرى والأرياف.

إبقاء البراهمة في مواقعهم الاجتماعية

وهكذا حافظ البراهمة على مكانتهم الاجتماعية، وأعلن للناس بأن البراهمة هم من أكابر وأعيان البلاد، ومواقعهم مكرمة معززة ومحفوظة.

رسالة محمد بن القاسم بشأن البراهمة

حافظ محمد بن القاسم على المكانة الاجتماعية للبراهمة وأصدر أمراً خاصاً بهم، حيث تم تعيين كل منهم في منصب مناسب له، وأجزل لهم العطاء، وكان يعلم أنهم لا يميلون إلى الحقد والكراهية والإضرار بالآخرين.

تعيين البراهمة في المناصب

قضت قوانين البراهمة أيام الملك جج أن يُعيّن كل برهمي في عمل ما يتقنه، وهكذا جمع محمد بن القاسم البراهمة، وقال لهم: لقد عُهد إلى كل واحد منكم أيام داهر بن جج بأشغال خطيرة ومنصب هام وكنتم على علم بأحوال المدن والبلاد، عليكم أن تعلمونا عن كل فرد من الأعيان والشخصيات الاجتماعية حتى نقدم له التقدير والاحترام الاجتماعي، ونسبغ عليه من نعم الله تعالى، ولما كنت مصدقاً لوفائكم وأمانتكم فإنني أعينكم لهذه الأعمال، وتبقى عملية الإصلاح في عهدتكم، وسوف تكون هذه المسؤولية بعهدتكم وتنتقل بعدكم إلى أولادكم وأحفادكم ولن يتولاها سواكم.

ذهاب البراهمة بكل شجاعة إلى القرى والأرياف

ثم توجه البراهمة إلى القرى ونادوا: أيها المعارف والمشاهير ليكن في علمكم أن داهر قد قتل، وقد انتهى عهد الكفار، وأصبحت جميع نواحي الهند والسند تحت السيطرة العربية ولا فرق بين مدينة وقرية فالكل يجب أن يدين بالولاء للعرب ويطيع الخليفة السلطان العظيم، لقد أرسلونا إليكم حتى نشرح لكم الأمور وننفذ أوامرهم، فإذا لم نطع أوامرهم فلا مال ولا معاش لنا، وعليكم أن تؤدوا الجزية إلى العرب، ومن لم يستطع أداءها فعليه أن يغتنم الفرصة المناسبة ويذهب بعياله وأطفاله إلى مكان آخر من الهند أو السند لم يدخل العرب إليه، ويكون في أمان هناك وليس هناك أعز من النفس البشرية، ومن دفع الجزية فهو آمن، ماله آمن وعياله آمنون.

تعيين الجزية على القرى والمدن

انصاعت القرى والمدن لنداء الأمير محمد بن القاسم وقدمت الجزية من الأموال وغيرها كل حسب المقرر عليه، واستفسروا من البراهمة الذين أرسلهم محمد بن القاسم عن مقدار الخراج والجزية فأعلموهم بذلك، ونصحوهم أن يعطوا الخراج بالتساوي حتىّ يمكن الحفاظ على المملكة والبلاد.

نصائح محمد بن القاسم إلى الخلق

كان محمد بن القاسم يقدم النصائح والمفاهيم لكل من يلقاه من البراهمة قائلاً: كونوا سعداء في كل المجالات، وأدّوا أعمالكم على أحسن وجه، وأنا لا أريد منكم تعهداً خطياً بذلك، وأعطوا كل ذي حق حقه واستمعوا لكل شاك وأعطوه الجواب الشافي وأوصلوا مرام كل فرد إلى قلبه.

مجيء البراهمة إلى محمد بن القاسم لشرح أحوالهم

كان البراهمة قبل الإسلام يعيشون في المعابد على الهبات والصدقات والمساعدات التي يقدمها التجار والصناع من الكفرة، وكانوا يقيمون الطقوس الدينية لهم، وبعد الفتح انقطعت تلك الإعانات وقلت الأموال والمؤن وصارت بهم خصاصة فتجمهروا عند دار الإمارة وقالوا: أيها الأمير العادل نحن من الرهبان ومعاشنا وحياتنا كانت من إعانات المعابد.

وإنك أيها الأمير قد رحمت التجار والكفرة وأصبحوا من الذميين على أن يدفعوا الجزية لكم، لذا نرجو رحمتكم وعطفكم ومن كرم الله تعالى أن تشيروا عليهم بالرجوع إلى عبادة أوثانهم حتى يمكننا العيش في المعابد ونؤمن معاشنا منها. راجين أن تكون العبادة في معابدنا حرة، حتى يؤمها الناس والتجار والصناع.

جواب محمد بن القاسم

أجاب محمد بن القاسم بأن دار الملك هي أرور، وكل النواحي الأخرى مضافة إليها، فقالوا: إن تعمير البلاد والمعابد كان يتم عن طريق البراهمة، وهم حكماؤنا وعلماؤنا، وأمور الزواج والمآتم موكولة إليهم، وقد قبلنا الخراج والجزية حتى يذهب كلٌّ إلى معبده، وهذه المعابد الآن قد هُدمت وبقيت الأصنام بدون خدمة، لذا نرجو من الأمير العادل أن يأمرنا بعمران تلك المعابد والأصنام حتى ترجع الرعية الكافرة إلى عبادتها السابقة وتعتاش من خدمتها.

رسالة محمد بن القاسم إلى الحجاج ووصول الجواب

بعث محمد بن القاسم رسالة إلى الحجاج شارحاً له مطالب البراهمة بتعمير معابد أصنامهم، فأجاب الحجاج قائلاً: يا ابن العم العزيز محمد بن القاسم لقد وصلتنا رسالتك واطلعنا على أحوالكم وأحوال أهل البلاد المفتوحة، أما ما يخص البراهمة فإنهم ما داموا قد دانوا بالطاعة والولاء للحكام المسلمين وقبلوا بتقديم الخراج والجزية المقررة عليهم، واعتبروا أن أموال دار الخلافة في ذمتهم، ونحن لا نرى غير المال حقاً لنا عليهم، وبعدما أصبحوا ذميين إنه لا يحق

لنا التصرف في دمائهم وأموالهم، لهذا فقد أُعطيت الإجازة كي يعبدوا معبودهم ولا يحق لأحد أن يمنعم ويزجرهم عن عبادة أصنامهم.

وصول رسالة الحجاج

لما وصلت رسالة الحجاج، كان محمد بن القاسم قد استقر في مكان خارج المدينة فأرسل إلى البراهمة يستدعيهم ولما جاؤوا إليه قال: لقد وصلني الجواب ويحق لكم أن تقيموا طقوس دينكم وتبنوا معابدكم، وأن تشتروا وتبيعوا مع المسلمين وأنتم في أمان في كل ذلك، وعليكم أن تساعدوا فقراء البراهمة وتقيموا أعيادكم ومراسمكم على سنة آبائكم وأجدادكم، وأن تعطوا البراهمة الصدقات التي تقدم إليهم كما كنتم في الماضي وأن تعطوهم من كل مائة درهم من أصل أموالكم[1] ثلاثة دراهم ويبقى الباقي في الخزانة بعهدة النواب المعينين، وأعلمهم بما قاله في هذا الباب كل من زيد بن تميم القيني والحكم بن عوانة الكلبي.

وكان من رسوم الكفار أن يذهب البراهمة إلى دور الناس وبأيديهم الأواني يطرقونها فيتصدقون عليهم بالمال والغلال والأعلاف.

محمد بن القاسم يعطي الأمان لسكان برهمناباد

ثم أعطى محمد بن القاسم الأمان لعوام الناس في مدينة برهمناباد في ممارسة طقوسهم الدينية كما يؤديها اليهود والنصارى والمجوس في العراق والشام وأعطوهم الإجازة في ذلك وأطلقوا على زعمائهم اسم (رانة).

محمد بن القاسم يرسل خلف الوزير سياكر

أرسل محمد بن القاسم خلف الوزير سياكر وموكه بسايه وقال لهما: في عهد داهر بن جج كيف كانت أحوال زط لوهانه ومعاملتهم من قبل الملك جج؟ فقال الوزير: في ولاية راي

---

(١) المقصود هنا من المرابح لأن الضريبة فرضت على جماعة التجار في برهمناباد.

جج، أعطى زط لوهانه أي لاكهه وسمه، أوامر في أن يكون لباس الملوك والأمراء من المخمل الناعم فوق الرأس وبقية الجسم من الأعلى والأسفل من القماش الأسود، ويوضع شال على الكتف، وعندما يخرجون من قصورهم تصاحبهم الكلاب وخلال تجوالهم لا يجوز لأي كبير أو تاجر أو عظيم ركوب الخيل في حضرتهم إلا بأوامرهم، وإذا فكر أحد الأعوان والأكابر أن يركب الفرس بحضورهم فعليه أن يركبه بدون لجام وعذار، وكان دائماً يأخذ بعض العظماء والكبار رهائن عنده، فإذا قام أحد أفراد القبيلة بالسرقة أو بأي جرم آخر ألقى ذلك العظيم مع عياله وأفراد أسرته طُعمةً للنار، وكانوا في تعاملهم مع الناس وحشيين وكان الملك يستعين أحياناً بقطاع الطرق لقضاء حاجاته، فقال محمد بن القاسم: ويل لهم، عجباً كم كانوا أناساً مكروهين، تماماً كما في بلاد فارس والعراق وكوه بايه.

ثم أوصى محمد بن القاسم ولاته أن يسيروا على سنن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه التي استنها على بلاد الشام وأن يكرموا الضيف ليلاً ونهاراً وإذا كان غير مرغوب به فإن إكرامه لا يتجاوز الثلاثة أيام.

رسالة محمد بن القاسم إلى الحجاج

بعد أن انتهى محمد بن القاسم من أعمال برهمناباد ولوهانه، وحدَّد الخراج ووجوب ذلك على الزط، بعث برسالة مفصلة عن أحوال البلاد وعادات أهلها وكيفية التعامل معهم.

وكان محمد بن القاسم يكتب تلك الرسالة وهو على مسافة قليلة من نهر جلوالي في برهمناباد وشرح له كيفية السيطرة التامة على بلاد السند.

جواب الحجاج

وأجاب الحجاج رسالة محمد بن القاسم قائلاً: يا بن العم إن ما كتبته عن أحوال البلاد والرعية والجهود التي بذلتها لاستتباب الأمن والدفاع هو موضع التقدير والحمد من قبلنا، واعلم أن أموال كل موضع ومنطقة قد تم ضبطها وتعيينها، ومعاملة كل صنف من

الرعايا تم شرحه وتوضيحه بحيث يؤدي ذلك إلى ضبط البلاد والنظام في الدولة، وعليك أن لا تتوقف في المكان الذي وصلت إليه، فإن عماد بلاد الهند والسند هما أرور والملتان وهما دار الملك عند ملوك الهند، وفيهما خزائن ودفائن ملوك البلاد، وإنك حتى لو سكنت لفترة قصيرة في مكان آخر يجب عليك أن تضبط كل بلاد الهند والسند، وكل من أبى وتكبر عن طاعة الإسلام اضرب رقبته وإن الله تعالى قد حباك بالنصر المبين، وقد قدّر لك أن تتسلم كل بلاد الهند والسند حتى حدود الصين، وقد تم تعيين الأمير قتيبة بن مسلم الباهلي القرشي من أجل فتح الصين، وسوف أرسل إليه جميع الرهائن وأسرى العراق، وسيرافقهم إليه جهم بن زحر بن قيس[١]، وعليك أن تتصرف وتعمل كي يبقى اسم القاسم[٢]مرفوعاً وضاء للجميع تضطرب منه قلوب الأعداء وتخشاه إن شاء الله.

وصول رسالة من الحجاج

ووصلت رسالة من الحجاج إلى محمد بن القاسم، وكان قد جاء فيها أيضاً: يا محمد، عليك أن تقوم بالمشورة معنا في الرسائل لأنها رأس مال الفطنة والاقتدار، ولا تغفل عن

---

(١) لحق النص الأصلي بعض الاضطراب جرى تقويمه استناداً لما جاء عند اليعقوبي والطبري، فلقد كتب ابن القاسم إلى الحجاج يستأذنه بالتقدم فكتب إليه: سر وأنت أمير على ما فتحته، كما كتب إلى قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان: «أيكما سبق إلى الصين فهو عامل عليها وعلى صاحبها» (اليعقوبي: ٢/٢٨٩).

وذكر الطبري (٦/٤٨٤): «وكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم الثقفي أن وجه من قبلك من أهل العراق إلى قتيبة، ووجه إليهم جهم بن زحر بن قيس، فإنه في أهل العراق خير منه في أهل الشام» وقدم جهم على قتيبة سنة خمس وتسعين.

كان لدى الحجاج مشروع لفتح الصين، ووضع خطته على قيام تعاون بين قتيبة الذي كان عليه أن يزحف من بلاد ما وراء النهر، وبين محمد بن القاسم الذي توجب عليه الزحف عبر شبه القارة الهندية، وأيهما سبق صاحبه فهو الأمير.

هذا وبالنظر للمغمز من نسب باهلة جاء في رسالة الحجاج «القرشي» لأن قريش سيدة مضر، ولا شك أن الحجاج فعل هذا لسروره العظيم ورضاه عن انجازات قتيبة الرائعة في بلاد ما وراء النهر.

(٢) جاء في المحبر لمحمد بن حبيب (٣٨٠) أن القاسم والد محمد كان واحداً من حمقى ثقيف، وقد أراد الحجاج بإشارته هذه إلى أن أعمال محمد بن القاسم سترفع من مكانة القاسم وتزيل ما لحق به.

إرسالها بسبب بعد المسافة ، واحرص أن يكون المقدمون الأربعة بين أعيان كل بلد تنزل فيه من أتباعك فاستملهم إليك.

تعيين محمد بن القاسم لأربعة أنفار من مقدمي كل بلد للحفاظ على مصالحها

بعث محمد بن القاسم خلف وداع بن حميد البحري وعينه أميناً ووالياً على مدينة برهمناباد وأوصاه أن يعهد بأعمال القرى والقصبات إلى أربعة تجار ، وأن يوضحوا له دائماً جميع الأمور الجزئية والكلية وعليهم أن لا يقوموا بأي عمل لوحدهم أو فيما بينهم إلا بمشورته وبعد تلقي أوامره.

كما عين نوبة بن دارس على حصن راوُر حتى تتم السيطرة على تلك المنطقة ، ويقوم بتهيئة السفن دائماً وتفتيش ومراقبة كل سفينة قادمة أو مغادرة فإذا وجد سفينة تحمل السلاح فعليه مصادرته وجلبه إلى راوُر ، وعهد بالسفن المبحرة في أعالي المياه إلى ابن زياد[1] العبدي ، وأعطى ناحية (قصة) التي كانت ملك دروهر ملك كيرج[2] ، إلى هذيل بن سليمان الأزدي وجعل ولاية دهليلة إلى نباتة بن حنظلة الكلابي ، وأوصاه أن يخبره كل شهر بكل ما يستجد في المنطقة.

كما وعين قيس بن عبد الملك بن قيس العبدي وخالد الأنصاري على رأس ألف مقاتل وبعثهما إلى سيوستان ، وعهد بأعمال نيرون والديبل إلى مسعود التميمي وابن شيبة الجديدي وفراس العتكي وصابر اليشكري ، وعبد الملك بن عبد الله الخزاعي ، ومهنى بن عكه والوفاء ابن عبد الرحمن ، لضبط البلاد والسيطرة على أعمالها.

---

(١) هو محمد بن زياد العبدي.

(٢) كانت ناحية قصة بجانب كجج وربما جزء منها أو هي بلاد كجج نفسها وذلك استناداً لما أورده البلاذري (٤٢٦) الذي قال: «بلاد راسل ملك قصة».

ولربما كانت كجج تتبع إدارياً لدوهر أو دروهر حاكم جوجارت الذي كانت عاصمته كيره ، وكيرج هي الصيغة المعربة لكيره التي تقع على بعد عشرين ميلاً إلى الغرب من أحمد أباد المركز الرئيسي الحالي لمقاطعة كيره ، هذا وعرفت كيره أحياناً باسم خيده أو خيره.

كما جعل عاملاً على أشبهار[1] رجلاً يدعى: مليح وهو من موالي بني بكر بن وائل، وعسكر ذكوان بن علوان البكري وقيس بن ثعلبة في تلك المنطقة مع ثلاثمائة من أتباعهم ومواليهم وصحبوا أبناءهم ونساءهم وتم ضبط جميع نواحي بلاد الزط[2].

مواصلة محمد بن القاسم الفتح وخبر نهضته

يروي الأمير محمد والي منطقة (ساوندي سمه)[3] أنه لما أتم محمد بن القاسم إحكام الأمور والسيطرة على برهمناباد والمناطق الشرقية والغربية واستتب الأمر له. توجه يوم الخميس الثالث من شهر محرم سنة أربع وتسعين خلت للهجرة ونزل في موضع يقال له (منهل) يقع بالقرب من (ساوندي سمه) على حافة ترعة ونهر صغير تحيط به الخضرة من كل جانب اسمه (دنده وكربهار)[4] وكان أهل المنطقة من النهريين والسمنيين والتجار فجاؤوا إليه وأعلنوا له الولاء والطاعة فأعطى محمد بن القاسم الأمان للجميع حسب أوامر الحجاج حتى يبقى كل السكان هناك في نعيم ورفاه وأمان على أن يؤدوا الخراج والجزية من أموالهم في أوقاتها إلى الخزانة، وعين لهم مقدارها، ونصب اثنين من أهالي المنطقة لهذا العمل وهما (سمني بواد)

---

(١) كانت اشبهار واقعة إلى الغرب من نهر السند، وعندما وصل إليها كانت القوة الرئيسة التي وقفت ضده من الزط ومن آخرين استوطنوا إلى الغرب من نهر السند.

(٢) تفيد هذه الإشارة أن محمد بن القاسم لم يكتف بتنظيم المناطق المفتوحة إدارياً بل شرع في إسكان القبائل العربية فيها بغية تعريبها.

(٣) الأصح «ساوندري سمه» أي حاضرة بلاد «سمه» وكانت جزءاً من إقليم لوهانه وكانت تقع بين لوهانه في الجنوب ولكه في الغرب وسهته في الشمال وساوندري هي الآن قرية كبيرة اسمها «ساواري» واقعة على بعد بضعة أميال إلى الغرب من محطة السكك الحديدية داور في مقاطعة نواب شاه.

(٤) تعني كلمة «دنده» باللغة السندية «بحيرة» ومن الواضح أن كلمة «وكربهار» هي اسم معبد بوذي حملت البحيرة اسمه، ويرجح أن «وكربهار» هي «ثول ميرروكان» حيث ما تزال أطلال البرج البوذي قائمة حتى يومنا هذا، على بعد حوالي الميلين من قرية ساواري إلى الجنوب الغربي منها، وهناك آثار بحيرة قديمة أو مجرى نهر قديم.

هذا وإذا ما قمنا بعمل حسابي دقيق نجد أن الثالث من محرم لسنة ٩٤هـ هو يوم الأحد التاسع من تشرين الأول لسنة ٧١٢م، وأن الثالث من محرم لسنة ٩٥هـ هو يوم الخميس الثامن والعشرين من أيلول عام ٧١٣م، وبناء عليه إذا صح وكان الأمر يوم الخميس فإن العام ينبغي أن يكون /٩٥/ وليس /٩٤/. وفي الحقيقة إن جميع التواريخ المقدمة في كتابنا تحتاج إلى ضبط ومقارنة.

والثاني (بديهني بهمن دهول). ثم كتب محمد بن القاسم رسالة إلى الحجاج يخبره بمجريات الأمور، فأجابه الحجاج بأنه علم بالأوضاع وأوصاه بقتل كل من تحدثه نفسه وتطاوعه على قتال المسلمين وحبس أبنائه وبناته، وأن يعطي الأمان لأولئك الذين يأتون إلى الطاعة ويعطون الأموال التي بذمتهم وأن يضبط التجار والزراع، وأن يطبق القانون على الجميع من حيث جباية الأموال، وأن يأخذ من كل من تشرف بعز الإسلام عشر ماله أو زرعه، ومن بقي على دين آبائه وأجداده، عليه أن يدفع من أمواله وزراعته، حصة الديوان حسب قانون الولاية.

وبعد ذلك توجه محمد بن القاسم من هناك إلى (هراور)[1] ونزل فيها ثم بعث فاستدعى سليمان بن نبهان وأبا فضة القشيري مولى كنده وحلفه بالله عز وجل وبأولاد كنده أن يبقى هو وجماعة جند بن عمرو وبني تميم أحياء وأرسلهم إلى (بهرج) كي يقيموا فيها كما أرسل عمرو بن المختار الأكبر الحنفي، وضوى تحت لوائه عدداً من ذوي الألقاب والأسماء العربية الهامة[2].

---

(١) الأصح «بهراور» أو «به هراور» على افتراض نزول ابن القاسم على ضفاف نهر جلوالي، والاعتقاد أن «بهراور» هي «بهيرا» الحالية، وبهيرا اسم يطلق على مدينة وكان من قبل يطلق على مقاطعة سكنها شعب بهيرا، وقد عثر قرب هذه المدينة على نقود عربية تعود إلى فترة الفتوحات، وهذا ولم يأت البلاذري على ذكر «بهراور» بل ذكر أن ابن القاسم (٤٢٦) قد سار ضد بسمد، التي من الصعب تحديد موقعها علماً بأنه عثر على نقود عربية في أطلال اسمها «بهام جودارو» أي «هضبة بهام» قرب محطة السكك الحديدية بندهي الواقعة إلى الشمال الشرقي من ساوراي (ساونلري).

هذا وتحدث كل من الاصطخري في المسالك والممالك (ص ١٧٥) وابن حوقل في صورة الأرض (ط. ليدن ١٩٣٨ ص ٣٢٢) عن بسمد على أنها بلدة مزدهرة تقع على بعد قرابة فرسخ إلى الشرق من مهران إلى الجنوب من الملتان، وإذا كان ماقصده البلاذري هذه المدينة فإن ابن القاسم قد فتحها بعد العاصمة أرور.

(٢) عقد ابن القاسم الصلح بين طائفتين هامتين متعاديتين من جنده وأسكنهما في بهرج. وقد ورد ذكر بهرج من قبل على أنها واقعة على جبهة مكران ــ السند، وكان لموقعها أهمية استراتيجية آنذاك وفيما بعد وكانت البوابة إلى السند والديبل وقندابيل.

وذكرت بهرج فيما بعد على أنها مدينة في وسط السند (المسالك والممالك للاصطخري ط. القاهرة ١٩٦١: ١٠٢) وذكرها ابن حوقل (صورة الأرض: ٢٧٩) والمقدسي في أحسن التقاسيم باسم «فهرج» وأنها تقع مع سدوستان (سيهوان الحديثة) إلى الغرب من مهران.

استقبال قبائل سمه

وصل محمد القاسم إلى مضارب قبائل سمه[١] فاستقبله الناس بالرقص والتزمير والهتاف، فسأل: ما هذه الضوضاء؟ فقيل له: إن عادات أهل البلاد وهذه القبائل أنه إذا جاءهم عظيم أو ملك يقرعون الطبول ويرقصون على أنغامها.

فتقدم خريم بن عمرو إلى محمد بن القاسم وقال له: أصبح الآن واجباً علينا أن نحمد الله ونشكره إذ سخر لنا هؤلاء الناس ومكننا من الكفار حيث تمت سيطرتنا على هذه البلاد.

وكان خريم هذا داهية وعاقلاً ومتديناً وذا أمانة.

فضحك محمد بن القاسم من قوله، وقال: تفضل وقل لهم ليواصلوا الرقص واللعب فأخذ خريم عشرين ديناراً مغربياً[٢] من الذهب ووزعها عليهم وقال: هذه عادات البلاد والملوك والهبات هي صدقات ونعم يقدمونها.

نزول محمد بن القاسم في لوهانه في أطراف سهته[٣]

ينقل راوي الأحاديث علي بن محمد المدائني عن عبد الرحمن بن عبد ربه السليطي أنه قال: لما انتهى محمد بن القاسم من أعماله في لوهانه، توجه إلى سهته وعسكر هناك فجاء أعيان المدينة ورؤساؤها حفاة الأقدام حاسري الرؤوس يطلبون الأمان فأعطاهم الأمان

(١) كانت مستوطنات قبائل سمه نائية في الريف الواسع إلى الشرق من بهرور، حيث كان النهر يقع إلى الغرب، كما أن إقليم سهته الذي سار إليه فيما بعد كان في الشمال.

(٢) هذا التحديد عائد كما هو مرجح لعصر الكوفي وليس لعصر الحادثة، وغالباً ما ارتبط الدينار المغربي بالخلافة الفاطمية.

(٣) يفيد هذا أن محمد بن القاسم قام بعد إخضاع لوهانه بالسير قدماً نحو الشمال إلى إقليم سهته، وكان إقليم لوهانه يشتمل على مقاطعتي برهمناباد ولوهانه مع مقاطعتي لاكه وسمه، وكان أكهم زعيم لوهانه قد جعل مقاطعة سهته تحت نفوذه، وتشتمل مقاطعة سمة على المنطقة الوسطى في ساونديري وعلى بهرور في الشمال ومستوطنات سمه النائية في الشرق، وعلى هذا كانت تشمل سهوب نواب شاه مع القسم الجنوبي من مقاطعة خير بور، وسكن الشعب السهتي إقليم سهته، وكانت مدينة دربيلو (الآن دربهرو في تالوكا كنديارو في مقاطعة نواب شهر) عاصمة هذه المنطقة وكان يعيش فيها زعماء سهته، وقد حافظت على مكانتها حتى بُعيد منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

وخصص لهم مبلغاً من المال، ثم واصل طريقه إلى أرور وأخذ الرهائن في طريقه إلى هناك، وكانت أرور دار الملك للرايات (الملوك) الهنود يسكنها التجار والصناع وكبار الزراع.

وبعد مقتل داهر، جعل ابنه قوفي مدينة أرور عاصمة له، وكان يقول دائماً لأتباعه وللناس بأن راي داهر لم يمت، وإنما ذهب إلى الهند ليأتي بالمدد والعون والسلاح، وذلك ليدخل الطمأنينة والاستقرار إلى قلوب مقاتليه ليتمكنوا من صد الجيش العربي.

ولما وصل محمد بن القاسم إلى أطراف مدينة أرور وأصبح على مسافة ميل واحد. عسكر هناك، وأقام السرادق وبنى مسجداً للمسلمين، وظل يخطب فيه أيام الجمعة لمدة شهر واحد.

القتال ضد أهالي أرور

بقي أهالي أرور محاصرين وهم مصممون على القتال ظناً منهم بأن داهر سيأتيهم بالمدد، وكانوا يصرخون كل يوم من فوق الحصن بالعرب قائلين: لا تضحوا بأنفسكم أيها العرب جزافاً وهدراً، فإن داهر سيأتي بالعون والمدد ومعه جيش جرار من الفيلة والفرسان ويطوقونكم من الخارج فتهلكون لا محالة، وإنكم تهدرون أموالكم وأنفسكم والأفضل لكم أن تلوذوا بالفرار.

لادي زوجة داهر تخاطب أهالي حصن أرور

لما رأى محمد بن القاسم بأن أهالي مدينة أرور قد صمموا على المقاومة وأنهم ما زالوا يعتقدون برجوع داهر، حاول إقناعهم عن طريق زوجة داهر، فأركبها على بعير أسود، وتقدم بها مع مجموعة من الفرسان الشجعان إلى الحصن، ولما وصلت هناك رفعت صوتها قائلة: يا أهل حصن أرور، إنني لادي زوجة داهر، أنصحكم وأريد التحدث إليكم فليأت بعضكم ليستمع إلى أقوالي، فجاءت مجموعة من الأكابر والأعيان في المدينة إلى سطح الحصن حتى تراهم لادي. وحينما رأتهم قالت:

أنا لادي زوجة مليككم داهر، لقد قتل مليكنا داهر وأرسلوا برأسه إلى العراق مع الرايات والعبيد والأموال، فلا تهلكوا أنفسكم بدون طائل. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1]، ثم صاحت وبكت وولولت، لكن أهل حصن أرور لم يصدقوها قائلين: أنت لا تقولين الحق وتكذبين وقد طاب لك العيش مع هؤلاء العرب آكلي لحوم البقر، إن مليكنا المحبوب داهر ما زال حياً وسوف يأتي بالسلاح والعتاد والفرسان والمقاتلين ويهزم أعداءه العرب، لقد لوثت نفسك بالأعراب وفضلت الدولة على المُلك ولطخت اسمك وسمعتك، ولما وصل هذا الخبر إلى محمد بن القاسم، أمر بعودتها وقال: لقد دالت دولة آل سيلائج.

اختبار الساحرة لموت داهر

يذكر رواة الأحاديث أنه كان في مدينة أرور امرأة ساحرة تدعى باللغة الهندية (جوكِن) فذهب قوفي بن داهر وبعض أعيان المدينة إليها وقالوا لها: إننا نتوقع منكِ ومن علمكِ أن تخبرينا أين هو الآن داهر؟ فقالت المرأة الساحرة: أعطوني مهلة يوم واحد حتى أستطلع علومي وأعلمكم غداً بمكان داهر، وذهبت المرأة الساحرة إلى بيتها وبعد ثلاثة أيام جاءت وبيدها غصن أخضر مثمر من شجرة الجوز، وقالت: لقد استخدمت كل علومي ومعارفي وسحري لمعرفة مكان داهر حتى أتيت بهذا الغصن الأخضر من سرانديب، لكنني لم أجد أثراً لداهر وهذا يعني أنه ليس حياً ولا موجوداً على الأرض إطلاقاً[2].

استسلام حصن أرور بعد أخذ العهود والمواثيق

لما انتشر خبر الساحرة وإعلامها بموت داهر، قال أهالي المدينة من الخواص والأعيان

---

(١) سورة البقرة ـــ الآية: ١٩٥. ومن المرجح أن هذه الحكاية مخترعة، وهي تتعارض مع ما سبقها من حكايات حول مصير لادي.

(٢) هذه حكاية أخرى حول أسباب فتح أرور، ولا شك أن أبناء داهر كانوا على معرفة بمصرع أبيهم، ولربما حاولوا إخفاء الخبر لبعض الوقت، ولعل استخدام الساحرة لإفشاء خبر موته كان مقدمة ومسوغاً للفرار من أرور بعد التخلي عن المقاومة.

والعوام: إنه يجب علينا أن نستمع إلى دين وصيانة وإنصاف وعدل وفضل ووثوق عهود محمد ابن القاسم، ونطلب منه الأمان والمواثيق ونسلم له الحصن، ولما سمع قوفي بن داهر تردد الناس في المقاومة ضد العرب وعن موت أبيه من الساحرة، جمع جملة أهل بيته ورعاياه وأتباعه، واغتنم دياجير الليل الحالك وخرج من حصن أرور وتوجه إلى بلاد جترور حيث كان أخواه جيسيه ووكيه ابنا داهر يعيشان هناك في منطقة تسمى (نزواله صندل).

وكان رجل من العلافيين بصحبة قوفي أثناء هربه من مدينة أرور، فأخذ ورقة وكتب رسالة حول هرب قوفي إلى أهالي الحصن، ولما وصل الخبر إلى محمد بن القاسم قال: الآن حان موعد القتال والهجوم، وخرجت مجموعة من الرجال الشجعان من الحصن وتقابل الجمعان في القتال.

الحرفيون والرعايا يطلبون الأمان

أعلن الحرفيون والصناع والتجار من أهالي المدينة: أنه لما كان داهر قد قتل، وهرب ولده قوفي من المدينة فإننا نسحب بيعتنا للبراهمة ولا نرضى بهذا بعد اليوم، ولما كان الحكم الإلهي هو المقدر والكائن فإن أي مخلوق لا يمكنه رد ذلك الحكم ولا يمكن أن يقبل بالحرب والمكر والدفاع، ولما كان جيش القضاء والقدر قد أنزل الرايات (الملوك) من على عروشهم، وبعضهم فروا من البلاد فإن الاعتماد على الملكية السابقة غير ممكن الآن، وسيكون الاعتماد على من قدر له أن تتم سيطرته على البلاد، ونحن نتوجه بأنظارنا اليوم إلى عدلكم وإنصافكم معلنين الولاء والطاعة، وتسليم الحصن إلى الأمير العادل محمد بن القاسم، لذا فإننا نناشدك أن تعطينا الأمان والأمن من الجيش العربي، وإن هذه المملكة العظيمة قد عهدت إلينا منذ القِدَم من قبل راي داهر ما دام على قيد الحياة، ولكن الآن مات داهر، وفر ولده قوفي فإن خدمتك أولى بذلك.

جواب محمد بن القاسم

إنني لم أبعث إليكم رسولاً ولا كتاباً، أنتم الذين طلبتم الأمان وإعطاء المواثيق، وإذا

كانت رغبتكم صادقة بعدم القتال والطاعة والولاء لنا فإننا سوف لن نقاتلكم ونعطيكم العهد والمواثيق بذلك ، وإلا فإن بيننا العداء وحد السيف ، ولا عذر لكم بعد الآن ، ولن نغفر لكم خطأكم ولا تأتمنوا جيشنا .

اتفاق أهل الحصن على التسليم

اتفق أهالي مدينة أرور على أن يكونوا على كلمة واحدة ، وهي أن يتقدموا ويفتحوا الأبواب ، ويعلنوا طاعتهم وولاءهم لمحمد بن القاسم . وهكذا فعلوا ، إذ فتحوا الأبواب فدخل بعض الأمناء وأفراد الجيش الإسلامي الذي كان مرابطاً خارج الحصن.

دخول محمد بن القاسم حصن أرور

ثم دخل محمد بن القاسم إلى المدينة بدون قتال ، وكان أهالي المدينة قد التجؤوا إلى معبد الأوثان ساجدين لهم للخلاص ، فلما رأى محمد بن القاسم ذلك سأل : ما هذا البيت الذي يسجد فيه الأعيان والأكابر والعموم؟ فأجابوه : إنه معبد الهنود الذي يدعى (نوبهار)[١] فأمر محمد بن القاسم أن يفتح المعبد ومكان الصنم الأكبر ، فرأى صنماً من الذهب الخالص على ظهر حصان مكللاً بالجواهر واليواقيت ، وفي يده سوار من الزمرد[٢] فمد محمد بن القاسم يده وأخذ ما في يد الصنم[٣] ، ثم دعا كاهن المعبد وسأله : هل هذا معبودك ؟ فأجابه : نعم ، فقال له : ألا ترى شيئاً ينقصه؟ فقال : نعم فإن إحدى

---

(١) نوبهار أي المعبد الجديد وكان معبداً برهمياً أقيم خلال فترة السيطرة البرهمية ، ووصف الوثن وهو جالس على ظهر حصان يجعلنا نستبعد احتمال كونه بوذا .

(٢) كانت الجواهر وسواها بقصد الزينة ، أو قدمها المتعبدون ، أو لتضفي على الوثن منظر القدم ولتعزز قداسته ، فقد قيل كانت الأوثان تزين بالأقراط وأن القرط الواحد كان يرمز إلى ألف سنة فهذا ما قيل للسلطان محمود الغزنوي لدى فتحه سومنات التي كان وثنها مزيناً بثلاثين قرطاً (وفيات الأعيان لابن خلكان ـــ ط. القاهرة ١٣١٠هـ : ٨٥/٢) .

(٣) قام ابن القاسم بنزع السوار من يد الوثن ليبرهن للراهب أن معبودهم لا يضر ولا ينفع ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه أو يخبر بما حلّ به .

يديه خالية! فقال محمد بن القاسم: وأين سواره؟ فأطرق الكاهن برأسه إلى الأرض، فضحك محمد بن القاسم وقال: إنه لا يعلم شيئاً إنه حجر أصم، ثم أرجع يده.

محمد بن القاسم يقتل المسلحين في المدينة

لما دخل المدينة محمد بن القاسم، أمر بقتل جميع الذين شاركوا في الحرب حتى الذين أعلنوا ولاءهم وطاعتهم بعد دخول العرب إليها لكن لادي زوجة داهر قالت لمحمد بن القاسم: إن أهالي هذه المدينة من التجار والصناع والبنائين، وقد تم عمران هذه المدينة وأطرافها بسواعدهم وتضحياتهم، وامتلأت خزائن الدولة من أموالهم فإذا قتلتهم فلن تحصل على الأموال ولا المحصولات الزراعية، فقال محمد بن القاسم:

لقد حكمت لادي وأعطت الأمان للجميع.

فتركوهم وشأنهم.

ظهور شخص عجيب يطلب الأمان

جاء في رواية الأخبار والأحاديث لهذا التأريخ أن رجلاً ممن عهد إليه بقتل بعض المعارضين أتى إلى الوكيل وقال له: رأيت عجباً، فقال له: قل ماذا رأيت؟ فقال الرجل: لن أقول ذلك إلا للأمير محمد بن القاسم فأخبروا الأمير بذلك، فقال: آتوني بالرجل، فلما مثل بين يديه قال الرجل: أعطني الأمان أيها الأمير فقال له ابن القاسم: أعطيتك الأمان، فقال: أعطني ميثاقاً مكتوباً بذلك، فكتب له عهداً بالأمان، فعند ذلك قفز الرجل وحل عقدة لحيته فإذا بشعره ينسدل حتى قدميه ثم أخذ يرقص وينشد:

لم ير أحد هذا العجب كما أنا
شعر لحيتي من وجهي حتى قدمي

فتعجب محمد بن القاسم من هذه الظاهرة، فقال بعض الحاضرين: لقد غرر بنا

وأخذ منك الأمان، فقال محمد بن القاسم: إن الكلمة هي الكلمة، والعهد هو العهد، وإن الرجوع عن العهد والكلمة ليس من شيمة العظماء والأمراء.

ثم قال الأمير محمد بن القاسم: إنني سوف لا أقتل هذا الرجل، ولكني سأحبسه وسوف أنقل هذا الأمر إلى الحجاج حتى أستنير برأيه، ثم أوصى بحبس ذلك الرجل مع مائتين من أصحابه، وكتب رسالة إلى الحجاج يخبره بالحادث.

واستشار الحجاج بعض العلماء في الكوفة والبصرة، وأعلم الخليفة الوليد بن عبد الملك بذلك، فجاءت الرسائل من العلماء ومن الخليفة بأن مثل هذه الحادثة قد وقعت بين أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللَّهَ عَلَيۡهِ﴾[1]، ولما وصل جواب الحجاج إلى محمد بن القاسم أمر بإطلاق سراحهم.

ذهاب جيسيه إلى كيرج

ينقل المؤرخون عن أكابر وأعيان الهند أن جيسيه لما وصل إلى حصن كيرج وبرفقته سبعمائة رجل من أتباعه وخاصته، رحب ملك كيرج به ترحيباً حاراً وأكرم وفادته وقال له: إننا سوف نعينك على قتال العرب، لكن الملك (دروهر) الملك الرسمي للبلاد الذي اعتاد أن يفرغ يوماً من كل ستة أشهر لنفسه فيجلس لمعاقرة الخمر ومجالسة الحسان والغيد وهن يرقصن عرايا، شاء قضاء الله وقدره أن تكون هذه الليلة من بين الليالي الخاصة به.

ثم أخبر الملك دروهر بوصوله فجاء الرسول من دروهر وقال: إن الملك يقول إن هذه الليلة هي ليلة خلوتي واستغراقي، ولن أسمح للأجانب دخول إيواني ولكنك ملك ابن ملك وعزيز علينا، وأنت بمنزلة ولدي ولا بأس بدخولك إلى المجلس، فدخل جيسيه وجلس بين النساء العاريات وقد خفض رأسه نحو الأرض وشغل نفسه بكتابة بعض المعاني بإصبعه على السجادة، ولم يرفع رأسه لينظر إليهن، لكن دروهر نظر إليه وقال: إن هذه المجموعة من النساء العاريات بمثابة أخواتك وأمهاتك، ارفع رأسك وانظر إليهن، لكن جيسيه لم يرفع رأسه

(١) سورة الأحزاب ـــ الآية: ٢٣. والاختراع واضح على هذه الحكاية لا سيما الشعر الفارسي الذي جاء فيها.

ولم ينظر إليهن، وقال: إن نسبنا يعود إلى الرهبان، وإننا لم ولن ننظر إلى عورات الآخرين، فاستحسن الملك دروهر جوابه وقدّر عفته.

ويقال إنه لما اجتمعت النساء العاريات، كانت أخت الملك دروهر واسمها جنكى ومعناها بالهندية الحسنة الجميلة موجودة في المجلس، فنظرت إلى جيسيه الذي كان من أبناء الملوك، فرأت أمامها شاباً وسيماً وقداً ممشوقاً ووجهاً مليحاً وسيرة كريمة، ألفاظه كالدرر وألحانه كالغرر وخدوده كالجواهر متعة للنظر، فوقع حبه في قلبها وتملك شغافه، فكانت تختلس النظر إليه بين الفينة والفينة.

ولما قام جيسيه من مجلس الملك، قامت جنكى هي الأخرى ودخلت بيتها، ثم أعدت المحفة والهودج، وأمرت الغلمان والجواري بحملها وتوجهت إلى بيت جيسيه ولما وصلت الدار، نزلت من محملها، ودخلت بيت جيسيه، وكان جيسيه نائماً أثناء دخولها، ولما وصلت رائحة الخمر من فم جنكى إليه، استيقظ وفتح عينيه فوجد جنكى بجواره جالسة على السرير، فهبَّ واقفاً وقال لها: يا بنة الملوك والأكابر، ما هذه الفعلة التي تفعلينها وكيف تأتين إليّ؟ فقالت له: ويلك أيها الأحمق، ما معنى تساؤلك هذا؟ امرأة جميلة وشابة تأتي إليك في منتصف الليل وتوقظك من نومك وتطلب منك النوم معاً في فراش واحد، وقد ملأها الغنج والدلال وجنون الوصال، ألأنها ابنة الملك، تتهرب منها وتستكبر فعلتها! وتكره هذه الغنيمة الصبوح في فراشك؟.

فقال جيسيه: يا بنة الملوك، نحن ما عدا الحلال والنكاح الشرعي لا يمكن أن ننظر إلى عورة الأخريات، لم ولن يصدر منا مثل هذا العمل، ذلك لأننا من البراهمة الرهبان المتعففين، وإن هذا العمل لا يليق بالعظماء والعلماء والمتّقين والأحرار، ابعدي عني ولا تجرينا إلى هذا الذنب الكبير، وهكذا ابتعد جيسيه عنها وصدها عنه على الرغم مما حاولته من التقرب إليه والتزلف والغنج والدلال عليه.

يأس جنكى من جيسيه

لما يئست جنكى من وصال جيسيه قالت له: يا جيسيه لقد حرمتني من هذه الأمنية

واللذة النفسية والهوى الروحاني، لهذا وجب عليّ أن أهلكك وأقتلك ثم أحرق نفسي، ثم عادت إلى بيتها وفراشها مكسورة الخاطر، كسيرة الجناح، تتلوى من الأسى والحسرة وتقول هذه الأبيات:

لقد أصبح عشقك وجمالك قاتلين لروحي
وهـذا جمالك الـذي هو شمعـة حيـاتي
أنصفنـي وإلا فإننـي سأصرخ عاليـاً
وأحرق نفسي وأحرقك وأحرق المدينة كلها

ولما جاء الصباح وعلت الشمس في كبد السماء، واستيقظت جنكى وقد حطمها الهجر وسكرة الخمر تتلوى كالملدوغة من شدة الألم، وبقيت في غرفتها ولم تذق طعاماً ولا شراباً، ولما انتبه الملك دروهر إلى أن أخته جنكى لم تأتِ ولم تأكل طعاماً، وكان يعزها ويكرمها كثيراً، قام من مكانه وتوجه إليها في مخبأها فوجدها وقد بدا الأسى والتفكير العميق على محياها فقال لها: يا بنة الملوك والعظماء، ماذا حل بك حتى أرى ذلك الوجه الصبوح الضاحك الوردي قد اصفر وذبلت ملامحه؟!.

فأجابته جنكى: يا بن الملوك الأكابر! هل يوجد أكبر من هذا وأعظم من هذا، ماذا يمكن أن أقول عن ذلك السندي الأحمق الذي ما إنْ رآني في ذلك المجلس حتى انتظرني، ثم دخل عليَّ خلسة في مكمني وطلبني إلى نفسه، لقد أراد أن يلوِّث ثوب صلاحي وعفافي الذي لم يتلوث بغبار أبداً، ونفسي التقية النقية التي لم يلوثها الفسق والفجور، وأراد أن يهتك ستري ويفضحني، ولا بد لك أيها الملك العظيم أن تنصفني منه حتى يأخذ جزاء خيانته وفعلته الشنيعة.

فاضطرب الملك دروهر اضطراباً عظيماً وتميَّز غيظاً وقال: أيتها الأخت الكريمة: إن جيسيه ضيفنا وراهب برهمي وقد جاء إلينا يطلب مساعدتنا ومعه أكثر من ألف رجل مسلح مقاتل شجاع، ولا يمكنني أن أقتله إلا بعد أن يُقتل العديد من أتباعي وشجعاني، ولا بد من

عمل شيء في الخفاء حتى نقتله، وعليكِ الآن أن تقومي وتأكلي طعامكِ واتركي الأمر لي أتدبره.

غدر دروهر بجيسيه ومكر أخته جنكى به

ثم رجع دروهر إلى بيته واستدعى اثنين من أتباعه المسلحين يدعيان (بهدر) و(بهئو) وقال لهما: إنني اليوم سأستضيف جيسيه، وبعد تناول الطعام سوف أختلي به وألعب معه الشطرنج، كونا أنتما بكامل أسلحتكما وعندما تسمعان مني القول: لقد مات الملك، اهجما عليه واقطعا رأسه.

وكان في هذه الأثناء رجل سندي ينصت إلى هذا الحوار بين الملك دروهر وأتباعه، فذهب سريعاً إلى جيسيه وأخبره بالأمر وبعزم الملك دروهر على الغدر به، فاستدعى جيسيه أتباعه المسلحين وانتقى اثنين منهم وهما (تورسيه) و(سورسيه) وقال لهما: إنني سوف أذهب للغداء مع الملك دروهر وسوف يختلي معي في غرفته ليغدر بي، عليكما أن تختفيا خلفه بكامل أسلحتكما وافتحا أعينكما لئلا يغدر بي.

مجيء جيسيه مع رجاله المسلحين

وهكذا ذهب جيسيه إلى دار الملك دروهر الذي أمر أن لا يدخل مع جيسيه أحد، لكن الرجلين المسلحين من أتباع جيسيه تمكنا بصورة خفية من الوقوف خلف الملك دروهر وتأهبا للانقضاض عليه عند الحاجة، ولما انتهى دروهر من لعبة الشطرنج ورفع رأسه ليُعلم أصحابه بالجملة المتفق عليها، رأى اثنين من المسلحين من رجال جيسيه واقفين خلفه فارتبك وندم على ما أراد أن يفعله وقال: لم يمت الملك ولا يجب ذبح ذلك الخروف، فعرف جيسيه أن تلك الجملة هي الإشارة المتفق عليها بالقتل أو عدمه، فنهض واقفاً وتوجه إلى أصحابه وطلب تهيئة الخيل والاستعداد للذهاب.

فبعث الملك دروهر أحد أتباعه وطلب منه أن يراقب جيسيه وأتباعه وماذا يفعلون، فلما رجع ذلك الشخص سأله دروهر: ماذا كان يفعل جيسيه وأتباعه؟ فقال الرجل: رحم

الله أجداده، لقد كان رجلاً يتحلى بأحسن الأخلاق ويتعفف عن الرذائل والمكاره، ولم يكن فعله سيئاً، لقد كان دائماً عفيفاً في الخوف والرجاء.

ويذكر في الأخبار أنه لما أتم جيسيه طعامه، وغسل يديه، ولبس سلاحه، وامتطى جواده، دعا قومه وأتباعه إلى الرحيل ومرّ من جانب قصر الملك، وأعلن عن سفره دون وداع واتجه إلى بلاد كشمير، ولما وصل إلى الحدود في منطقة (جالندهر) استقر هناك في دار المُلك (اسه كسه) التي كان مليكها (بلبهرا)[1]، وبقي حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حيث توجه عمرو بن مسلم الباهلي إلى تلك الولاية وفتحها ودانت للعرب بالطاعة والولاء[2].

---

(١) هناك خلل بالنص ويمكن أن يكون قد لحقه بعض النقص وعلى هذا يمكن أن نفترض:

آ ــ لربما ذكر النص مملكة بلهرا مع مملكة أخرى يرجح أنها كشمير، وعلى هذا فمملكة بلهرا كانت مجاورة للأجزاء الشرقية من كشمير.

ب ــ لا توجد إشارات محققة حول ذهاب جيسيه إلى كشمير.

جـ ــ لعله ذهب إلى حاكم جالندهر وبقي هناك في المنطقة المجاورة لكشمير.

د ــ إن ما ترجمناه «دار الملك = استان شاه» قد يكون عني به اسم مقاطعة في حال إذا صح الافتراض بوجود سقط بالنص الأصلي.

هـ ــ إن أرض «كسه» تعني كما هو مرجح بلاد كشمير بلاد شعب «كهسه أو كهشه» وقد ورد ذكره هذا في عدد من الكتابات السنسكريتية القديمة.

و ــ لعل «أستان شاه» مصحفة والصيغة الصحيحة هي «آدشتان شاه» وهو الاسم الذي عرفت به عاصمة كشمير فكلمة «آدهيشثانا» السنسكريتية تعني العاصمة أو الحاضرة.

ز ــ ليس من الواضح اسم المكان الذي حكم فيه بلهرا، ولربما كان يحكم مقاطعة كشمير المجاورة لجالندهر، فقد وقعت هذه الحادثة فيما بين ٧١٢ ــ ٧١٤ م وفي تلك الآونة كانت أسرة كاركوتا تحكم كشمير ويرجح أن ملوك هذه الأسرة حملوا لقب «شاه».

حـ ــ إذا كان بلبهرا حاكم بلاد جالندهر فهو الاسم الشخصي للحاكم وليس اللقب الملكي، علماً بأن «بلبهرا» كان لقباً أطلق على حكام «ديكن» الذين كانوا معاصرين لملوك جورجارا في كنوج في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، فقد ذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب (ج ١ ص ٣٧٤ من ط. باريس): «مملكة بؤورة هو ملك القنوج، فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه في ذلك الثغر من المسلمين، ويحارب بجيش الجنوب البلهري ملك المانكير».

ط ــ من الممكن ــ بسبب السقط ــ أن تكون كلمة «بلبهرا» في نصنا قد اختلطت مع كلمة «بؤورة» التي ربما كانت لقب ملوك كنوج في القرن الثامن الميلادي، وأن إقليم جالندهر كان تابعاً لكنوج، وبسبب مساندة ملكها لجيسيه، قرر محمد بن القاسم ــ كما سنرى ــ الزحف ضد كنوج.

(٢) لمزيد من الإيضاح انظر فتوح البلدان: ٤٢٨ ــ ٤٢٩.

رجولة جيسيه وسبب تسميته

يذكر بعض البراهمة أن جيسيه لم يكن يناظره أحد في الرجولة والشجاعة، وقصة ولادته كانت كالتالي:

يحكى أن الملك داهر خرج يوماً إلى الصيد في جماعة من أصحابه وأتباعه، ولما وصلوا إلى الفلاة وانتشرت كلابه في الأرض بحثاً عن الغزلان، وطيور الباز والصقور تحوم في سماء المنطقة، ظهر أسد هِزبْرٌ متجهاً نحو الجماعة، وقد ارتجت البيداء من زئيره، فتقدم داهر وترجل عن حصانه ولفّ ساعده بقطعة قماش كبيرة، وتقابل مع الليث وبيده سيفه البتّار، فهجم الهزبر عليه فاغراً فاه فأدخل داهر ساعده في فيه وضربه بسيفه فعقره ثم أخرج يده وشقّ بطن الأسد.

وكان الناس قد فروا من هول الواقعة ودخلوا على زوجته الحامل وأخبروها بمبارزة داهر مع الأسد، فخفق قلبها من هول المعركة، وسقطت جثة هامدة لا حراك فيها، ولما رجع داهر إلى بيته ووجد زوجته قد ماتت، أمر بشق بطنها واستخراج الجنين منه، وأسماه «جيسيه» بالهندية و«شير فيروز» بالفارسية ومعناها «المُظفَّرُ بالأسد».

تعيين رُواح بن أسد أحد أحفاد الأحنف بن قيس والياً على أرور

يروي محدثو هذه العرائس ومنضدو هذه الغرائس عن علي بن محمد المدائني عن مسلمة بن محارب وعبد الرحمن بن عبد ربه السليطي أنه لما استسلم أهالي دار الملك أرور بغرور[1] إلى سلطان محمد بن القاسم، وأطاعوه، ودانوا له بالولاء والانقياد، نصَّب محمد بن القاسم، رواح بن أسد أحد أحفاد الأحنف بن قيس والياً على أرور، وعهد بالشؤون الشرعية ودار القضاء والخطابة إلى الإمام الأجل العالم برهان الملّة والدين سيف السنة ونجم الشريعة

(١) كانت أرور هي دار الملك أي عاصمة السند، وكان حصن بغرور ملحقاً بها وتابعاً إدارياً.

موسى بن يعقوب بن طائي بن محمد بن شيبان بن عثمان الثقفي رحمة الله عليهم أجمعين، ودعاهم إلى استمالة الرعية حتى لا يهمل قانون ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[1]، ودعا الاثنين إلى رعاية الشعب، وأعطاهما الأوامر المطلقة في تنفيذ أحكام الله.

ثم ترك محمد بن القاسم مدينة أرور وتوجه إلى حصن باتيه[2] وكان هناك بالطرف الجنوبي من النهر المسمى (بياس) حصن قديم يحكمه ككسه بن جندر بن سيلائج ابن عم داهر بن جج.

فتح الحصن ومثول ككسه بين يدي محمد بن القاسم

كان ككسه بن جندر قد شارك إلى جانب داهر بن جج في الحرب، وبعد أن هزم الجيش وقتل داهر، فرّ ككسه إلى هذا الحصن وأقام فيه، ولما وصل جيش الإسلام قريباً من هذا الحصن، أرسل ككسه الأموال والهدايا والرهائن والعبيد إلى محمد بن القاسم، وذهب الأعيان وأكابر الحصن إليه معلنين الولاء والطاعة له، فأعطاهم محمد بن القاسم الأمان وقدرهم أحسن تقدير وسأل: هل ككسه هذا من أهالي أرور؟ وكانت المجموعة من خيرة الرجال الحكماء والعقلاء والصادقين، فجاؤوا إليه وأعلموه بأمان محمد بن القاسم له حتى يتشجع ويأتي إلى محمد بن القاسم حيث سيعينه مستشاراً للشؤون العامة والخاصة ويستوزره في الحكم.

المستشار ككسه

أنيطت مهمة المستشارية إلى ككسه الذي كان رجلاً عالماً حكيماً من كبار حكماء الهند حيث قيل في حقه البيت التالي:

---

(١) سورة التوبة ـــ الآية: ٧١.

(٢) لقد ورد اسم حصن باتيه من قبل، وليس كما هو مرجع المقصود مكان واضح، ولعل التصحيف لحق الاسم في بعض الأماكن لا سيما عندما ربط مع بلاد «رمل» حيث المقصود هناك «بهتي» وهو اللقب الوثني لحاكم «رمل» التي هي بلاد جيسلمر.

لاتستشر غير ندبٍ حازم يقظٍ قد استوى منه إسرارٌ وإعلان[1]

فكان جميع الأمراء وقادة الجيش يستشيرونه في شؤونهم.

كما عهدت إليه جباية الأموال، وبيت المال، وكان يصاحب محمد بن القاسم في جميع غزواته وأسماه محمد بن القاسم بالمشير المبارك.

فتح سكه وملتان على يد محمد بن القاسم

ولما انتهت أعمال ككسه، ترك محمد بن القاسم ذلك الحصن وعبر مياه (بياس) وتوجه إلى حصن (اسكلنده) وعلم أهل ذلك الحصن بأن محمد بن القاسم قد قَدِمَ إليهم فخرجوا لقتاله، وكان في مقدمة الجيش الإسلامي زائدة بن عُمير الطائي وككسه، فالتحمت الجموع وبدأت الحرب الضروس وسالت أنهار الدماء من الجانبين بغزارة، لكن المسلمين حملوا حملة رجل واحد وهم يكبرون ويهللون، فهُزم المشركون ودخلوا الحصن، وأخذوا يرمون المقذوفات وحجارة المنجنيق على الجيش العربي واستمر القتال الشديد سبعة أيام.

وكان ابن أخي أمير ملتان قد حرض الجموع وقاتل قتالاً مريراً حتى نفدت المؤونة عند الجيش، ولما شعروا بقرب الهزيمة، ترك سيهرا اسكلنده الحصن في ليلة ظلماء وتوجه إلى حصن (سكّه) وهو حصن يقع على الجهة الجنوبية من ملتان[2].

ولما ترك الأمير ملتان، اجتمع الصناع والتجار والعمال وأرسلوا رسالة إلى محمد بن القاسم يطلبون فيها الأمان مستسلمين فأعطاهم الأمان، ودخل الحصن وذبح أربعة آلاف رجل مسلح فيها وأخذ أتباعهم عبيداً، وعيَّن عتبة بن سلمة التميمي والياً وأميراً عليها، ثم توجه محمد بن القاسم إلى سكّه ملتان التي كان يحكمها بجيرا، ولما وصل خبر وصول الجيش

---

(١) لا شك أن هذا البيت من بين ما أقحمه الكوفي في الكتاب أثناء ترجمته له، فهو من قصيدة طويلة للشاعر علي بن محمد البستي المشهور بأبي الفتح البستي [ت: ٤٠٠ هـ] هذا وقيل القصيدة مما نظمه الخليفة العباسي الراضي: انظر حياة الحيوان للدميري ــ ط. القاهرة ١٩٥٨: ١٧٢/١ ــ ١٧٣ (مادة الثعبان).

(٢) يبدو أن «سكة» كانت في أحواز الملتان «ربض أو حاضر».

العربي إلى أطراف مدينتهم ، تهيؤوا للقتال والمجابهة وخرجوا إلى خارج الحصن والتحموا في قتال شديد مع العرب .

استمرت المعارك الدامية سبعة أيام واستشهد خلالها عشرون فرداً من أصحاب محمد ابن القاسم ، وقتل من جيش الشام مائتان وخمسة عشر رجلاً ، ثم عبر بجيرا النهر وفرّ هارباً .

أقسم محمد بن القاسم أن يدمر هذا الحصن بسبب استشهاد أصحابه العشرين ، فأمر بتدمير جميع المدينة ، وعبر النهر إلى ملتان ، فتصدى له الكنداريون وبجيرا وخرجوا لقتاله .

قتال محمد بن القاسم مع كنداراي

استمر القتال العنيف ذلك اليوم من الصباح حتى انصرام الرواح ولما أسدل الليل أستاره ، عاد المقاتلون إلى حصنهم ، ولما انبلج الصبح الصادق لليوم الثاني وانتشر النور والضياء ، عادت المعارك حامية الوطيس ثانية ، وقتل الكثير من الجانبين .

واستمرت الحرب على هذا المنوال مدة شهرين حيث كان المشركون يقذفون بالحجارة والمنجنيق والرماح والسهام على الجيش الإسلامي حتى انتهت عدتهم ، وقلّت حيلتهم وغذاؤهم وضاق بهم الأمر حتى وصل رأس الحمار إلى خمسمائة درهم ولما رأى الأمير كورسيه بن جندر ابن عم داهر أن الجيش العربي لم تفتر عزيمته ، وما زال على قدرته وقوته وأن لا سبيل لوصول المدد والعون إليهم ، هرب من المدينة إلى ملك كشمير .

ثم استمرت الحرب السجال لليوم التالي بعد هروب الأمير ولم يجد العرب أي نقب للولوج إلى الحصن ، حتى جاء رجل من داخل الحصن وطلب الأمان ، فأعطاه محمد بن القاسم الأمان ، فهداهم إلى مكان يمكن نقبه وهو على حافة جدول صغير ، فعمد جيش العرب إلى نقب السور واستمرت الأعمال ثلاثة أيام أفلحوا أخيراً في نقبه وفتحوا الحصن ، ودخلوا وقتلوا وذبحوا أكثر من ستة آلاف مقاتل ، وأخذوا أتباعهم ونساءهم وأولادهم عبيداً لهم ، وأعطوا الأمان للتجار والصناع والزراع واستولوا على أموال المدينة ، فقال محمد بن القاسم : لقد عانى المقاتلون المسلمون من ويلات الحرب ومن عذاب نقب الحصن فلا بد من توزيع الأموال عليهم وإعطائهم حقوقهم .

تقسيم الأموال النقدية

ثم اجتمع أكابر وأعيان المدينة وجمعوا ستة آلاف درهم من الفضة ووزعوها، فنال كل فارس أربعمائة درهم من الفضة، ثم جاء دور تقسيم وحساب حصة خزانة دار الخلافة فظهر برهمي من بين الجموع وقال: لما كان عهد الكفرة قد انصرم وهدمت معابد الأصنام والأوثان، وتنور العالَم بنور الإسلام، وبنيت المساجد مكان معابد الأصنام، فإنني أقول لكم بأنني سمعت من شيوخ ملتان أنه كان في قديم الزمان راهب في هذه المدينة يسمى (جسوين) وهو من أحفاد ملك كشمير، وكان ذلك الرجل برهمياً راهباً انشغل مدة طويلة في عبادة الأصنام، ولما بلغت خزانته حداً لا يمكن حصره وإحصاؤه واستيفاؤه عمد إلى بناء حوض عظيم في الجانب الشرقي من مدينة ملتان طوله مائة ذراع، وكذلك عرضه مائه ذراع، وبنى في وسطه معبداً للصنم طوله خمسون ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً وبنى قبواً ووضع فيه خمسين زيراً مليئة بالذهب المغربي، كما دفن ثلاثين زيراً آخر مملوءاً بالجواهر واللآلئ والمعبد فوق القبو حيث جلس في وسطه صنم من الذهب الخالص وهو مفتاح ذلك الكنز العظيم.

الــروايــة[1]

يروي أصحاب التصانيف ورواة الأحاديث عن علي بن محمد المدائني أنه قال: سمعت

---

(١) في الأصل الفارسي «منروي» وجاء في بعض مخطوطات الأصل «متروي» و«مستروي» أو «مستزوي» أو «متزوي» وهذا يفيد وجود حرف التاء في جميع هذه القراءات مما يرجح أن الصحيح هو «متروي».

ويستفاد من المصادر العربية أن معبد المولتان كان الوثن فيه يمثل إله الشمس. وقال البيروني: كان اسمه «اديت» (تحقيق ماللهند: ٥٦. كتاب الجماهر: ٤٩).

ومن الممكن على هذا الأساس أن كلمة متروي مركبة من «مت» و«روي» ومعنى «مت» شكل العبادة و«روي» من أسماء الشمس، وإذا صح هذا المذهب لكان من الأفضل أن يقال «روي مت». ولهذا ذهب الاجتهاد إلى القول إن «متروي» نسبة إلى الإله «مترا» الفارسي الذي انتشرت عبادته في كثير من البقاع.

هذا وما قاله الكوفي عن أن الصنم كان مصنوعاً من الذهب الخالص أضافه من عنده ولم يكن بالأصل، فقد وصفه الاصطخري وصف شاهد عيان بقوله:

«وهذا الصنم صورته على خلقة إنسان متربع على كرسي من جص وآجر، والصنم قد ألبس جميع جسده جلداً

من أبي محمد الهندي أنه قال: لما سمع محمد بن القاسم تلك الرواية، قام هو وحجّابه وخواصه وتوجهوا إلى ذلك المعبد فرأى وثناً من الذهب الأحمر الوهاج له عينان من الياقوت الأحمر فتصور محمد بن القاسم أنه رجل يتصدى لهم فسحب سيفه حتى يضربه، فتقدم حارس الوثن البرهمي وقال: أيها الأمير العادل إن هذا صنمٌ صنعه جسوين أمير ملتان، وقد دفن الأموال التي لا تحصى تحت رجليه في القبو.

فأمر محمد بن القاسم بإزالة الصنم فظهر للعيان مائتان وثلاثون مناً[1] من الذهب الخالص كما وجدوا ثلاثين زيراً بداخلها الذهب الأصفر ولما وزنوها وجدوا أنها تزن مائتي مَنْ فجمعوا ذلك الذهب والجواهر واليواقيت وجميع ما تم نَهبُه من خزائن ودفائن مدينة ملتان.

فتح المعبد وأخذ الخزانة

روى أبو الحسن علي بن محمد المدائني عن خُريم بن عمرو المُرّي أنه في اليوم الذي فتحت فيه الخزانة وأخرجت أموال المعبد، جاءت رسالة من الحجاج إلى محمد بن القاسم يقول فيها:

يا بن العم إنني حينما أرسلتك على رأس جيش لفتح بلاد السند والهند قد تعهدت للخليفة الوليد بن عبد الملك أنني سأعيد أضعاف المبالغ التي سوف تصرف على الحملة والفتوحات، وهي في ذمتي حتى أعيدها إلى بيت المال، وبعد التفحص والتمحيص ظهر بأن ما صرف على حملة محمد بن القاسم هو مبلغ ستين ألف درهم من الفضة الخالصة، وأنّ ما وصل من الفتح من النقود والأجناس والأقمشة قد بلغت مائة وعشرين ألف درهم، وإنني

يشبه السختيان أحمر حتى لا يبين من جثته شيء إلاعيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه من خشب، ومنهم من يزعم أنه من غير الخشب، إلا أنه لا يترك بدنه ينكشف، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل ذهب، متربع على ذلك الكرسي قد مد ذراعيه على ركبتيه، وقد قبض كل يد له كما تحسب أربعة، وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال فإنما يأخذه أمير الملتان وينفق على السدنة منه، فإذا قصدهم الهند للحرب وانتزاع هذا الصنم منهم، أخرجوا الصنم فأظهروا كسره واحراقه فيرجعون، ولولا ذلك لخربوا الملتان». (المسالك والممالك ــ ط. ليدن: ١٧٤ ــ ١٧٥). وأكد ابن حوقل هذه المعلومات. كما روى البيروني أنه كان مصنوعاً من الخشب (تحقيق ما للهند: ٥٦).

(١) المن يساوي ثلاثة كيلوغرام، هذا وليس هناك ما يؤكد رؤية ابن القاسم لصنم الملتان، فقد جرى تحطيمه قبل وصوله إلى السند بعدة سنوات.

أوصيك أن تبني المساجد والمنابر في أي مكان أو مدينة أو قصبة تَحِلُّ فيها ، وأن تضرب النقود باسم دار الخلافة ، فإنك قد كنت سعداً لجيش الإسلام ، وأينما اتجهت إلى ولايات الكفار فإنها ستخضع وتدين لك .

محمد بن القاسم يعطي العهود والمواثيق لأهالي مدينة ملتان

لما أعطى محمد بن القاسم الأمان والعهود الوثيقة لأهالي ملتان ، بنى المساجد والمنارات وعمَّر المدينة ، ثم عيَّن الأمير داود بن نصر بن وليد العماني أميراً على ملتان ، وخُريم بن عبد الملك التميمي أميراً على حصن برهمبور الواقعة على سواحل مياه جهيلم والتي تدعى سوبور أيضاً ، وعكرمة بن ريحان الشامي أميراً على سواد ملتان ، وأحمد بن خزيمة بن عتبة المدني والياً على حصني أشبهار وكرور[1] .

ثم بعث بالأموال والنفائس والهدايا عن طريق السفن مروراً بمدينة الديبل ، إلى خزائن دار الخلافة ، وأقام محمد بن القاسم في مدينة ملتان ، وعبأ أكثر من خمسين ألف رجل مقاتل تأهباً للحرب بكامل العدة والعتاد .

إرسال أبي حكيم بجيش قوامه عشرة آلاف فارس إلى كنوج

ثم بعث محمد بن القاسم ، أبا حكيم الشيباني على رأس جيش من عشرة آلاف فارس إلى ملك كنوج يدعوه إلى الإسلام والبيعة لمحمد بن القاسم ، وإرسال الأموال إلى دار الخلافة .

---

(١) كرور هو « كرور بكه » في لوذران تحصيل ، على بعد ٢٤ ميلاً إلى الشرق من محطة لوذران للسكك الحديدية في مقاطعة ملتان ، وبما أن برهمبور كان في أقصى الشمال على ضفة نهر جهيلم فإن اشبهار وقع بينهما ، لكن ليس بالضرورة على خط مستقيم ، ويدل الاسم « اشوا ــ ويهار » على أنه كان مركزاً بوذياً هاماً .

أما محمد بن القاسم فقد توجه بجيشه إلى منطقة الحدود مع كشمير التي تدعى (بنج ماهيات)، ووصل إلى ذلك الموضع الذي عينه جج بن سيلائج أبو داهر ـــ الذي ربط فسيلتين من شجرة الصنوبر ـــ ليكون الحد الفاصل بين مملكته ومملكة كشمير، حيث جدد محمد بن القاسم هذه الحدود.

وصول الجيش إلى أودهابر(١) وحكيم يرسل زيد بن عمر الكلابي إلى الملك هرجندر

كان ابن جهتل الملك في ذلك الوقت ملكاً(٢) على كنوج، ولما وصل جيش المسلمين إلى أودهابر، استدعى أبو حكيم الشيباني، زيد بن عمرو الكلابي وقال له: يا زيد، عليك أن تذهب إلى الملك هرجندر بن جهتل وتدعوه إلى الانقياد إلى طاعة أوامر الإسلام، وتقول له: من المحيط وحتى حدود كشمير، دان جميع ملوك وأمراء الهند والسند إلى عز الإسلام وتمكينه، وعليكم أن تطيعوا الأمير عماد الدين محمد بن القاسم، قائد جيش العرب وقاهر الكفار والمشركين.

جواب الملك هرجندر ملك كنوج

لما وصل الأمر إلى الملك هرجندر، أجاب محمد بن القاسم في رسالته قائلاً: إن هذه الولاية خضعت لسيطرتنا وملكنا طيلة ألف وستمائة عام، ولم يكن هناك معارض طيلة هذه المدة، ولا ملك تجرأ أن يتعرض لحدودنا، أو يتمرد في داخل مملكتنا، وعجيب أن تخطر في بالك مثل هذه التصورات العجيبة المستحيلة، ولولا أن الرسول لا يسجن، لما جاز لك أن

---

(١) جاء هذا الاسم في بعض الأصول «أوردهابر» وبما أن الجيش أرسل من ملتان إلى كنوج فلا بد أن هذا الموقع قام على الطريق بينهما ولعله كان أقرب إلى كنوج وخضع لسلطتها، وليس من السهل تحديد مكانه بدقة على الرغم من أنه قيل هو «ديبل بور» في ملتان حالياً، وقيل «أودي بور» على بعد أربعة عشر ميلاً جنوب ألوانا على الغجّار.

(٢) استخدم المترجم كلمة «راي» ولعلها إضافة من عنده لأننا رأينا من قبل من خلال المسعودي أن لقب حكام كشمير هو «بؤوره» وقد حمل حكام كنوج هذا اللقب.

تبديَ كل هذا القيل والقال ، ثم قال للرسول : ارجع إلى أميرك وقل له : عليك أن تقابلنا مرة واحدة فقط حتى نتمكن من الموازنة بين قوة وشوكة أحدنا والآخر ، فإما أن يدخل الرعب منكم في قلوبنا ، أو أننا سنقضي عليكم ، وإذا تقابل الجيشان المتقاتلان وظهرت الشجاعة في القتال والغلبة لأحدنا ، عند ذلك سيحسم أمر الصلح أو الحرب .

ولما وصلت رسالة هرجندر إلى الأمير محمد بن القاسم ، جمع قادته وأكابر القوم وأعيانهم وأمراءهم ، قال لهم : إلى الآن ، وبفضل الله تعالى والمعونات الإلهية السماوية تمكنًا من قهر جميع رايات [ملوك] الهند والسند وكان نصيبنا الفتح والظفر المبين ، واليوم حيث سنقابل هذا اللعين المتكبر المفتون بجيشه وفيلته ، فإننا بعون الله تعالى سنسعى حتى نقضي عليه وننهب أمواله ، وننتصر عليه ونظفر به . وعند ذلك أعلن جميع القادة والأمراء استعدادهم لقتال الملك هرجندر والقضاء عليه .

وصول رسالة دار الخلافة إلى محمد بن القاسم

يروي محمد بن علي وأبو الحسن المدائني أنه لما قُتل الملك داهر ، تمّ أسر ابنتيه الآنستين وبعثهما محمد بن القاسم مع خدمه من الأحباش إلى دار الخلافة في دمشق ، وأمر خليفة دمشق أن تودعا في دار الحريم حتى يتم إسعافهما من عناء الأسر والسفر وتستريحا بعض الوقت ثم تتوجها إلى مجلس الخليفة .

بعد ذلك بعدة أيام ، ورد ذكرهما بخاطر الخليفة المعطر ، فأمر بإحضارهما تلك الليلة ، ثم أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك المترجم أن يسأل عن أحوالهما ويتعرف على أجملهما حتى يحتفظ بها ثم يستدعي الأخرى بعدئذ ، فسأل المترجم عن اسميهما ، فقالت الكبرى الفاتنة الجميلة : اسمي (سرياديو) وقالت الصغيرة : اسمي (برمل ديو) فأشار الخليفة على المترجم أن تتقدم الصغرى وتسفر عن وجهها ، ولما أسفرت عن وجهها ، نظر الخليفة إليها فأعجب بها وافتتن وعيل صبره ، وأخذت من قلبه مأخذاً عظيماً ، فأمسكها بيدها وسحبها إليه ، لكن سرياديو سحبت يدها ، وهبّت واقفة قائلة : يحيا الخليفة العظيم ، لكنني لا يمكن أن أكون جارية الخليفة المناسبة ، حيث أن الأمير العادل محمد بن القاسم قد أخذني لنفسه مدة ثلاثة

أيام، ثم أرسلني إلى دار الخلافة، هل هذه عاداتكم؟! إن هذه الفضائح لم تكن يوماً في قصور الملوك في أي بقعة من بقاع الأرض!.

وكان الخليفة في تلك اللحظة قد غلبه العشق والهيام وفلت الزمام من يده، وقد عمته الغيرة، فأخذ قلماً ودواةً، وكتب رسالة بخط يده قال فيها: على محمد بن القاسم مهما كان الموضع الذي قد وصل إليه، أن يضع نفسه في صندوق من الجلد ويُبعث إلى دار الخلافة[1].

وصول محمد بن القاسم إلى أودهابر
ووصول رسالة دار الخلافة

لما وصل محمد بن القاسم إلى مدينة أودهابر وصلت في الوقت نفسه رسالة الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأمر أن يوضع في جلد شاة غير مدبوغ في داخل صندوق مغلق ويرسل إلى دار الخلافة، حيث قضى نحبه في الصندوق، وكان الأمراء والولاةَ كلما جاءهم الصندوق يسلمونه إلى الأمير الذي يليه حتى وصل الصندوق إلى الخليفة، فجاء الحاجب وأخبر الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان بأنهم قد أتوا بالصندوق وفيه محمد بن القاسم، فسأل الخليفة: هل هو حيّ أم ميت؟ فقال: يحيا الخليفة لما وصل الأمر الملكي، وضع محمد ابن القاسم نفسه في جلد الشاة ثم أغلق عليه ووضع في الصندوق، حيث توفي بعد يومين من ذلك ورحل إلى دار البقاء، وكان الأمراء الذين عينهم محمد بن القاسم، قد ضبطوا البلاد وألقوا الخطب في مدح دار الخلافة.

---

(١) لا ريب أنها حكاية مخترعة أثبتها الكوفي لتكون خاتمة لكتابه ولم يذكرها أي من المصادر العربية، لا سيما البلاذري الذي نقل عن المدائني، والروايات كثيرة ومتناقضة حول مصير عدة نساء من أسرة داهر، هذا وكان عزل ابن القاسم بعد موت الوليد بن عبد الملك في أيام سليمان بن عبد الملك وارتبط بالسياسة المعادية للحجاج وآله، واعتماد سليمان على يزيد بن المهلب وآله، وسنرى هذا في كتاب فتوح البلدان.

الخليفة يفتح الصندوق

ثم أحضر الخليفة تلك الخريدة ابنة داهر بن جج، وفتح الصندوق أمامها وكان يحمل غصناً أخضر في يده ووضعه على أسنان محمد بن القاسم وقال: يا بنات الملوك: إن أوامرنا نافذة على الجميع، والكل منقاد ومترصد، ولما وصل كتابنا إلى كنوج، فدى محمد بن القاسم بروحه وضحى طاعة لأوامرنا.

خطبة جنكى ابنة داهر أمام الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان

بعد ذلك رفعت الخريدة جنكى ابنة داهر الخمار عن وجهها وخفضت رأسها إلى الأرض، وقالت: يحيا الملك الخليفة في مزيد العز والسؤدد والجلال، وإن على الملك الذي يتحلى بالعقل النير أن يستمع إلى مقالة الصديق والعدو، ثم يوازن خواطره على المحك، وإذا كان الأمر صحيحاً لا ريبة فيه فإنه الحكم العادل، إن أوامرك نافذة لا شك في ذلك، لكن خاطرك وذهنك وعقلك خلو من الحكمة والتمييز، لقد كان محمد بن القاسم بمثابة الأخ، ولم يمد يده إلينا كجوار، ولكننا وبهدف الانتقام، لأنه أهلك جميع ملوك الهند والسند وأمراءها، ودمَّر مملكة الآباء والأجداد وضيَّع حضارتنا، وأوصلنا من عز الملكية إلى ذل العبودية، أوغرنا صدر الخليفة جزاء ذلك بالحقد والاندفاع، وحصلنا على مرامنا، وبوساطة هذا التمويه والتخليط، أخذنا بثأرنا، وأصدر الخليفة حكمه الصارم، ولو كان الخليفة قد حكَّم عقله ولم يستمع إلى العبيد والسبايا لما وصل إلى هذه المرحلة من الندم والأسى، حيث أمر محمد بن القاسم أن يضع نفسه في الصندوق ويهلك.

فشعر الخليفة بالندم العظيم والأسى العميم وتميز غيظاً واستشاط حقداً وأخذ يحك ظهر يده بأظافره.

خطبة ابنة داهر الأخرى أمام الخليفة

ثم جاءت الخريدة الثانية ونظرت إلى الخليفة وعلمت أنه قد بلغ به الغيظ أشده وقالت : لقد سها الخليفة العظيم حيث أنه من أجل جاريتين قد أهلك شخصاً أسر مائة ألف خريدة ، وقتل وأبعد سبعين ملكاً من ملوك الهند والسند عن عروشهم ، وحملهم على الآلة الحدباء ، وبنى المساجد مكان معابد الأوثان والأصنام ، وحتى لو ظهرت منه ذرة من التصرف غير المرضي ما كان يجب أن يُقتل ويهلك محمد بن القاسم .

فزاد غضب الخليفة وأمر بقتل الأختين .

ومن ذلك الوقت إلى يومنا هذا ، ترفرف كل يوم راية الإسلام أكثر فأكثر خفاقة فوق المسلمين .

الـدعــاء

اللهم يا مليك الملوك ، يا من جلت عظمته ، وتقدست أسماؤه ، أسبغ رحمتك على ملوك الإسلام السابقين ، واحفظ بعونك الملوك الحاليين ، الذين هم قوام الدهر ، ونظام العصر ، حتى انصرام وانقطاع العهد ببني آدم ، واحفظ بوجود مهابتهم راية الإسلام من نوائب الحدثان ، وطوارق الزمان .

تسمية الكتاب واهداؤه

سماء الدين والملك الحضرة الصدر الأجل العالم يمن الملك ، لقد أسميت هذا السفر تيمناً بكم بمنهاج الدين والملك الحضرة الصدر الأجل عين الملك الذي تمّ تصنيفه من قبل علماء العرب وتأليفه من قبل الحكماء وأصحاب الأدب في فتح الهند والسند ، حيث زُيّن بصنائع الفكرة ، وبدائع الفطرة ، وعجائب العقل ، وغرائب الفضل ، ونوادر الخاطر ونفائس الضمائر ، وقد اشتمل على حياة قلوب الأحباب ، ورياض الأنس والجان ، من المتوفين من

حكماء وعلماء العرب الذين يعجز العلم والبيان عن وصفهم، والذين وطدوا قواعد الرئاسة ومعاقد السياسة في البلاد.

متضمناً نصائح الدين والدولة، ومتكفلاً بمناهج الملك والملة، حيث كان له منزلة رفيعة في قلوب من لهم لسان العرب، وقام بمطالعته ملوك العرب بهمة ومباهاة عالية.

ولما كان هذا السِفْر بلغة أهل الحجاز ولم يُزيّن اللغة الفهلوية بنفائسه، ولم يكن متداوَلاً بين العجم، ولم يقم أي متفحص من أهل فارس بتزيين هذا الكتاب عن تاريخ فتح السند، ولم يقم بنقل حلله القشيبة من كَلِم العدل والحكم، ولم ينتفع من درره وجواهر العقل فيه أحد، ولم يرتوِ من مضمار فصاحته ورياض ملاحته أحد.

وأما حوادث الأيام البعيدة في البادية فقد تكسرت على أفواج الزمان، ومصائب الحدثان وجمعت كلها في سفينة القلب حيث وجدت أنواع الاضطرار، وفُقدت أبواب الاستظهار، وتبيَّنت أصناف الأقطار، وأسباب المكائد الكثار.

وبهذا فقد تمّ كتاب هذا العبد الفقير لله

والحمد لله رب العالمين

تمت هذه النسخة الشريفة

في الرابع والعشرين من شهر شوال

سنة ١٠٦١ هـ

المحتوى

الموضوع | الصفحة

N.A. BALOCH

FATHNAMAH-I SIND



